



شمس الخریف

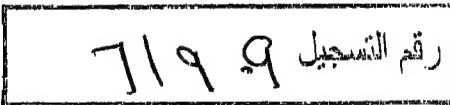


مطبعة خان مكتبة مصر

شمس الخريف

تأليف

محمد عبد الحليم عبد الله



مكتبة مصر

تسعيد جودة السحار

٣ شارع كامل صديق

"الفجاءة" القاهرة



- ١ -

كان يسميه حيناً بالسيد الخالد ، وكان يسميه أحيانا بسيد الخالدين . وكانت نبرات صوته وهو ينطق بهذه العبارة حلوة مضطردة عذبة توقظ النفوس من كسلها كما توقظ رائحة الشواء شهية الناقيين . ويخيل إلى أنه كان يحبه بكل ما تستطيع القلوب أن تحب ؛ لأن حبه له أعداني وأنت تعلم أن أحاديث الهوى تلحق القلوب بالحب وتثير في خلاياها استعدادها للتآلف بالفطرة التي فطرها عليها الله ، من أجل ذلك رأيتني أحبه .. أصبحت فدعوته بالسيد الخالد ثم أمسيت فدعوته بسيد الخالدين .

كنت في الصف الأول من الفصل أرقب مدرس التاريخ هذا الطويل الفارع الباهر المتناوح وقد وقف أمامي معتمدا بفخذه على مقدم الدرج تاركا سترته مفتوحة تكشف عن صدر تكور فيه ثدياه تكورا غير كامل تحت قميص أبيض يستبدل به قميصا أبيض في كل مرة ، كأنه لا يتغير ، وتبدو على بياضه حمالة السراويل قوية مشدودة لارتخاء فيها ، ترفع السراويل إلى ما فوق الكشحيين وعلى مقربة من الثديين بحيث لا يبقى من رقعة الصدر إلا مسافة محدودة يعتمد فيها رباط العنق على هيئة شريط قحدا لا حرية فيه ، تمسك طرفه الأعلى بتيقة قوية متشاة ويندفن طرفه الأسفل بين « كمر البنطلون » وكرش الأستاذ .

وهناك دهبوس ذهبي لامع يسك الرباط من وسطه مثبتا إياه على أديم القميص . أما الحلة فقد كانت دائما سوداء . وأما الطربوش فقد كان جد

طويل يتناسب مع سمت من يلبسه ، وأما موقفه من الفصل فقد كان أمامي
وقلما كان يتحول ، يظل هكذا طول الحصّة مفرجا سترته عن صدره معلقا
كفيه من الإبهامين فى « كمر البنطلون » مرخيا إحدى رجليه كأنه يريحا
ورجله الأخرى مشدودة ، معاقبا بينهما فى الشد والإرخاء بحركة سريعة
يهتز لها هيكله العظيم فتخال أنه يتراقص ، ثم تنسجم هذه الحركة بعد
الدقائق الأولى من الحصّة مع نبرات صوته وخلجات ذهنه وطرفات أهدابنا
وتردد أنفاسنا فتكون كلا متسقا لا يشويه ضجر ولا تنافر ولا تناقض . إلى
أن تمزق وحدته دقة الجرس بيد الفراش فى الفناء الخلفى من مدرستنا الكبيرة.
كان يغضى حين يلقب مصطفى كامل بالسيد الخالد وكان اغضاؤه حافلا
بروحانية وجلال تبعثرت بذورها فى نفسى على مر الزمن . وكنت لا أحول
وجهى عن وجهه المنمق المتناسب وإن كان ضخما واسع الرقعة كبير الجرم .
وكان نظرى إليه فى ارتفاعه يقتضىنى أن أشرّب بعنقى فأطرحه إلى الورا
حتى تطول رقبتى من الأمام وتتلاشى طولها من الخلف ويرسم زر طربوشى
مع جداره زاوية حادة تبلغ نهاية ضيقها عند قرص الطربوش ، ثم ينوس الزر
- كما قال الجالس من خلفى - نوسانا هادئا بندوليا رتيبا متمشيا مع نبرة
الأستاذ التى لا ترتفع ولا تنخفض كأنها خير أحد الجداول ، وأبقى هكذا
طوال الحصّة إلى أن تمزق سكتتى وجمودى دقة الجرس ، فأرد عنقى إلى
وضعه الأول وتأخذ الزاوية الحادة التى كونها الزر فى التلاشى قليلا قليلا
حتى يكف البندول عن الحركة ، وهنا يكتم زميلى ضحكة معتادة ! وكنت
إذا طالعت صورة الزعيم فى صحيفة أو كتاب خفى قلبى له فعزوت حبنى فيه
إلى أستاذنا الذى كان يتعهد ذكره بمناسبة وغير مناسبة ، ولكنى انتهت
عصر يوم من الأيام إلى شئ أحال قضية حبه العامة إلى قضية كادت تكون
شخصية ، ونقلها من حواشى القلب إلى الصميم المستنير الواضح حيث

ينصب نور المعرفة على أشخاص قلائل يتمتعون بالإقامة فيه إلى أن تكف قلوبنا عن الخفقان .

كان الوقت عصرا والفصل ربيعا ، لكن اليوم كان خليطا من دفء وبرد كأنه أحد « الجيوب » التى ستبقى يزوالها مقاومة الشتاء ، وكنت إذ ذاك فى حجرة النوم المستطيلة التى آوى إليها أنا وأمى كل مساء كما يأوى بقية الأحياء . وقد اقتعدت كرسيًا من القش موضوعا أمام منضدة مربعة صغيرة جعلت على يسار الداخل وقد بسط عليها كتاب جعلت أحملق فيه غائب الفكر حاضر النظرات . كنت فى السنة الأولى الثانوية ولم أكن منقولا ، وكنت فى الثانية عشرة من عمري وربما كنت أعبر إلى ما بعدها ، وكنت أحس بنفسى فى ذلك الحين إحساسا مشوشا مضطربا غامضا تشتهك معارفه بتركاته ، وتلتف مسراته بمساءاته ، كأنه إدراك السكارى أو المحمومين . ولم أكن أفكر فى الحياة تفكيرًا يناسب سنى ولا أطبق عليها منطق الغلمان من لداتى ، ولكنى كنت أنظر إليها ببلاهة يتكاد يسترخى معها فكى من الأسفل ، وأكن لها نفورا وسوء ظن وخوفا لأعرف فحواه ولا مداه كنفس الخوف الذى ينتابنا حين تقسرننا الظروف على إدارة آلة لانعرف كيف تدور ولا فيم تستعمل .

غير أنى فى ذلك اليوم أحسست أننى « أتأمل » وشعرت أننى حى من الأحياء . ولاتزال حتى الآن علاقتى بالدنيا مرتبطة بعصر هذا اليوم كما ترتبط بالزمان والمكان حوادث التعارف أو كما يستقيق المريض من أثر المخدر فيقرر أنه فى سرير . أجل كنت « أتأمل » ، فجعل بصرى يجوس خلال كل شىء حولى ، وفرضت أننى دخلت الحجرة من بابها المقفل فرأيت إلى يمينى سريرا كبيرا تقع العين على طوله ، وتعاثت نسمات البحر المتلمسة

طريقها من المصراع المفتوح - دائرا من « الدنتلا » ترقص على أديمه عرائس يحملن المزهار ، وتداعب أيضا ظهارة بيضاء مطروحة على الحشايا وكلة رخيصة ولكنها نظيفة ، تجمع أُمى أطرافها كل صباح تحت سماء السرير على هيئة قبة مقلوبة ثم تربطها بشريط من الحرير الأحمر ، وأمام هذا السرير كنية مريحة .

أما الشق الثانى من الحجرة والذي يقع إلى اليسار فقد كان حافلا بأشياء مهمة وإن كان قليل الأثاث : كان فيه الشباك الذى ينظر إلى البحر عن طريق « الكورنيش » وإن كنا فى بقعة لاتعد راقية جدا . وكرسى أو اثنان من القش تتحط أُمى على أحدهما فى المساء وأجلس أنا على الثانى إذا شئت أن نتحدث على مقربة من البحر . ومراة للزينة يتقدم من بين يديها رف من الخشب يحمل أشياء شتى لكنها تدخل تحت اسم الزينة والعقائير الطبية ليس غير . وأمام المراة كرسى بلا مسند ، وفى مواجهتها على التقريب مع ميل يسير إلى البحر منضدتى الصغيرة وكرسى القش وكتابى المبسوط ، وأنا ، وعينائى المحملتان ، وجسمى الحاضر ، وعقلى الغائب ، وصورة زيتية معلقة على الجدار فوق رأسى على التقريب ، بحيث يسهل على أن أراها منعكسة فى المراة فلا أثنى إليها عنقى . وقد أكسبت هذه الصورة النصف الثانى من الحجرة أطمية خاصة على قلة الأثاث فيه وجعلت كفته راجحة جدا فى ميزانى لأنها كانت صورة أبى !!

كانت صورة أبى ، وكانت موضع أفكارى ومتاهة شرودى والمفازة التى سرح فى نواحيها لى فى عصر ذلك اليوم . وكانت كذلك الشئ « الذى قلت لك عنه إنه أحوال قضية حى » لمصطفى كامل « من قضية عامة إلى أخرى تكاد تكون شخصية ؛ لأننى أحسست بفتة أن هناك شها كبيرا بين الزعيم وبين أبى ..

كان ظهري إلى الباب ووجهي إلى المرأة التي تعكس الباب بحيث أرى كل والـج منه . والصورة الزيتية منعكسة على الصقال بألوانها الزاهية وإطارها المذهب . وعيناي ناظرتان لاتطرفان كأنما شدت أهـداهـما إلى أديم المرأة ، والمنضدة منصوبة والكتاب مفتوح والسكون شامل وإن كان فى رأسى جلبة وضوضاء .

« آه .. كيف لم أدرك ذلك قبل ذلك . لو أن المقادير مدت لأبى فى جبل الحياة لكان فى يوم من الأيام مثل (مصطفى كامل) ، أم أن تشابه الوجوه يأتى اعتباطا ثم لا يستطيع تشابهها فى العقول ؟؟ لابد أن أبى كان عظيما وإن لم يعرف الناس ذلك عنه .. هل من شروط العظمة - أقصد أن أقول هل من مقوماتها - أن يعرف الناس أن صاحبها عظيم ؟ أظن لا . وإلا لنفينا عن الماس أنه ماس مالم يخرج من المنجم ! »

وابتسمت ، وخلت أن الصورة تبتسم إلى ، وتشكرنى على إطرائى بصرف النظر عن علاقتنا بالواقع . ثم أخذت شفتاى تستردان وضعهما الأول بزاوية الابتسامة ، واسترسلت فى أفكارى :

« .. إلا فى النظرة ! فى نظرة الزعيم وداعة لاتتوفر فى عيني أبى . أما الأنف فهو كالأنف . نفس الدقة والاستقامة واللطافة . والجبين ؟ .. رياه !! إنه كجبين أبى ، واضح نظيف لايزحف عليه شعر الناصية ، فيه ارتفاع فى المنطقة السفلى نظيف ينمو عليها شعر الحاجبين . إن المخ وراء الجبين ، فهل كان المخان متشابهين ؟! حكمتك يارب ! (ومصمصت بشفتى ثم تريت أفكارى وعادت إلى التدقق) .

« والشارب !! . ولبسة الطربوش !! .. والشفتان المستطيلتان الدقيقتان الممدودتان على حفافى فم واسع قليلا !! »
حكمتك يارب !! (ومصمصت شفتى مرة أخرى) .

ثم خيل إلى أن الصورة فى المرأة قد شرعت تضطرب وأن معالمها أخذت تغيىب كأن غلالة سوداء قد طرحت على « الأصل » المشدود إلى الحائط ثم أخذ الأمر يتطور حتى اتسع إطارها فانطبقت أضلاعه تماما على إطار المرأة ، واختفت صورة الرجل ، وحلت محلها صورة امرأة ١١ وكانت هى أمى ، لأنها واقفة يلحمها ودمها بين يدى الباب بعد دخولها وعلى مقربة منى .

وزايلنى الشroud فأحسست ارتباكاً وتبينت أن لابد لى من أن أعمل عملاً ما ، كان الكتاب مبسوطاً والصفحة لم تتغير منذ دخولها الحمام فأخذت أهتف بصوت عال وأتناوح وأنا أقرأ كما يفعل تلامذة الكتاتيب : المميزات الطبيعية لحوض البحر الأبيض المتوسط هى : فمرة واحد .. »

كنت أعلم أنها محاولة فاشلة لكنها خير من السكوت ، غير أن أمى أجبرتنى على السكوت سريعاً حين تقدمت إلى ووقفت خلفى يحول بين بطنها وظهري المسند المقوس لكرسى القش ووضعت كفيها على كتفى - كل كف على كتف - ثم ابتسمت إلى ابتسامة صفراء اتسقت تماماً ووجهها الشاحب وقالت لى بصوت خافض عاتب غاضب فى وقت واحد :

- سمعتك تقرأ هذه العبارة بصوت عال قبل دخولى الحمام منذ ثلاثة أرباع الساعة . البحر الأبيض المتوسط على مرمى أمتار منا ومع ذلك فأنت متشبث به تشبثك بالسنة الأولى ، لا تريد أن تفارق العتبة .

ثم غادرت موقفها فى طريقها إلى المرأة ولوت شفتيها بمرارة وهتفت بعنف :

- « بايت خايب عار » ليشك كنت فتاة إذن لشققت طريقك بوجهك الذى لا يخلو من وسامة ، أما الصبيان فهم فى حاجة إلى شىء غير هذا . وتنهدت على حين لذت بصمت عميق وجعلت أرقب ظهرها فى فضاء

الحجرة ووجهها فى صفحة المرأة فتيسر لى أن أراها من كل ناحية .
كانت يدها ترتجف خفيفا وكذلك شفتها السفلى . وكانت تلبس مجسدا
زاهيا فى لون أزهار البنفسج وتنتشر على ظهرها وكتفها ذوائب شعرها
المبلول تحت المنشفة الكبيرة التى جعلتها على رأسها من موضع الشال . وفى
اللحظة التى استقرت فيها على الكرسى أمام منضدة الزينة أمرتنى بأن أغلق
المصراع المفتوح من النافذة الوحيدة فى الحجرة حتى تفرغ من ترجيل شعرها ،
ففعلت ثم عدت إلى مكانى ، وحسرت المنشفة عن رأسها فى حركة لا تخلو
من عنف وضجر ثم زوت مابين حاجبيها وهى تنظر فى المرأة وأخذت أطالع
وجهها المكدود وسط هذا الصمت المطبق الذى أمسك بتلابيبها معا على حين
بدأت هى تتناول مشطها من بين زحمة الحاجات على الرف ، وما إن عثرت
عليه حتى بدأت تعمله فى تلافيف شعر طويل أصفر وهى تغغم :
- هيه .. هل تستطيع أن تنبئنى أيها الشارد الداهل عما كنت غائبا

فيه منذ مدة ؟

كانت خطى معها دائما هى أن أكبرج جماع نفسى أمام غضبانها
فقلما ثرت وربما لم يقع ذلك . ومرجع هذا إلى أننى كنت أراها - كما هى
الآن - امرأة مترملة مريضة تدبر أمر معاشينا ببقية أعصاب وصحة ، كما
أننى كسير الخاطر لتيقنى أمر ضعفى وأقصد ضعفى فى الدراسة ؛ لأننى
كنت من الناحية الجسدية مستوفيا شرائط القوة .

فأجبتها فى تودد وخنوع :

- كنت غائبا فى .. فى لا شىء .

فقال فى سخرية كأنها تشير إلى إخفاقى :

- معقول !! جدا .. وكيف غاب عنى هذا ؟

فاغرورقت عينائى بالدموع للمرة الأولى فى تاريخ علاقتى بأمرى

وأحسست كأن شيئاً يعترض حلقى بل وكأن صدرى قد نجم به نجم ثقیل عسر
على التنفس فلم أملك أن نفخت باشمئزاز .

كانت ذكريات أبى - ولا شك - هى العامل الرئيسى فى إثارتى وكأننى
كنت أقول بينى وبين نفسى : لئلا أن هذا الزورق لم يحتمله النوء على غارب
الأمواج لما تلاهى هذا الراكبان أعنى أنا وأمى !! « وتابعت منطق العلمان »
ولو أنه تربث قليلا فلم يمت حتى درجت فى دروب الحياة والمصباح فى يمينى
لتغير الموقف . كان من الممكن أن تعيش أمى بمنجاة من الأمراض ؛ لأنها
اعتمادتها بعد موته مباشرة . وكان من المؤكد أن تعيش هى بمعزل عن
مشاكل البيت ، وبخاصة الاقتصادى منها ، وكان من الجائز ألا أكون بليدا
فى المدرسة ..

لم لا ؟

واحتقن وجهى حتى تجاوز احتقانه بشرتى إلى بياض عيني ، ورأت
أمى ما بهى فتحول غضبها من موقفى الأول إلى غضب من أجلي على موقفى
الثانى ، كأنما كانت تأمل فى هذه الآونة ألا أتخلى عن احتمالى لأعباء
غضبها ، فلما تخلت ساءها ذلك . وتوقفت كنها عن المشط وتحولت بشقتها
إلى حثي واجهت كتفها المرأة ثم سألتنى فى هدوء نسبي وهى تقرر إبهامها
على أسنان المشط :

- لماذا أنت غاضب ؟

فأجهشت بالبكاء !! وكان من الطبيعى جدا أن تقوم وتقبلنى حتى
أحسست برودة شعرها الرطب على عنقى وحدى ، وكانت قليلا ماتنعل .
لست أتهمها بالقسوة ولا بالانصراف عني ؛ لأنها فى الحقيقة امرأة طيبة
القلب ، لكن الظروف الخاصة التى تربصت لها عند مدخل الحياة الزوجية
أكسبتها عدة عادات ألقت ظللا من القسوة على معاملتها إياى . وفى

الحق أننى كنت أنا شخصا نقطة ضعف فى حياتها الخاصة ؛ لأنها لم تكن ترانى من الموفقين فى الدروس على حين كان الآخرون من أبناء الجيران والمعارف يكادون يقطعون سنى الدراسة وثبا لو لم تقيدهم السنوات ، وذلك على قلة عملهم وكثرة لعبهم . أما أنا فقد كنت كثير العمل قليل اللعب نادر التوفيق .

ومن أظهر العادات التى فرضتها الحياة على أمى أنها من صنف لا يطيق أن يزاول التجربة للمرة الثانية مادام قد فشل فيها للمرة الأولى . فلن تعيد صنع فطيرة جديدة على يديها إذا خانها التجهيز بعد توافر العناصر، ولن تشرب الدواء غير مرة فإذا لم تحس ثمرة أعرضت عن زجاجته، حتى ازدحم رف المرأة بالزجاجات والأحقاق .

ولعل أطرف مظاهر عاداتها هذه هى مأساة خادمنا الصغير ذلك الرقيق الطيب الذى كنا ندعوه باسم « عبده » كان فى الثامنة من عمره ضخم البطن قليلا من شرب ماء الترع ، أسمر لوحته الصفرة ، أو أصفر موهته السمرة ، يميز وجهه البرى الساذج نقطتان من وشم أخضر كانت إحداها فى أسفل ذقنه وكانت أخراهما على يمين أنفه عند السفح بحذاء الأرنبة . وقدر لهذا الخادم أن يمضى عاما واحدا فى بيتنا ، ولكنى ألفتة حتى كدت أتخذه صديقا، وكانت أمى تحبه لأنها تشور عليه وتنفجر فى وجهه فيبتسم لها وهو يرتعش ، ولعلها كانت ترى فيه متنفسا طبيعيا لفضبها الدائم كأنها دخلت هذه المهمة ضمن المهام التى يقوم بها المسكين !! لكن الظروف بخلت عليه بهذه المنة واستكثرت عليها هذه النعمة فيسرت « لعبده » فى ضحا أحد الأيام أثناء عودته من السوق كلبا ضالا نهشه السعار فنهش رجل خادمنا بأنيابه المسمومة . وقد تبعثرت أعصاب أمى فى كل فج صباح ذلك اليوم : فصرخت فى المطبخ وولولت فى الصالة وصغبت فى حجرة الجلوس ولطمت

خديها فى حجرة النوم وركلت كراسى مائدة الطعام وبصقت تقززا واشمئزازا
فى حوض الغسيل ثم صبت على وجهها بعد ذلك ماء باردا لكى تستفيق .
حدث هذا كله فى خمس دقائق ، وربما فى أقل .

وسرى السم فى جسد الصبى حتى تراجع فعل الدواء ، وحتى مات فى
إحدى الليالى وهو يعوى بين نزلاء المستشفى كما تعوى الكلاب الضالة . ثم
بقيت أمى مؤرقة عدة شهور تنتفض فى الفراش لتشعل النور إذا ما سمعت
فى جوف الليل نبرة كلب ..

واعتبرت أمى هذه الحادثة موجهة لشخصها مباشرة ، ولعلها اعتبرتها
ابتكارا من الزمان غير طريف ، فصمتت على ألا تعاود هذه التجربة مرة
أخرى ، فلم يدخل بيتنا خادم منذ ذلك التاريخ ، لا كبير ولا صغير ولا ذكر
ولا أنثى ، وقمت أنا بمهام الخدم فى حدود طاقة غلام مثلى .

وكان لمبىتى فى السنة الأولى وقع سيئ على نفسها ، ولعل نفسها
قد راودتها أن تطبق على قاعدتها المألوفة فتحول بينى وبين الدراسة . ولكن
لعلها تساءلت : إلى أين إذن مسيرى وكيف يكون مصيرى ؟ فكفت
وأمسكت .

هذه هى الأم التى سيطرت على حياتى بعد وفاة أبى وأنا فى الثامنة
من عمرى ، وما كنت ناقما عليها من قبل ، ولكننى أعاتبها بعد أن قام
بيننا الزمن وأسائل روحها فى عالم الأرواح قائلا لها : هل يلدنا آباؤنا
ليكون وضعنا منهم كما كان وضعى منها ، متنفسا للغضب ، وتعبيرا
للفشل ؟ كلا . إننا نتطلب من الأم العطف والرحمة والحنان مادامت
البشرية فى حاجة إلى الأمومة . الست ترى أننا نتحسس بأيدينا طريقنا إلى
أثدائهن حتى ولو كن محمولات ؟

وفرغت أمى من تمشيط رأسها ، ثم أرسلت على ظهرها ضفيرتين من

شعر تشويه الصفرة ، وكانتا غزيرتين مجدولتين فى توثيق لطيف مربوطتين
عند النهاية بشرط من الحرير الأسود .

ثم عادت تسألنى :

— لماذا أنت غاضب ؟

قلت :

— لأنك تعتبرينى بليدا !!

فأجابت بثقة فيها شىء من الرقة :

— هل ترانى عدوت الحقيقة ؟

فسألتها متعطشا إلى أن تهدبنى :

— ولماذا أنا بليد هكذا يا أماء ؟

فلم تأتنى إجابتها سريعا ، بل رأيتها تهز رأسها متلمسة سبيل
الجواب فأحسست راحة ، أو استشعرت شماتة أنها بليدة مثلى . وانقضت
فترة غير طويلة حتى سمعتها بعدها تقول :

— هكذا خلقك الله !!

فهمست وأنا أنفَس الصعداء :

— إذن فما ذنبى ؟ ثم ألا تعلمين أن شرودى وتفكيرى قد كان فى شىء

هام .. كان فى هذه الصورة « وأشرت إلى أبى فى المرأة » .

فتنهدت ثم اشرأبت بجيدها الطويل الذى عاث فى رشاقتة المرض ،
وألقت نظرة على الصورة كأنها لم تكن تعرفها . كان وجهها إلى ناحية
البحر ، وجنبها الأيمن فى تجاه المرأة . وجنبها الأيسر فى تجاهى . وهى
جالسة على الكرسي الذى لامسده له ، فكنت بهذا الوضع أرى عينيها وهما
تلقيان على الصورة نظرة جانبية ، كانت غامضة ، لم يكن فيها حنان ، ولم
تندها الذكرى بالدمع . لم ؟

ربما استنبطت ذلك من خلال القصة التى روتها لى بعد العشاء ، حين ارتقت على أحد الكرسيين متهالكة إلى جوار النافذة ، وجلست أنا على الكرسي الثانى .

أب من دمنهور ، وأم من المنصورة ، وبيت زوجية فى الإسكندرية التقي فيه رجل وامرأة ثم كان وليد أطلقوا عليه اسم « مختار » وذلك هو .. أنا !.

دعنى أقطع عليك سياق قصتى فترة قصيرة لن ترهق ذهنك لأسألك فى بساطة : ما الذى كان يحدث لو تخلف عنصر من هذه العناصر ؟ أعنى لو أن دمنهور لم تلتق مع المنصورة؟ أو أن الإسكندرية لم تجمع بين هذين الفردين؟ أو ماذا - وهو أفتنه ما يجوز - لو أن هذين النصفين المتطابقين تخاصما ليلتئذا أوأفزعهما طارق ما .. ؟ لو وقع أحد هذه الفروض ، ما سمعت قصة « مختار » ، ولارتاح هو نفسه من أمور يراها غير ضرورية بالنسبة إليه ويعتقد أن فرضها عليه لايفيد هذه الرقعة الكبرى التى نسميها العالم !

كان أبى قبل أن يخطو خطوة واحدة نحو « وجودى » أحد تجار المنسوجات فى مدينة «دمنهور» مستط رأسه . ويتخذ دكانا صغيرا فى شوارعها القائمة ، لكن رونق شبابه وجمال صورته وعذوبة حديثه كانت مجلبة للشارين ، ولم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى تفتحت له أبواب الرزق واتسعت تجارته وامتلا كيسه بالذهب فأشير عليه أن يرحل إلى الإسكندرية حيث الأفق واسع والمجال فسيح للمغامر الطامع البعيد الهمة . وقد فعل أبى وانتقل وراء حظه وحالفه التوفيق .

ولم ينقض ذلك العام حتى وقع فى حياته الحادث الهام الذى كان أشبه شئ « بالمقايسة » لبناء حياتى . فإن أبى سافر إلى « المنصورة »

لشأن من شئون التجارة . جالسا إلى صديقه أحد التجار فى محله حين لفت نظره وجه جميل ..

وتدخلت المهنة والطبيعة ، فمال إلى صديقه وشرعا يتهاامسان لكن عيونهما كانت تشى بأنهما يراقبان فتاة تقف مزهورة بما منحها الطبيعة ، كما تزهى الطيور بألوانها متعرضة للعيون . وانقضت مرحلة التساؤل فبدأت مرحلة المساومة ، ثم عقدت الصفقة ثم انتقلت « أم مختار » بعد بضعة شهور إلى أحضان زوج هادى . الطبع ركين رزين مستور الحال ميسر النفقة . واستوت لهما حياة زوجية كانت حافلة فى عامها الأول بما تحفل به بيوت الأعراس من حب وتسامح وسعة وإغضاء عن العيوب إلى حين ، لأن كلا منهما - وقد رسم لنفسه حياة طويلة مع نصفه الآخر - يرى نفسه ملجأ إلى أن يؤجل مناقشة الحساب فيما لايرتضيه إلى فرصة مقبلة ، وبقيا كذلك إلى أن اتسمت حياتهما بميسم « القدم » الذى يترص دائما لكل جديد ، وبدا طبع أمى النارى يصطدم مع طبعه الهادى . فى كثير من الشئون التى تخرج عن « الاقتصاديات » كأن تحاسبه على تبسطه فى الحديث أمام امرأة أو مبيته خارج بيته لشئون التجارة مع استطاعته العودة فى فرضها هى . ولكن هذه الغارات كانت تترد وقد اكلت نفسها بنفسها كما تفعل النار ؛ لأن أبى كان يتراجع إلى أن يتحصن بصمت وابتسام كادا يستحيلان طابعا له .

على أنها كانت تحبه ، وقد أورثها حبها حرصا عليه ودت لتحول فى يوم ما قفلا كأكفال الخزان . إلى أن شاركتها أنا مسكنهما بعد ثلاثة أعوام من زواجهما فكنت أشبه بعلبة صغيرة من المرهم تمتد إليها يد كل منهما بعد جراح الثانى ، ولو أن حياتهما فى مجموعها كانت ترفرف عليها السعادة . لكن الزمن سدّد إلى أمى سهمين قاسيين لم يدع بينهما فترة حتى ترقأ دماء أولهما ، فإنه انتزع منها أباهما وأخاها فى عام واحد ، فبدأ بالشيخ ثم

ختم بالشاب ووجد أبى نفسه مضطرا إلى أن يواجه طبع زوجته « باعتماد » جديد من التلطف والمصاهرة فى غضبها الذى ما كانت تسبقه النذر ، وقد كان رجلا واسع الحيلة فى هذا الفن ، ولعل ممارسته لتلك الحياة قد أكسبته فيها خبرة من لون التى يفتخر بها مدرسو الوحوش أو رعاة الشعابيين .

غير أن المقادير تحتفظ لنفسها دائما بالمرقعة الأخيرة .. لا بد أن يكون لها الظفر فلا تدع قوانا قادرة على تحمل كل شيء ولا تدبير كل مشكلة وإلا لوجد بيننا القادر الكامل . وامتنحت المقادير أبى بحنة جديدة حين بدأ الوسواس يسيطر على فكر زوجته فتوهمت أنه يحب . ولعله حاورها قائلا :
- ولماذا يا سيدتى مادمت غير محروم من الجمال ، ومادام فى بيتى

أفمؤذج منه تستضىء به أركانه ؟

فأجابته قائلة :

- أعلم ذلك ، ولكنى أضايقتك أحيانا .

- ولماذا تفعلين ؟

- لأثنى .. أحبك .

- إننا نتطلب المعنى الذى يسعدنا لالمعنى الذى يشقينا ، فإذا كان

الكره هو الذى يسعد فلتسمه الحب .

ولكنها لا تحجب . ثم تبكى . ثم تفعل الدموع بجمالها ما يفعله الغمام فى سرارة الروضة فيقوم إليها - فيما أتخيل - ساعيا مصالحا مفسدا نظام الدموع على خدها بتثقل شفثيه المرجفتين .

وهكذا تفعل الجميلات .

لكن الإنسان يتذكر دائما ما يبذله ، وقد بذل الكثير دون أن يحس ، لكنه لا بد له من لحظة يحاسب فيها نفسه ويراجع فيها دفاثره . وذلك هو عين ما كان يحدث عقب كل منحة يقدمها أبى « لأم مختار » ، قد تكون منحة

يستلذها ساعة ولكنه ولاشك كان يزنها فى ساعات الهدوء ليعلم ما مقدارها ، وفى ذلك دليل حاسم على أن فى القلب شيئا ما من النعمة .

والقضايا بين الأحباب والأزواج « المتعاشقين لا المتصادقين تستأنف نفسها بنفسها كما تستأنف فصول السنة بداياتها بلا استئذان . ومدلول هذا أن قضية ما تقوم بين زوجين أو حبيبين من المحال أن تنتهى بالنقاش ولو كان منطقيا مرتبا سليما ؛ لأن العقل فى هذه المواقف لا يكون أبدا على المسرح ، أقصد أنه لا يشترك فى الموضوع وإنما يكون فى « الشرفات » يرقب وينظر، وربما عن له أن يحكم ، ولكن بعد اسدال الستار على الفصل الأخير .

من أجل ذلك كانت المشكلات القائمة فى بيت أبى متجددة بطبيعتها حتى أضحت فى بيتنا كمزرعة الهرسيم لا يبلغ الرعاة آخرها حتى ينبت أولها من جديد . واستمر أبى صابرا مرابطا فى عش الزوجية متعلقا بالعصفور الصغير خالقا من المعاذير لغلطات زوجته ما تعجز هى نفسها عن خلقه لو شامت ، وقلما كانت تحاول !!

ثم بلغت قدرة أبى ذروتها وبلغ احتمالته نهايته ، بل وأخذ دوره فى صف جديد هو صف الذين يحتاجون إلى المواساة والترفيه ، وأصبح لزاما على أمى أن تتخلى عن مكانها له ولو إلى فترة من الزمان . وسر ذلك منفصات خارجية بدأت تناوشه ، كانت سرقة المنسوجات فى تلكم السنوات أشبه ماتكون بأرجوحة الصناديق ذات صرير وضجيج وارتفاع وانخفاض ، حتى محيت أسماء تجار كانوا من اللامعين ، وارتفعت أسماء كان أصحابها فى الحضيض . وأصبح التاجر المتوثب من أمثال أبى فى عراك مع نفسه دائم . ونشط الوسطاء وتسلب المضاربون بحيل خسية . وحينما تسود الخشية من الفقر تسود كذلك الرغبة فى الغنى ، أعنى الذين كانوا يريدون أن يتخلصوا من بضائعهم بأقل ثمن مخافة الإملاق وجدوا من يقبلونها منهم

تطلعا إلى الثروة ، وكان أبى دائما من المتطلعين .

وتخلى عن طبعه المألوف فى البيت فلم يطاول زوجته اللجوج الملحاح ولم يصبر على أذاها . كان كالجالس على مائدة القمار فى هذه الفترة من حياته ، فلم يكن يطيق أن يسمع إلا ما يوافق أفكاره ، أما أن تنهائه عن اللعب أو تحدّثه فى شىء خارج عن المائدة الخضراء فذلك كفيل بأن يشعل ثورته .

والتقى طبعان ناربان أحدهما دائم والآخر موقوت ، فأرسلا شرارا ودخانا كثيرا ماتصاعد من النوافذ ومساقط النور ، فتأذى بهما الجيران ، ولم تعد علبة المرهم الصغيرة مجدية إزاء الجراح الخطرة . وتطورت الحالة فى الخارج ، فنجبا الذين تطلبوا السلامة وخافوا من الفقر ، أما طلاب الثروات فقد ماتوا تحت أكداس البضائع ، كما مات أحد العلماء تحت أكداس الكتب .. كلاهما طامع فى الثروة فأهلكته أدواتها !!

ضاعت ثروة المسكين . أجل ضاعت ثروة أبى . ودخلت عليه الفاقة من نافذة كان يفتحها للغنى بيديه . وتلقى الصدمة بأعصاب استهلكت فى ميدان البيت ، ولم تكن الهزيمة داخلية قط فى حسابه ، وهذا شر ما فعل الحاسبون ، وأنصفت أمى فأطفأت كانونها فترة وحبست دخانها مدة ؛ حتى يشوب الرشد إلى رجلها المنكوب . ولكن ليس الكف عن جلد الموتى مما يستحق الثناء ، ولا هو داخل فى حساب الفاضلين ، وإن كان جلد الموتى من الكبائر .

ولم تطل الهدنة كثيرا ؛ لأن أمى كانت محاربة بطبعها ، لكنها لا تحارب إلا فى الجبهة الداخلية ، وأطلت المشاكل القديمة بين الزوجين برعوسها ورفعت أغطية القمام ، وأسرعت أمى فشهرت السلاح ، ولم يطق الرجل التحدى ؛ لأنه كان كما حدثتك جديرا بأن يأخذ دوره فى الترفيه والراحة .

وكان لزاما على أمى أن تتخلى له عن مكانها ، ولو إلى فترة من الزمن .
لكن اللجاجة طالت ونشط الكانون ، وكان كانون شتاء وقوده ميلول ،
فارتفعت سحائب الدخان حتى أعمت الجيران .

وكان أبى فى ذلك الحين يعمل وسيطا فى السوق . ويردد على تجار
كانوا بالأمس يترددون عليه وهذا شىء يستدر العطف ، لكنه احتمل على
كل حال صابرا أو ناقما أو يائسا أو مقتنعا ، فذلك لا يعنى ، لأن الذى
يعنى إنما هو كسب الرغيف .

ثم استشرى اللجاج ، واضطربت المخاصمة ، وكنت إذ ذاك صبيا
أستطيع أن أفهم مغازى بعض ما يقال ، ولعل أبى قد أحرز انتصارا لم
ترضه سيدته فلجأت إلى سلاح جديد ، اعتقد أن قوانين الحروب تحرم
استعماله فى البيوت ، كما تحرم فى الميادين إطلاق الغازات أو جرائم
الأوبئة . أما ذلك السلاح فهو التعبير بالفشل !!

لم أر يا صديقى ثورة رجل هادى . ، ولا غضبة رجل غضوب تقارب فى
مظهرها غضبة أبى فى هذا المساء ، فقد استحال وجهه الوسيم إلى شىء
غريب أنكرت فيه ملامحه ، وأشد ما أفزعنى هوجع عينييه واحمرارهما ،
والزبد الذى كان يسيل من جانبيه فمه ، وكفاه المتكورثان فى قبضة مجموعة
لم يتنازل بهما إلا أشباحا فى الهواء كان يكيل لها الضربات ، أما هى فقد
انزوت كالهرة المقرورة راجفة خائفة متوقعة بطشه بين طرفة وطرفة ، ولم يفعل
أبى شيئا مما توجست ، بل كان يدمدم ويخلط قائلا فى ألفاظ متداركة
متشابهة النبرات :

— أنا فاشل ؟. أنا خائب ؟! لو لم أكن أستحق هذا لما رزأنى به الله ؟!
هكذا .. عيرنى من ظفرت وحدها بشمات حياتى ؟! نساء .. نساء .. آه ..
آخ .

ثم ينهار متهاكاً على مقعد قريب ، ثم يدور فى نواحي الشقة مرة أخرى ليستأنف الشوط ، على حين تركته هى ولجأت إلى فراشها . ولعلها وقفت إلى مرأتها قبل أن يدخل المخدع لتهيبه سلاح جمالها فى هذه المرة كذلك . ولم يسمع الرجل منها كلمة اعتذار ، ولا حتى كلمة مناوشة جديدة ، كأنما رأت من الأفضل أن تتركه يهدى نفسه .

واستغرقت أنا فى نومى قبيل منتصف الليل ، فلم أحس ما وقع لكن صيحات متفرقة عالية أجبرت شعورى على أن يسجلها فى نومى الثقيل ، وكانت فيما أتذكر أشبه شىء بالطلقات المتقطعة التى تتجاوب فى الفضاء فى جوف الليل البهيم . وأصبح الصباح فلم أر أبى على مائدة الفطور ؛ فتساءلت بعينى ، ولكن أمى كانت تقابل ذلك بالإغضاء والإهمال ، فلما لم أجد مندوحة من النطق سألتها بلسانى ، فغمغمت فى ضجر وسرعة واستنكار :

— ذهب لشأنه .. كل !!

فأمسكت ، ولم أزد .

ولم تكن هناك مائدة غداء فأكلت وحدى ، لا ولا مائدة عشاء فأكلت وحدى ؛ لأن أبى لم يعد ولم يجلس أمى إلى طعام قط . وبدا عليها أنها قلقة ، وأنها ذهبت عدة مرات ففحصت خزانة الملابس ، ثم عادت ففحصت صناديق وعلباً وأشياء أخرى . وكانت تقول فى كل مرة : « حسن . كده .. زى بعضه » نبرات توحى بخطر أو جزع ، أو عدم مبالاة يبدو فيها تكلف واصطناع .

ثم أفصحتم الأيام التوالى عن مدى حزنها وندمها ؛ لأنه قد هجر البيت وأحست « أم مختار » أن مسألتها لم تعد فى حدود الجيران بل قد تجاوزتها إلى الخارج عن طريق غير طريق النوافذ ومساقط النور ، فاستشعرت خجلاً !!

ولكن ماذا يصنع لها الخجل ؟

كنا نملك بطبيعة الحال ما يسد حاجتنا وييسر لنا الإنفاق ، ولكن كثيرا من الناس لا يتبينون إلا بعد فوات الفرصة أن المسألة ليست مسألة قرش ولا أكلة شهية ، إنما العبرة كلها بالجور العام . وقد أدركت ذلك أُمى فاستشعرت خجلا ولكن ماذا يصنع لها الخجل ؟

لم تمض أيام حتى تلقينا رسالة معنونة باسمى كانت أول رسالة يحملها إلى البريد ، وشامت المقادير أن تكون هذه هى ظروفها ، ومزقت « أم مختار » غلافها على مشهد منى بعجلة خفت معها على رقعة الرسالة ، لأنها عرفت خط أبى ثم طالعتنا بعد فضها مباشرة رقعة صفراء لم تعجز مداركى القاصرة يومئذ أن تدلنى على أنها ليست خطاها فقد كانت حوالة بريد بعدة جنبيها عليها خاتم إحدى عواصم الوجه القبلى ولم يكن معها قصاصة تحمل كلمة واحدة !!

وحملت أُمى رأسها بين كفيها ، ثم شرعت تنتحب فأطلقت السبيل لدموع الحزن بعد أن فرغت من دموع الدلال وبكى بجوارها ، وأحببت أبى جدا فى هذه اللحظة ؛ لأننى قرأت فى تلك الدموع شهادة منها على أنه مظلوم . ثم جففت دمعى بكى على أثر صرختها التى تأمرنى بالسكوت لأن الأمر بسيط لا يستلزم بكاء !! على حين كانت العبرات لا تزال تجرى على خديها .

ثم رأيتها بعد ساعات تجهز حقيبة وتلبس ملابس شأن من يستعد للسفر . ولما سألتها بعينى الملهوفتين لم تثن على بجواب ، فسألتها فى اضطراب وإخلاص :

— أمسافرة أنت كذلك يا أماء ؟

فتشاغلت أو لعلها لم تسمع ، فقلت :

— مسافرة أن

فجاءتني صرختها تقول :

— إذن فما تظننى فاعلة ؟ ألا ترى أنه من المحتم أن نبحت عنه ؟ لو

كان رجلا عاقلا ما اجترح هذه الخطيئة ، « منه لله » !!

ثم ذهبت إلى النافذة فنظرت إلى الفضاء برهة ثم رجعت فوقفت أمام المرأة ساهمة جامدة شاردة اللب إلى مدة خلت معها أنها تجمدت أو أن سحرا أحوالها فى موضعها إلى قتال من الشمع ، أؤكد لك أن شيئا من الخوف قد زحف إلى قلبى لأننى شعرت أننى أمام مخلوقة خارقة بل ضعيفة يجب أن يحمل بها وتولد من جديد . كانت فى حاجة إلى من يد إليها يده ليخرجها من الأنقاض قبل أن تختنق ، ولكن لست أدري لماذا لم تستشر أحدا ، لعلها كانت تخاف من الفضائح !!

ثم رأيتها تتناول الحقيبة لتفتحها وتستخرج منها ما قد كانت رتبته ثم تنحو على ملابس الخروج ناضية إياها فى عنف وثورة ناسية أن بعض أجزاء جسدها بان من أعلى القميص لعين لا يجب أن تراها ولو كانت عين ابنها ، ولبست ملابس البيت فنظرت إليها أسألها بلا ألفاظ : هل عدلت ؟ فلما قابلت تساؤلى بالإغضاء لم أحاول تكراره ؛ لأننى خفت أن يصيبنى مكروه . واحترفت أمى الكذب مدة شهر ولعلها كانت تجهز مجموعة من الإجابات كل ليلة وهى فى فراشها لتواجه بها السائلين ، ثم جاءت رسالة أخرى لم يكن فيها إلا الورقة الصفراء كذلك ، أعنى حوالة البريد التى تحمل إلينا النقود . وكان الخاتم من مكتب المنصورة فلم تتردد أمى فى هذه اللحظة فإنها ليست وسافرت تاركة ابنها عند أسرة فى الشقة التى فوق شقتنا ، نزلت عندهم ضيفا ذليلا وإن عاملونى معاملة الأعزاء . ولعل الذى شجع أمى على السفر أن المنصورة معروفة لديها وأن معاونه حقيقية ربما بدلت فى

التحرى عن مقام أبى . وانتقضت ليلتان عادت بعدها وملاح وجهها تحمل نتيجة الرحلة ، ثم تبينا بعد ذلك أنه لم يكن يرسل خطابه إلا قبل رحيله عن مقامه المؤقت بيوم أو يومين .

وتنقضى خمسة شهور كوامل يطرق علينا الباب بعدها فى منتصف الليل رجل تعرف أمى صوته وتنكر صورته ، لاثبت أن تهتدى فيه إلى ملاح رجلها القديم فتتلقاه فى أحضانها هيكلا طويلا ناحلا مريضا ووجهشان بالبكاء فى وقت واحد . وكان عجبى شديدا حين نفقت عنى أغشية النوم فى وقت الصباح مستيقظا على صوته لكننى كدت أنكره كذلك فلم أملك أن أحبس سوايقى دموعى .

إنى لأعجب لتلك الآيات التى تطيع وجوهنا بطابع الحياة التى نحيها ، أهى حركات ذهنتنا فى سبيل العيش أو فى نواحي المهنة هى التى تؤثر فى صفحات وجوهنا هذا التأثير الظاهر ؟! بحيث نقرأ فيها للصوعية أو الشعر أو الفلسفة أو التحايل والاستهتار وبحيث نلمح الخلل والجنون مطلا من نوافذ العيون ؟ لعل مصيب فيما أظنه ؛ لأن ماء النعيم وتردد العز ونظرة التاجر وابتسامة التردد كل أولئك كان قد غاض من هذه الصفحة فعرفت فى وجه أبى وجوه السماسرة المرضى المعوزين الذين كانوا يدخلون إلى محله وقد رأيتهم من قبل .

ثم سارت الحياة ظالعة عرجاء ، وابتدأ الشريكان يقتسمان البؤس اقتساما حقيقيا حملت أمى نصيبها منه دون أن تجار بالشكوى أو التذكر ، لأن أبى إن جازت مسئوليته عن موقفه فى التجارة فإن « أم مختار » يجب أن تحمل مسئوليتها عن موقفها الأخير الذى حمل أبى على التشرد إلى مدى شهور ثم أرجعه بعد ذلك مثنخا بالجراح . كان مريضا فى غير سعة بعد أن كان صحيحا يعيش فى بحبوحة ، فانظر كيف أن البلايا لاتسير إلا فى

قوافل أو أسراب أومجاميع !!

ثم من يدري ؟! لعل أمى كانت تعزو فقدانها صحتها إلى ارقائه فى أحضان مومس طالما أنه لم يلق الهناء فى أحضانها هى . لعل هذا الخاطر كان ينتابها ولكن هل تستطيع أن تتفوه بكلمة ؟ إنها استهلكت حظها من الكلام فى أعوام قليلة !!

أجل سارت الحياة ظالعة عرجاء حتى كلت من الظلع وتعبت من العرج فرأت أنه لا بد من أن تتوقف !!

وكيف تتوقف الحياة ؟! هل رأيت دوحة ضخمة عظيمة محللا دائمة الخضرة فخذعتك بخضرتها طوال الفصول حتى ظننت أنها لا تسقط ورقة ؟ ذلك هو غير ما يحدث ؛ لأن هناك أوراقا يحين حينها فتسقط عندما تحبس عنها الشجرة عصارة الحياة . وهكذا دنيانا تتوقف فى بعض أجزائها فلا يشعر المجموع !! وقد توقفت الحياة فى بيتنا بعد عام من عرجها الطارىء .
وعودة أبى إلى البيت ، وتوقفت مع الأسف فى أجمل نواحيها نفعا .
مات أبى فغاب عن سوق السمسة ، كما قد غاب من قبل عن سوق التجارة !!

« قصت على أمى بعض هذه الحوادث بعد العشاء حين ارقمت على أخذ الكرسيين متهالكة إلى جوار النافذة ، وعلمت أنا بالباقى فى سياق حياتى .. وإنه على كل حال .. لشيء فاجع !! » .

٢

إنها على الرغم من طيشها ورعونتها وأنها زوبعة لا تكف عن التدويم امرأة مستقيمة فى أخص المعانى التى نقصدها بالاستقامة إذا ما ذكرنا النساء .

على أنها قد أثبتت رغم أنفها فلم تلبس على أبى ملابس الحداد السوداء وحدها ، بل لبست معها قميصا أصفر غطاها من الفرع حتى القدم ، ألا وهو لباس المرض الكئيب حين كسل الكبد ونشطت المرارة وازدادت حموضة المعدة ، وهموما أخرى لست أدريها وإنما يقول عنها الأطباء ، فأى رجل بعد ذلك تطوع له نفسه أن يهتم بأرملة ذات ولد وهى بعد صفراء سقيمة فى ملابس سوداء ؟

وانطوت أوى على نفسها انطواء السجين يستلقى على فراش السجن بعد جهد المحاكم والأمل الخداع ، فأحست نفس الاستقرار الذى يحسه حين يلمس جنبه الفراش فيتنفس الصعداء لأنه بدأ حياته واضحة وإن كانت كريهة .

جعلت ترتب شئونها المالية لعام أو عامين فتحصى مآثره أبى من مال قليل ، وانتعش سقمها فترة حين كشفت بين أوراق أبى ما يدل على أن له ديونا بسيطة فى ذمة بعض الناس ، وكانت ديونا عادية تستطيع « أم مختار » بتحصيلها أن تأمن على معاشنا سنة جديدة . وأدخلتنى فى اعتبارها على أننى مرفأ يؤوى إليه على قلة أمانى

وضمانى . غير أنى على كل حال نخلة فى صحراء قد ألقى ظلا خفيفا على الرمل المتقد وقد أسقط بلحة فى وقت جوع .

أما حقيقتى الشخصية التى كنت أقف عليها سريعا إذا ما سبرت أغوار نفسى فى وحدتى فى هذه الأيام فهى : أننى غلام أصلى لأى شىء . إلا الدراسة . وأسرنى هذا الوهم فلم أستطع أن أفلت منه . خلت يوما من الأيام أنى فاسد المخ ، وأن هذا المخ الفاسد لابد أن ينتهى صاحبه إلى الخبل أو إلى الذهول . فكرهت المدرسة . وأحببت يوم العطلة من بين الأيام جميعا ، وأبغضت اسم المدرس واعتبرته بينى وبين نفسى جاسوسا مهمته فضح أصحاب العقول الذين هم من طائفتى . وجعلت أجلس إلى المكتب جلسة المريض إلى مائدة الطعام . شىء يزاول بحكم العادة أو فرارا من اللوم والتعنيف .

وشغلت عن أمى بشئونى وشغلت أمى بشئونها عنى . كنت ألح على الكتاب ليصلح حالى وكانت هى تلح على الدواء ليصلح حالها ثم عدنا بنتيجتين متشابهتين بعد عامنا الأول فلم يجد عليها الدواء كما لم يجد على الدرس . وكما ازدحم رف مرآتها بالأدوية العديمة الجدوى ازدحم رأسى بالمعلومات العديمة النفع : فأخفقت فى العلاج وأخفقت أنا فى الامتحان فى الدور الأول .

ولعلك تذكر أننى كنت معيدا فى السنة الأولى أعنى أننى لم أكن منقولا وأننى مهدد بالفصل إن لم أكن من المستحقين دخول الدور الثانى ، وقد كان بشروط ، وقلت صبيحة ذلك اليوم أمام الورقة البيضاء المثبتة على أديم السبورة الأسود بهابيس صفراء أربعة تلمع على زوايا الورقة تحت شعاع الشروق .

وقفت أقرأ الأسماء واحدا واحدا وأنا أتذكر جلسة كل شخص من

أصحابها فى مكانه من الفصل إن كان فى فصلى ، حتى إذا ماترك بصرى
بياض الورقة واصطدم بسواد السبورة دون أن أعثر على اسمى ، غطت
الدموع ناظرى حتى تراقصت أمامهما الأشياء . ثم جررت رجلي فى حذاء
قديم واسع إلى الباب حيث يخرج الراسب والتاج فخيّل إلى أن الباب
النوى يرثى لحالى ، ولكنى لم أكد أطأ العتبة حتى تراجعت مرة أخرى
لأعيد قراءة الأسماء ، وفى هذه المرة لم تدمع العينان حتى لكان المصاب
اختلط بنفسى فأصبح جزءاً منها أو لعلى اعتقدت فيه العدالة ، وربما سألت
نفسى : إذن ماذا أريد ؟ ألنجح ؟ .. محال .

وخلفت فناء المدرسة حيث وقفت على إحدى النواصى أدير أمرى
بنفسى . قلت : كيف أؤف إليها البشرى ؟ إنها مريضة مكدودة ناقمة
تتوهم أن الحياة ظلمتها وأن ولداً مثلى ينسب إليها لهُ من أفدح ما رمتها
به الحياة ؟ فكيف العمل ؟ ولم أجد جواباً ، فأصررت على ألا أتحرك من
مكاني حتى تجود على السماء برد ، ثم نظرت إلى أعلى فضلت عيناى فى
القبة الضخمة اللازوردية وعيناى فى جيب بنطلونى تحرك فيه عدة ملايم ،
فلما رأيت السماء قلت : يارب !! ثم رجعت نفسى خائبة محسورة لأننى لم
أعثر على مخرج ، فسرت ، ولم تكن وجهتى إلى البيت ، بل لم أكن أعرف
إلى أين وجهتى .

وتذكرت الموت وناقشت موضوعه لكننى عدت فرأيت أنه ليس من
حقى !! . من حقى فحسب أن أفشل فى كل شئ .

ثم حدث ما لم يكن فى حسابى إذ رأيتنى أدق باب مسكننا دون أن
أرتب الخططة . ورأيت أسمى تفتح بوجهه مقفل وعينين تبدو فى بياضهما
« الأزمة » وجعلت أخلع ملابسى فى فتور وكسل وأنا أستمع إلى صياح
المصطافين على بعد ، وأعجب من حيف الحياة وتعنت الزمن .

ودخلت على أمى عجلة مذعورة وهى تقول : « حسين » نجح ، و « عبده »
لنجح ، وأنت ألم تعلم بعد فى أى شىء رسبت ؟؟

فأسعفتنى حيرتى بحل موفق ، إذ قلت : فصلت نهائيا من المدرسة
لأنه لاحق لى فى الدور الثانى ، ثم شرعت ألبس ما قد كنت خلعت من
ثيابهى . وأنا أوحى إليها بحركاتى ونظراتى أننى سأهجر البيت ، وبذلك
أوقعتها فى الأخرى فى مشكلة ألهاها تطلب حل لها عن أن تجلدى بسياط
الكلام : وأفلحت خطى بعد الشوط الأول من الجدل الذى نشب بيننا

قالت « أم مختار » بكلمات تنطير تطاير الشر :

.. ألم يكفك أنك فشلت فجعلت تفكر فى جريمة الهرب ؟

وهمت أن تقول شيئا آخر ، همت أن تربط الحوادث فتذكر أمرا ارتكبه
أبى فى ساعة ضيق واضطرار ، فنظرت إليها محذرا فجعدت الكلمات
على شفيتها المشتقتين .

لكنها على الرغم من ذلك أرغت وأزبدت وطافت بأرجاء الشقة تسب
فى كل حجرة مرة وتلعن فى كل خطوة لعنة ، لكنها لم تتجاوز الأحياء إلى
الأموات فارحمت لما فعلت وكافأتها بعد ساعة من الزمن فصارحتها بالحقيقة
وبأن لى دووا ثانيا فى عامى الثانى وأننى لست من المفصولين . غير أنها
أبدت عدم مبالاة وإن لاحت على وجهها دلائل الراحة .

ثم حدث فى الحريف التالى حدثان هاما طبعاً حياتنا بطابع حسن
بالنسبة إلى أسرة كآسرتنا فى حاجة عظمى إلى الترميم ، أول هذين الحادثين
هو : نجاحى وانتقالى إلى السنة الثانية ، وأما الثانى فقد كان فى
خصوصيات « أم مختار » .

تعرفت أمى على صديقة جديدة عن طريق صديقة قديمة عزيزة على
كانت تناديه « بأى نعمات » . أما الجديدة فاسمها « زينب » ، وكانت لونا

عجيبا بين أفراد هذا الجنس .

لم تكن جميلة جدا ، وإن كان يلذ للعينين أن ترعيا ملامحها بلا تروق وخصوصا فى أسفل الذقن حيث يرقد نظر الناظر على شىء كالكمثرى شهى لطيف . وأجمل من ذقنها هذا تدفق حديثها الخلو ، كانت تتكلم بطريقة تثير النهم ، كنت أنصت إليها وهى تحدث أسمى فيخيل إلى أن كل مقطع من مقاطع شىء يلتهم بالغم لا بالأذن . وبحسبك أن تعلم عنها أنها عاقر عرفت كيف تمسك زوجا شابا جميلا ميسورا بما تبذل من فتنة لاتدعها قديمة فى عينيه . وحتى أنا شخصا - وكنت من المراهقين - خيل إلى أنها تغير ملامحها ساعة تغير ملابسها ، وأنها تعمل فى وجهها ما كنا نعمله فى عجينة الصلصال من تبديل وتغيير. لم يخل حديثها قط من التوابل وإن كان للذيل لا يحتاج إلى ما يحليه ، فكانت توشى كلماتها بضحكات متفرقة كل ضحكة منها كفرقة البندقة بين شقى الكسارة ، أو بقسم لذيد هو من خصائص المرأة المصرية ، فتقسم بعينى محدثتها الجميلتين أو بحلاوة الصداقة ، أو بحياة المحبة أو بالنهى الكريم . وكنت فى كثير أستمع إليها وأنصت فأتمنى أن يستحيل حديثها قسما خالصا ووقتها ضحكة طويلة ، كانت مرحة وحياة وحركة ، اتصلت عن قريب ببيتنا الهامد فذكرته بالوجود . ورأت أسمى فيها شخصية نادرة واعتبرتها بسرعة صديقة مخلصه ، وتدخلت جدة الصداقة بتأثيرها القوى فى حياة « أم مختار » فأخذت تصفى إلى مشورة الست « زينب » بكل اهتمام فيما أشارت به .

تشعب الحديث بهما فى إحدى الخلوات حتى تناول الأمراض فعلقته الصديقة فى مرض أسمى ، سمعتها تقول لها :

- مسكينة أيتها الأخت قمرضين بمحض إرادتك ، وتهزلين بطلق مشيتك .

فقطبت أُمى مستفسرة عن غرضها فتنهدت ضيقتها فى ثقة ودلال ثم شرعت تصب فى أذنيها قطعا من السحر تعدى فعلها إلى نفسى ، فقالت :

– ليست قصة وعكتك بجديدة على الناس ، بل إنها قديمة قدم الأطباء والأمراض . عانيتُ أنا شخصا ، وعاناها كثير من صديقاتى لكننا تخلصنا منها لأننا لم نشأ أن نكون من المريضات .

أما خطواتك فى محتك أنت فهى – بكل بساطة – أنت تستعينين بفعل طبيب على فعل طبيب وتتداوين من عقاربِ عمار ، ثم تتطلعين بعد ذلك الحفرة التى لا تمنحها إلا يد الحياة . اتخذينى اختا لك واعملى بمشورتى أو اتخذينى عدوة وضعينى تحت التجربة ثم اعدلى عما نصحت به وعودى إلى مسلكك حرة مقتنعة أو متعصبة .

أنت حزينة لست سقيمة ، وزهرة تحت ناقوس من الزجاج محرومة من الندى والنسيم ، فهلمى لمجرب تحطيم الحواجز ، ونخرج معا إلى حضن الحياة مندفعين نحو ذرايعها المفتوحين .. وهلمى لمجرب ، ماذا فى التجربة ؟ هل ترينها محظورة ؟ إنها باب المعرفة !

ثم فرقت ضحكها المعهودة كما تفرق البندقة بين شقى الكسارة فخيّل إلى أن أُمى رأت من خلالها الحياة وأنها أطلت على مائها ويستانها ، وأن الشهية الكامنة فى كل نفس وفى كل جسد قد تيقظت فيها كما تتيقظ البراعم فى أعواد الثوت قبل الربيع . وكان مظهر هذه اليقظة عنيقا بارعا غير عادى كطبع أُمى فى كل ما تفعل فإنى رأيتها صباح أحد الأيام التالية قد قامت فجلست إلى رف المرأة لتأخذ دواء يتعاطى على الريق فإذا بها تمسك بالزجاجة ثم تعيدها إلى مكانها ، ثم تعود فتمسك بها ، ثم تكف ثم تجمد ، ثم يشردها بصرها مطالعة صورتها على الصقال ثم تنتفض فجأة مهتاجة كأنها لسعت ففتناول كل ما على الرف بحركة عرفت منها حقيقة

الخطر ، ثم تذهب إلى المطبخ حيث تحطم على بلاطه كل ما كان فى حجرها من زجاج . ووقفت أطلالها من بعد مخافة أن تقذفنى بشىء ، فأيتها بعد أن فرغت من مهمتها قد انتصبت واقفة تلهث وعيناها تبرقان ببريق من فرغ من عملية انتقام .

ولشد ما فرقت ضحكة الست « زينب » بعد ليال حين عادت إلى بيتنا ، فأنها إليها أمى نبأ هذه الحادثة ولم تكف عن تقبيلها إلى مدى طويل مهنته إياها بهذه العزيمة .

تعلقت أمى بأهداب الحياة وهى فى سن تجعلها جديرة بأن تعيش . كانت لا تزال على قيد سنوات من الأربعين حين أيقظت فيها صديقتها هذه الرغبة ، وكنت دائما أشم من حديثها معى رائحة التلذذ من أن الظروف حالت بينها وبين أن تتمتع بسنواتها تمتعا عاديا فقد ركزت لها اللذة فى حقبة من عمرها ، ثم ركزت لها الألم فى حقبة أخرى . ولذلك استجابت أمى إلى حديث تلك التى بشرتها بالحياة فطفقت أمى تنادى الحياة من باطنها وتستثيرها بالتحريك كما تستثير انتباه النائم .

وتعشرت شيئا ما عقب إضرابها عن الأدوية لكنها أصرت كأنما تحولت شكاسة طبعها إلى هذا الميدان « المفيد » فما لبثت أن عادت بالغنيمة .

وكان لبوادى النضرة التى لونت خديها بعد شهور وقع رائع على قلبها الطامى .. فأخذت ترقب انتفاض اليقظة فى جسدها بلذة حبيت إليها اللذة وربطت بينها وبين الست « زينب » بهباط ماسى من المودة جعل أمى تذكرها بالفضل كما نذكر شخصا نجانا من الفرق . وقد كان لهذا الحادث أثر حسن فى ماليتنا طبعاً لأنه وفر لنا عدة جنيهاً كانت تحول إلى الطبيب والصيدلية فى كل شهر ، كما وفر لأمى طاقة عصبية كانت تحرقها بلا ضرورة أيام كانت تلبس ملابس الأسقام .

وربما عن لك أن تسألنى : وهل صرت سعيدا بما آلت إليه أحوالكم فى
المدة الأخيرة ؟ وجوابى عن هذا هو أن سعادتى بهذه الطوارئ لم تكن بعيدة
ولا عميقة ، كانت أشبه شئ بأضواء المساء التى نراها على الأفق ثم لاتبث
أن تسطر بها جحافل الليل . جعلت أنظر إلى المستقبل نظرة حائرة ملهوفة
لأنه بدا لى مظلمة عميقا كمدخل الكهف ، خصوصا لأننى رأيت أمى وقد
تحولت حالها .

همست إليها « زينب » بأن تخلع السواد فاستمهلته أمى بابتسامة
المقتنعين ثم سارعت بادى زى بدء بأن ربطت ضفيريها بشرط من الحرير
الأحمر بعد أن قلقت بالشريط الأسود من إحدى النوافذ . فذكرتنى حمرة
الشريط بين الملابس القاتمة بتلون البلع الذى لا يلبث حتى يشمل كل أجزاء
الشمار . وقد صح ماتوقعت فسرت حمرة الشريط من الضفيرة إلى بقية
الملابس وإن اتخذت ألوانا غير زاهية جدا ، وبدأت ألمح فى بيت أبى الغائب
مخايل المرأة التى تتثنى فى كل خطوة أيام كان أبى تاجرا ميسورا .

وكرهت « زينب » هذه ووددت لو أن الله من على بمنزلة أستطيع معها
أن أقفل باب مسكننا فى وجه هذه المرأة ، لكننى كنت مكفولا كبير السن
راسبا فى السنة الثانية معتمدا فى معاشى ونفقاتى ومطالبى جميعا على
تدبير امرأة فقيرة سقيمة . وطفحت وساوسى حتى نقمت على أمى أنها
عادت سليمة ، إنها تنظر اليوم إلى خيالها فى المرأة بعين تفيض بالرحمة .
بل ربما تهست لهذا الخيال !!

شأن ما بين صديقتى أمى هاتين ، فالفرق بينهما عظيم . كانت « أم
نعمات » صدى دقيقا لحركات أمى ، وشخصية تذوب فى كل شخصية ،
هبة منكسرة ، بيضاء بدينة تقوم فى تشاقل من عجيزتها الكبيرة ، وكثيرا

ما تعتمد بكفيها على ركبتيها وتثن وهي تقوم . فى الخمسين من عمرها
ولكن فيها آثار من حسن قديم استهلكه زوج أنانى أستقل بالطيبات وحده ،
وحملها وحدها بالمتاعب .

كانت تشاركنا غداًنا يوماً فى الأسبوع على الأقل ، وتستمع إلى
شكوى أمى بعينين نديتين بالدموع ، ومن العجب أنها كانت تأكل وتدعم
ويبدو فى عينيها الحزن كما تبدو فى شفيتها الشهية . تبثها أمى أحزانها
فتبدأ بالشكوى من صحتها وبأنها . يثست من البرء فتوافقها وتبذل من أجلها
دمعتين تسيلان على وجهها الطويل ، ويخيل إلى أن أمى كانت تخاف إذ
ذاك من شهادة صديقتها بسوء حالها فتأخذ فى التراجع بنظام حين تعزو
معظم ما بها إلى سوء تصرف الطبيب لا إلى طبيعة المرض نفسها فلا تلبث
« أم نعمات » أن تجود ببضع لعنات ترسلها إليه فى عيادته ثم تستعدى
عليه الله !! وسرعان ما يتحول الحديث إلى سوء البخت وقلة الحظ ونحس
الطالع فما يكون جواب ضيفتنا إلا أن تقول : أجل ما رأيت قط حظاً
وجملاً تحالفاً مع أنسى . ثم قصص بشفيتها وتسند رأسها على كفها وتنقل
بصرها بينى وبين أمى فى حسرة من يشاهد ميتاً على فراش .

أما يوم أن نجحت فى الدور الثانى فإنها كادت تهد بيتنا بالزغاريد
هذا نالنى بسببه تهكم كثير ، وأما إذا أشارت لها أمى ببارقة أمل لمعت
فى شيء يتعلق بنا فإنها تبدو بمظهر من رأى كل شيء وقد تحقق . وهكذا
كانت امرأة لا لون لها ولا تأثير ، بحيث أتخيل أن أمى كانت لا تجنى من
التحدث إليها إلا ما يجنيه شخص ما من مناجاة هرة أو من مطالعة وجهه فى
المראה ، لكن أمى كانت تلقى إليها بكل ما فى نفسها غشه وسمينه ، لأنها
كانت الصندوق الوحيد الذى تستطيع أن تحفظ فيه أشياءها !!

ولما من الزمان على أمى بصداقة الست « زينب » أخذت « أم

نعمات « تغوص شيئا فشيئا فى ضباب الإهمال ، ولعللى لم أكن متوهما حين كنت أرى فى عيني الصديقة القديمة شيئا من عتاب بشويه ندم كانت تلقيه فى يسر وتسامح على مسامع أمى التى لاتلبث أن تقسم لها بقسم صديقتها الجديدة أنها لن تنساها .

لكن الحقيقة البينة والواقع الواضح هو أن « أم مختار » بدأت تذوب فى شخصية « زينب » كما كانت تذوب من قبل « أم نعمات » فى شخصية أمى ، حتى بلغ الأمر مبلغا جعل أمى لا تلبس إلا مما تنتقيه والا ماتشير بتفصيله ، ولا تدبر حلا لمشكل إلا على هدى من مشورتها . ولست أعدو الحقيقة حين أقرر أن هذه السيدة كانت تصيب الهدف فى كل مارمت نحوه وكثيرا ما كانت تسلط على المشكلات العابسة ضحكها فتنحل بين يديها كما تنحل عرا السنة السكارى بين أيدي الخليلات الحسان .

شكت إليها أمى مخاوف تنتابها من شبح أزمة مالية تبدو على أفقنا وقد لاتجد منها ملجأ ، فإذا بها تحملق فى الفضاء ثم ترسل شهقة ثم تقول برقة : كذا ؟ ما أيسر هذا ! ثم تتوج عبارتها بضحكة يعقبها صمت فتتهد ترتفع به ترائبها وتنخفض ، ثم قيل باسمه على أمى وهى تقول بلفظ استطاعت به أن تنسى زوجها حلواء البنين لعدة سنين : صديقتى إننى كدت أخوض فى هذا الموضوع من تلقاء نفسى لحرصى عليك لكنى - وأحمد الله - آثرت أن أدعك تفاتحينى فية ..

هناك أمور ممكنة يا صديقتى ولكننا لانعملها من تلقاء أنفسنا . لماذا ؟ لسنا ندرى ! فأنت مثلا تسكنين شقة فيها غرف تكفيكم واحدة منها فى فترة خاصة من السنة ، ثم كفت عن الحديث تاركة أمى تتناول الموضوع بنفسها حين قالت : أتقصدين أننى أؤجر غرفتين من المسكن خلال أشهر الصيف ؟ فأومأت برأسها أن نعم ، فأسرعت « أم مختار » تقص ما قد يقع من

متاعب إذا هي قارفت هذا الأمر ، فضلا عن أن طائفة خاصة من النساء قد استقلن وحدهن بهذه الخطئة فى ذلك العهد . فقالت « زينب » فى هدوء لايشويه وسواس : كثيرا ماينزل عندكم ضيوف فى هذه الفترة فلماذا لا توهمين الناس بأنهم ضيوف . حتى إذا كانت هناك عقبات من الممالك أو أقاويل من الناس ، عاجلتها فى وقتها ، أم تارك ذهبت إلى طبيب الأمراض الباطنية مستشارة فى حموضة المعدة قبل أن تحس حرارة فى المرى ١٢ وأرسلت ضحكاتها الناعمة فابتسمت أُمى وأشرق وجهها بنور الراحة على حين ترامت صديقتها إلى الراء على الكنية أكثر من قبل حتى كادت تستلقى على ظهرها وجعلت تحول إحدى ساقها وهى راكبة على ساقها الأخرى وتتطلع نحوالسقف ، ولست أدرى أى نوع من الغرور كان يهدد أفكارها . أهو الغرور بالأنوثة أم هو الغرور بالذكاء ١٣

ونشطت أُمى فى حركاتها وسكناتها ١٤ أؤكد لك أن سكنات « أم مختار » كانت نشيطة ؛ لأننى كنت أرى أحلامها من خلالها ، كما نرى أشربة الفواكه الناضجة من خلال جلدتها الرقيقة . بدت كثيرة الأحلام تجرى أيامها إلى الراء ، فهى فى هذا اليوم أصغر عمرا من يومها السابق وعراها نوع من التفاؤل والثقة ، ولم تعد تحسب للغد حسابه المخيف الذى كان يسيطر على وجدانها حتى خلت أنا شخصا أن السفينة التى مغرت بنا عباها مظلما كثيفا قد بدأت تدنو من جزيرة خضراء لسنا نعرف اسمها ، لكن هذا الإحساس لم يكن يسعدنى ، لأننى ارقيت بين برائن شك لا أعرف فحواء جرعنى كثيرا من الضيق حتى آلت إلى حال شعرت فيها بمس البغضاء للست « زينب » . بل وبمس خفيف حيال أُمى كذلك ١٥ لماذا ؟ ذلك ما لم أتبينه إلا بعد فترة أخرى من الزمن .

وأخذت أمور الحياة تبين وتتضح شيئا فشيئا أكثر مما كنت أراها ، كما

تبين لعين المسافرين أهرام الجيزة وهو على متن الطريق .

لكننى قررت فى هذه الآونة أن مصالحى أخذت تنفصل عن مصالح
أمى ، وأن طريقنا الواحد قد أضى ذا شعبتين ، وعما قريب سيدرج كل منا
على إحدهما . أما نهاية الشوط فعلمها عند الله ، لكننى مستوحش منه
خائف وجل تتفق خواطرى جميعا على أنى لن ألقاها بعد الفرة وأنها لن
تلقانى لأن مصالحنا سوف تتعارض !!

ثم جعلت أفحص زادى وسلاحى مادمت متيقنا أننى سأسافر وحدى
وأن أمى لن تكون رفيقتى فى الطريق ، فألفت الزاد قليلا والسلاح قليلا :
جسم سليم وعقل مريض وعواطف مشتجرة تجمع أشاتا غير واضحة كأنها
كناسة السوق . وانجيت باللائمة على أمى التى خلتها ستتخلى عن مخلوق
هذه حاله ، فكادت عينائى تدمعان لكننى استمهلتها حتى أراجع نفسى
فأسأله : من منا جدير بأن يتلقى من صاحبه المعونة ؟ فأجاب بأن يدى
يجب أن تكون هى العليا ، وبأننى سأعجز عن أن أفعل . ومن أجل ذلك
يجب أن تفترق بنا السبيل !! ولم تخل هذه الإجابة مما يثير رثائى لنفسى ،
وحقى على أم لم تصبر على عجزى !!

كان الربيع فى إبانة واليوم جمعة والبحريفاير بين ألوانه ، كأننا يتأهب
لاستقبال السابحات . وكنت ضائقا بنفسى وأمى وبيتى و« زينب » وأم
« نعمات » . وبالبحر كذلك والإسكندرية ، أعنى بالمحيط الذى نشأت فيه من
أرضه إلى سمائه فلجات إلى دراجتى التى عراها ماعرا كل مرافقنا من
تغير وتبدل وتراجع فجعلت أقطع بها أرض الله يتعاون باطنها مع ظاهرها
تعاون المقدمة والمؤخرة فى الجيش المنظم ، قصدت من هذا الذى أقول أن
باطن الأرض فى كثير من الأحيان يكون أولى بنا من ظاهرها فلم يكن هناك
داع إلى أن أعيش . مادام التفاهم قد فقد بينى وبين هذه الكائنات .

كنت أقرب العجلة الأمامية وهى تنور فى سرعة جعلت أسلاكها متصلة كأنها استحالت إلى قرص من الزجاج ، وكنت متجها نحو الجنوب الشرقى مخترقا أرضا بورا تؤنس رقعتها القسيحة شجيرات ونباتات ذات أشواك تحمل حياة الجذب حتى تسقيها اليد التى زرعته ، أعنى يد الطبيعة فى فصل الشتاء . كنت أقرب هذه الشجيرات المتطفلة التى لم تستبته كفاكاد أجد شها بينها وبين نفسى ، بعد أن مات ذاك الذى استبته منذ زمن فأحببت البرية ، وانسبطت أسارى إلى وجهها الكالح ، فأخذت أدور بالدراجة فى طرقها المترية الجيرية البيضاء فى دكنة التى أنشوها من نفايات الخرائب . وقسموا بها الأرض إلى مساحات هندسية أعدوها للبناء . حتى إذا ما أعيانى ارتفاعها وانخفاضها ، وأحسست أن تعبا جسمانيا أوشك أن يسرى فى قواى ، جدت السير نحو الطريق العام بين « كفر الدوار » و « الإسكندرية » وكانت أشباح الأشجار إلى يسارى تجرى نحو الشمال بنفس السرعة التى أجرى بها أنا نحو الجنوب .

ثم رأيتنى أعرج على طريق جانبى ضيق ينحدر نحو الشرق تتوسده رموس المزارع من الشمال وتوازيه من الجنوب ترعة ضيقة تستمد ماها من ترعة المحمودية الواسعة التى تزدهم فى بعض مناطقها سفن الملاحة النهرية بسواربها الطويلة فتبدو كأنها غابة من السرو بلاأوراق ولاأغصان .

عرجت على هذا الطريق دون أن أتبين مقصدى ، وكانت « عزبة خورشيد » تبدو لناظرى على بعد قريب وهى تقف على الطريق العام جنوبى الترعة بدورها المتواضعة التى تتواءم ألوان جدرانها مع لون التربة تمام التواءم ؛ لأنها بنيت من الطين - نظرت إليها فلم يعنى من أمرها أكثر من أننى تدبرت اسمها ثم سرت فى طريقى لألوى على شئ .

كانت الشمس ناقية من ضعف الشتاء مترعة فى دست الأفق تتماوج

بين يديها مواكب الضوء والنور . أما الحقول فقد أطلقت فيها الطبيعة مجامر بخور انعقد دخانها على هيئة ضباب خفيف جدا شفاف مسف ينسحب على خضرة البرسيم وأعواد القول وأخاديد الترع وأقدام الشجر ، وتنطلق رائحته متمثلة فى عقب النوار وأنفاس الأزهار التى نمت بطبعها بين أعواد القمح أو استنبتها الزارعون فى حقول البسلة . وكان هناك نغم خفيف خافت تنشده الطبيعة للمكدودين من أبنائها والذين تخلقى عنه الآباء أو قست عليهم الأمهات . ويتمثل هذا النشيد فى زقزقة عصفور أو غطيط طنبور أو أنين ساقية أو بكاء طائر أو غناء فلاح .

كان صدرها رحبا بسيطا فى ذلك اليوم فألقيت فيه بنفسى !! ولم أسر على الطريق شوطا بعيدا ؛ لأنى رأيت بقعة يحسن الوقوف عندها ، وكانت بين الحقول أشبه بالزهرة الوحيدة وسط مفرش من المخمل الأخضر .

أخذ الطريق يرتفع بالتدرج ويبدو مستويا جميلا ؛ لأن يدا ترعاه فى أوقات معلومة ، أما التربة إلى اليمين فلم يكن سيفها مقفرا عاريا وإنما دعم بأنواع من النبات تساعد التربة على التماسك فلا تنهار فى الماء ، فاتسقت عليها زمرتلاحقت فتلاصقت من نوع الحلفاء خشن جاف يطول حتى تتحلى أطراف عيدانه بما يشبه أذنان الهرة أو الثعالب . زغب من الحرير اللامع الناعم أبيض نظيف لهدته يد الطبيعة فى نهاية الأعواد بتروف يتنافى تماما مع خشونة الحلفاء !

وعندما تبدأ الحلفاء فى الانقطاع ويظهر سيف التربة أجرد عاريا من كل شيء تقوم شجرة الصفصاف منكبة على الماء تاركة شعرها لتياره يعايشه فى رفق ناعم ، على حين تنثر هى ظلها على عدة أحجار رصت لتكون درجا ساذجا يؤدى بالنازل إلى الماء على اختلاف المناسيب فيستطيع أن يجلس القرفصاء ليتوضأ ثم يصعد ثانيا إلى رقعة مستوية صغيرة حنت عليها

الشجرة وأحيطت بالطين وفرشت بجفيف الحشيش ، وهناك . حيث البساطة والدعة والعزلة عن البذخ والمظاهر تتصل نفوس المصلين بمصدر كل وجود .

أما البقعة التي كانت أشبه شيء بالزهرة الوحيدة وسط مفرش من المخمل الأخضر فقد كانت إلى يسار السائر ، كانت أغراسها القائمة على رأسها الذي يتوسد الطريق توحى بأشياء عدة :

توحى بأن زارعها يتعهدا منذ سنوات بجهد نافع متصل الحلقات لأنه نثر عند مدخل الحقل عدة شجيرات من السنط والتوت وشجرة من الجميز، وتدلل أعمارها جميعا على أن يدا صناعا عملت في هذه البقعة منذ عشر سنوات .

وتوحى بأن الزارع مقيم فيها لا يبرحها ، فهناك كلب ينبح وديك بلدى كبير يقف على سطح الكوخ ناصبا ساقيه الطويلتين متلفعا فى نواحي الأفق يتفقد لحجوم الفجر التي رآها قبيل النور . وتبدو قمة هذا الكوخ المبنى من اللبن خلال شريط من أشجار الموز تراحمها فى بعض النواحي نخلات نهضت قريبا على ساقها فأخذت سعقاتها تقبل التربة . ولعل الزارع قد قصد من هذه الغراس أن يجعل منها سورا منتجا يحمى ما بداخل المزرعة .

وقفت عند المصلى أرقب الحقل من حده الشرقى وأتأمل جزءا منه نهضت فيه شجيرات البسلة متشبثة بأعواد من الغاب أوحطب القطن باسمه عن أزهار ذات أجنحة كأنها فراشات ، وأتأمل جزءا آخر منه قد نهضت فيه لفائف الكرنب واقفة على رموسها الطويلة كما يقف سرب من النعام أتأمل أطراف الحقل وقد نثرت مختلف الأحجام كل على رجل واحدة .. وأتأمل أطراف الحقل وقد نثرت عن حواشيها شجرات لاتزال تلمع على إحداها ثمار البرتقال حمراء زاهية مستديرة لامعة كأنها بين خضرة الأغصان شعلة بلا دخان .

كانت شجرة الصفصاف من ورائى تنوس شعورها مع نسيم الربيع
والمصلى على قيد خطوة منى والحقل مستأثر بعينى فأحسست فجأة أنى
نسيت الهموم أو أن الهموم قد ضلت عنى فلم تنجح فى مطاردتى .
وأحسست فوق ذلك دعة وطمانينة مقعمتين باللذة من نوع تلك التى نحسها
بعد زوال المخاوف . ثم تأملت موقفى فوجدتنى على الرغم من شبابه طفلا
يبغى الهدفة فذكرت عبارة رأيها ذات مرة كتبت تحت لوحة رسام :
« الطبيعة أمنا الروم » فكدت أمرغ وجهى على صدرها ثم أجهش إليها
بالبكاء !!

لست أدرى كم مر على فى وقفتى هذه . حقيقة أن فقدان الشعور
بالزمن شيء . لذيذ جعلنى ألتمس العذر فى هذا الضحى لأولئك الذين
يتوسلون إليه بالعقائير التى تؤدى بهم إلى غياب شامل . غاب عنى
الإحساس بالزمن فلما عاودنى تمنت أن لم يكن عاد ولو أن « المنبه » كان
جد لطيف .

كانت تتهادى فى طريقها نحوى وعلى رأسها جرة فارغة تمسكها من
إحدى أذنيها بيد . وتحرك الأخرى مع مشيتها فتموج فى هيئة يتألف منها
التأود . وكان جلبابها الأسود مرفوعا إلى ما فوق أردافها وقد حولت ذيله
الواسع إلى حزام شدته على وسطها فبان من تحته جلباب آخر ضاف طويل
يسمون نوعه « بالشتيت » . وإذا شددت فتحات الريف أحزمتهم بأذيال
الجلابيب فمدلول هذا أنهم فى « عمل » . ولم يكن فى قدمها نعل ولكن
خيل إلى أن الثرى يقبل نظافتها . وجعلت تدنو شيئا فشيئا وأنا فى مكانى
جامد جمود التمثال حتى إذا مرت من أمامى قاصدة إلى الدرج الحجرى لتملا
الجرة ألقيت عليها نظرة شاملة فاحصة واعية لم ألق مثلها قط على كتاب من
كتب المدرسة فعرفت الجمال فى الطبيعة والفتنة فى الفطرة ، ورأيت اتساقا

عاما بين أجزاء الكون لا يشوبه خلل ولا ثلثة حين عاينت وجهها البكر الذى
لا يعرف المرأة إلا فى الغدير الراكد ولا العطر إلا فيما يرشده الطل ، ولا
الطلاء إلا على الجدران ١١

ولمعت بشرتها فى عيني بنفس الوميض المتوهج الصافى الذى أشرقت
به ثمار البرتقال تحت أشعة الشمس .

كان الوجه مستديرا يقرب أن يكون قد رسم بالفرجار ، عليه جبين غير
واسع يستسلم فوقه شعر أسود جعد متلبد غزير مستدير مع استدارة الجبهة ،
ويشرق فى وسطه قاما فرق واضح تبدو منه جلدة الرأس فى نصاعة اللبن ،
بحيث لوتخيلنا هذا الفرق خيطا يمتد لتدلى على قصبة أنفها المستقيم . أما
العينان فصادقتان صافيتان تموجان بالصدق والصرامة . وأما الفم فقد تميزت
فيه شفته السفلى بشيء من الغلظ كان ينبغي أن يقسم بين الشفتين بالتساوى
، لكنها مفعمة بالإغراء كأنها كانت بين ملامح وجهها الهادى . نقطة
المناشاة والإثارة « واللون فخارى ألف الأشعة وعرض للحر والبرد فلبس
نضرة ثابتة كأنها صبغ لا يتصل . تفتح من الربيع فظهرت على الحدين تحت
العينين مباشرة حمرة الورد أوتوهج الشفق . والقوام إلى الطول ، والصوت
هادى ، خالص لا يلقى الأسماع .

ودلفت إلى الدرج الحجرى بعد أن ألقت إلى نظرة عابرة عفيفة أفصحت
بعض الشيء عن عجبها لموقفى فى هذه البقعة ، حتى وكأنها رأتنى كائنا لا
ينسجم مع كائنات الريف ، ثم حملت جرتها وهى جالسة وقامت معتمدة
بكفيها على الركبتين ، وكأنها قذفت هذه الحركة بنصف دمها إلى وجهها
فرأيتها وكأن الدم سينبثق منه . ثم جعلت أتأمل ظهرها وهى مدبرة وأرقب
تأود جسمها تحت ثقل الجرة ولون منديلها الأخضر فى زرقاة تشف عنه
« طرحة » من « التلة » أمسكت يدها بأحد طرفيها وجعلت تغدو به وتروح

فى حركة المشى . ثم غابت عن ناظرى فله أعد الملح منها إلا شبها يتخايل
فى التفاريح بين أوراق الموز المتعانقة عند مدخ الحقل .

وانقضت دقائق كان ينبغي بعدها للسائر العادى ^أ مضى إلى لباناته
لكننى لم أشأ أن أمضى بل وقفت محملاً نحو المزرعة متوهماً أنها ترانى
من خلال الشجر أو نافذة الكوخ أو نبات الفول وإن كنت لأراها . ثم جعلت
أسائل نفسى : إن صح ذلك فما الذى أبتغيه ؟ فلما لم تحب بشىء اقتنعت
بأنه هناك مسائل تنشُد لذاتها لا لغاياتها .

لكننى لم ألث أن تصورت عينى أمى وهما تنوشانى فى موقفى كما
تفعل أطراف الرماح ، ثم تخيلت ابتسامة التهكم تولد على شفيتها بل كدت
أسمع صوتها يأتى قائلاً : « فالح ، ناصح ، ألا تريد أن تنجح فى أى
شئ ؟ » فخارت قواى من وطأة الخجل ، لكن موجة من العناد سرت فى
أعصابى فأفقت وألقيت ببصرى نحو الغرب أنظر من جديد فإذا بالحادث
يتكرر وإذا بها تتهدى واضعة يمينها على أذن الجرة فوق رأسها .

كان شبها يتخايل مرة أخرى من خلال التفاريح قبل أن تعبر إلى
الطريق ساعة هبطت على فكرة شرعت فى تنفيذها على الفور .. دلفت نحو
المصلى فخلعت حذائى وجوربى ثم ألقيت على فرشها بسترى وطربوشى
وجعلت أشمر كمى قميصى فى تلكؤ وبطء ، كل هذا وأنا أخالس النظر نحو
الطريق متظاهراً بأنى لا أشعر بمقدمها . ثم دلفت إلى الدرج لأتوضأ فى
اللحظة التى كانت هى فيها عند نهاية الطريق على قيد خطوات منى فشغلت
المرق قبل أن تشغله ، فلم تر بدا من الانتظار . شعرت بأنها تتأملنى
حتى كدت أحس وقع نظرها على كل عضو من أعضائى وإن أوليتها ظهرى !
وخيل إلى أنها تبتسم وأنا أتمتم بالأدعية التى يتعمم بها المتوضئون ،
وأظهرت تحرجاً ووسوسة وأنا أزال هذه العملية كانا سبباً فى أننى سمعت

ضحكة مكتومة فأحسست زهو الناجحين لأول مرة فى حياتى خصوصا فى مسائل العاطفة التى لم أجتريء على تجربتها فى المدينة مع أية فتاة ؛ لأن أمى اعتبرتنى فتاة ، فأساعدنى أننى قمت بالتجربة فى مكان بعيد .

هذه هى الأفكار التى كانت تجوس خلال رأسى وأنا جالس على الدرج أرى صورتى فى صفحة الماء ، وكانت بطبيعة الحال أفكارا لا تتناسب مع العمل الذى أؤديه ، لكننى كنت فى مرحلة من العمر تتميز بشدة الحرارة فلا تسمح لهدور التخثث أن تنمو أو تعيش . ثم نهضت فاستقبلتها بوجهى الذى كان هو « الصواب الوحيد » فى كل مرافق حياتى ، وقلت لها : معذرة فما كنت أقصد إلى تعطيلك . فعمدت إلى أن تنفى عنى القلق بابتسامة يقطر الرضا من نواحيها . ثم شممت أذيال ثوبها الطويل عن مخلخل أبيض فاتن قبل أن تهبط إلى الماء لتكسر بالجرة صفحة وجهه الساكن .

— ٣ —

لم تعد أمى تأبه بى كثيرا فى هذا الربيع ، وآية ذلك أنها كفت عن أن تعيرنى بالخبية ، كأنما انفصلت عواطفها عن مسامتى ومسرائى جميعا ، فأصبحت شخصا غريبا عنها .

على أن عواطف الناس لا تنفصل عن الناس فى مساماتهم ولو كانوا غرباء عنهم ، فإننى لا أفرح كثيرا ولا قليلا لشخص رماه الحظ بعدة آلاف من الجنيهات من إحدى منظمات « اليانصيب » . ولكنى آلم جدا وقد أبكى حين أقرأ فى نفس الصحيفة حادثة رجل أفضت به الغيرة إلى أن يلوث يديه بدماء امرأة طالما مزج الحب بين أنفاسهما !! لذلك فاضت كأس آلامى حين

كفت أمى عن نيزى بألقاب الخيبة حتى هممت فى إحدى الإمسيات أن
أسألها قائلاً لها : أمى !! لماذا لا تشتمينى !!

و كنت قبل ذلك أنظر فى الكتاب وأنا ذاهل من لاشيء شارد فى غير
شئ ، فجدت لى فى هذه الفترة ما قد أصبح موضوعا لشرودى وسببا
للدهولى ، بعد أن عرضت فى طريقى هذه الريفية الحسنة . وأخذت الأشهر
تتوارى بتوارى ورقات « النتيجة » المعلقة على الحائط فى الحجرة المشتركة
بينى وبين أمى ، وامتلأ الليل بالندى التى تنادى بقرب الامتحانات : من
سهر طويل فى غرفة على الأقل فى كل شقة ، ومن أزيز مواقد الجاز فى
أوقات غير مألوفة كل ليلة . ومن شجوب وذبول وإهمال ذقون يشيع بين
الطلبة قرب نهاية العام - يحدث كل هذا وأنا أنا لا أتغير ، لأننى لم أعد
أرهب الرسوب ، بل لأننى أحسست أن نجاحى فى الدور الأول أو انتقالى
بعد عام واحد فى الفرقة - شئ غير طبيعى بالنسبة إلى ، كما أنه من غير
الطبيعى أن أبلغ مبلغ الرجال وأنا فى سن الثامنة . ومغزى هذا كله أننى
تبدلت وفقدت الإحساس بالمسئولية المدرسية فقدانا يكاد يكون على تمامه ،
خصوصا بعد أن انفصلت عنى عواطف المرأة التى كانت سندی فى الحياة .

ما أتعسهن ثلاثا : مالى صرت أمقتهن !!

أم نعمات ..

جرت الشيخوخة فى بدانتها فأتسع جلدنا عليها ، وبدت كل عضلة
فيها تهتز إذا مشت ؛ كما يهتز النشا المطبوخ تحت مسن المعلقة . وسلبتها
أمى كل ما كانت توليها من اهتمام وعناية ، ولكنها على الرغم من هذا كله
متشبثة بجثة الصداقة !!

وزينب ..

كل يوم فى زينة ولها دور جديد !!

لو شغلت الطبيعة بزينتها كاشغلتها هي لألهمت ساكنى الأرض عن أن يعملوا عملا ، ولعاشوا يتأملون مفاتها حتى قضى عليهم الجوع ! إننى متضايقا .. وأم مختار ..

تقف أمام مرآتها فى تأمل طويل كأنها ترقب عودة أبى من الخارج وقد تنسى أننى أراها فتتأود فى تكسر تأود العذراء مست جسدها الأنوثة . وأنت عليم بأن هذه الحمى ، إنما سرت إليها من صديقتها الجديدة ، وبأنها لاتزال مسوقة بعصاها إلى غاية لست أدريها ، وإن كنت أخشاها !!

كل ذلك جعلنى ضائقا حرجا أتطلب الفرجة فى مكان فسيح ، فلم أصبر على الأسبوع الطويل حتى يأتى يوم الجمعة ، فتسلقت سور المدرسة من الخلف بعد الحصة الثانية فى أحد الأيام ، ووثبت إلى الشارع حيث استرددت دراجتى من دكان أحد الباعة الذين كنا نشترى منهم قطع « الساندويتش » . ثم أخذت سمتى إلى عزبة « خورشيد » . وقلبى يدق دقا عنيقا ، يجف مع ريقى كلما فكرت فيما أنا مقدم عليه ، ولكن ذلك كله لم يمنعنى عن الإقدام .

ووقفت عند المصلى قبيل الظهر بعد لقائنا الأول ببومين اثنين ، وكانت شمس الربيع تنفخ وجهى بدفء للذي يوائم الدفء الذى بدأت أنفاسه تلامس قلبى . وكنت أنظر إلى الدخان وهو يتصاعد من كانون أمام الكوخ أتلهى بمنظره حين يخلف به الهواء فى كل صوب فيلف أوراق الموز وفروع الشجر برهة ينحسر بعدها متخططا متعثرا ، وهو يتلمس طريقه إلى السماء كأنه ذيل شيطان . وكنت أتخيل جلستها أمام الكانون وهى تشعل النار ، وأسأل نفسى عن أسرتها ومن تكون ، وأقنئ من صميم فؤادى أن لو عرضت لها حاجة تدفعها نحو الطريق ، ثم جعلت أشئت الوقت بنقلة طرفى فى حواشى الأفق المونق الصافى ، لكن الوقت لم يتشتت ، فبدأ لى أن أذهب إلى

الكوخ فأقف قريبا منه ثم أنادى من هناك حتى إذا ما بدت لفقت لها سببا ،
ولعل لها قلبا رقيقا يدلها على حقيقة الحاجة . أطلب طاقة من أزهار البسلة
أو شيئا من ثمار الفول أو الفواكة !! ولكن القدر أعفانى من هذا العناء ،
فقد بدت فى طريقها تحمل الجرة .

« هل جريت يا صديقى تلك الأشواط الأولى من علاقات الهوى ووشائج
الحب ؟ ورأيت خفق الروح على مقربة من الروح وقد قامت بينهما المخاوف
أو التقاليد ؟ ثم رأيت كيف تعبر إحداهما إلى الأخرى ولو أتلفتها الحواجز
وقست عليها المقادير !؟ »

هكذا كنا ، فأقبلت على كافأ أحسست أننى جئت من أجلها فقطعت
بضعة كيلومترات على دراجتى المنهركة . وكانت الحرارة الباكراة التى غمرت
طقس هذا اليوم عاملا مساعدا فى تضريم وجهينا أولعها كانت أمام النار ،
قلت لها بعينى لما سامتتنى : لاتخافى . إننى طيب السريرة !! فألقت
بالتحية ثم سألت فى إطراق وخجل جميل :

— ألسنت هو ؟

قلت :

— نعم . هو بعينه الذى رآك يوم الجمعة .

قالت :

— إذن لم أخطئ .

ثم استردت نظرتها فى رفق أحسست معه أنها لم تكن نظرة وإنما
كانت شيئا ناعما أدركته بحاسة اللمس . وندت منها فى هذه الوهلة تنهيدة
حاولت أن تخفيها لكن نحرها دل عليها دلالة حلوة . ثم خيم علينا صمت كان
يشى باتفاق بالغ فرأيت أنه من الضرورى أن أقول شيئا ، فأطريت جمال
البقعة وخصصت مزرعة أبيها بقدر من الإطراء . قلت : إنها جنة ، وإن الذى

يقيم فيها يوما أو بعض يوم لابد أنه ناس همومه . فصعدت نظرها نحوى وكانت جالسة على أسفل الدرج هامة بأن تلقى جرتها فى الماء فقرأت فيه عجباً . كأن عقلها لم يكذب يصدق أن يكون لابس هذه الخلة وصاحب هذا الوجه الجميل والشعر الطويل شاباً قد ألقى به فى مدرجة الهموم . فعدت أسألها عن الأيدى التى تعمل فى حقلهم فعرفت منها أن أسرتها مكونة من أبيها وأُمها ومنها ومن أخ صغير يقضى شطر النهار فى المدرسة ويقضى شطره الثانى فى الحقل . وقضت الكلمات العادية على التعرج الذى كان يمسك بتلابيبها فأمنت جانبى أو أخرجتنى على الأقل من نطاق الريبة ، فابتسمت وهى تحول خرقة فى يدها إلى قرص تضعه فوق رأسها لتستقر عليه الجرة . ثم قالت :

— ومن أين أنت ؟

قلت :

— من الإسكندرية .

ففتحت عينيها دهشاً ، وأباحت شفعتها السفلى لثناياها أن تبين ثم

قالت :

— وهل تحب الريف ؟

قلت : لنجعل الدليل عملياً .

فسألتنى فى سداجة فطرية لايحسها إلا من عانى حياة التكلف

والتعقيد :

— هل معنى هذا أنك ستجىء كثيراً ؟

فبلغ بى الأمر حد أننى لم أجد ريقى فلم أستطع إلا الإيماء بالإيجاب .

فانتصبت على الأحجار حتى بدت مفاتن جسدها من ثنايا ثوبها الواسع

ورأيت ثغرها وقد أشرق بابتسامة تعدته إلى ملامح وجهها كله ، فقلت :

— وبعد ، فهل لى أن أعرف اسمك ؟

فهزت رأسها كأنها تسألنى عما أعنى ، فأردفت موضعا :

— أقصد أن أقول : بماذا يتادونك ، هل يقولون لك : يا جميلة مثلا ؟

وأعجبت بنفسها فتهافتت ضاحكة ، وقد كنت أنا أشد إعجابا بنفسى منها لأنى جاوزت قدرا كنت أظننى سأتحطم دون إدراكه ، ثم جاءنى صوتها الهادىء بعد برهة يقول :

— لى اسمان ، فمن أيهما تسأل ؟

قلت بعينين متكسرتين وصوت تشويه رجفة :

— لك اسمان ؟.. هذا جميل !! إذن فأنا أسأل عن الذى توافقين على أن

أحب صاحبه !!

وساد صمت كالذى يعقب انطلاقة الرصاصة ، وبدا لون الشفق على وجهها كله بعد أن كان من قبل منطقة الحديد . وكانت الخرقه التى تريد أن تحيلها قرصا لا تزال بين يديها تنشرها وتطويها ، وفمت هذه الحركة عن داخلها فأيقنت أنها فى طى ونشر . كان الاستسلام باديا على الأجفان الملقاة فى تطرح وتعب على حين كان الفم المزموم ينادى بالمقاومة والإصرار ، لم تحمل الجرة ولم تحجب ولم ترفع طرفا ولم تمدد يدا بل جمدت فى موقفها فهدت كالأحجار من تحتها كأنها قاعدة من الصخر قام عليها تمثال بديع . وسارعت أنا إلى أن أمحو عن نفسها آثارا جرها كلامى ، فقلت :

— هل يفضب الناس أن يسألوا عن أسمائهم ؟ هاك يا سيدتى اسمى

وعنوانى .

فابتسمت ، فتابعته :

— هيا تشجعى وأجيبى .

قالت :

— حقيقة أن لى اسمين ، ينادوننى بـ « سكرة » على حين أن اسمى الحقيقى هو « سكىنة » .

فعدت إلى اللجاج الجميل قائلًا لها :

— لكن .. هذا حسن .. حظينا بنصف الإجابة ، وبقي نصفها الثانى .
فلم تشأ أن تقول شيئًا بل تلفتت فى ذعر كأنها انتبهت للزمن أو خافت عين رقيب ، وهمت بأن تحمل الجرة لتعود أدراجها إلى الكوخ ، لكنى حاورتها حتى عرفت أن أباه يدعى « عم خليل » وأن لها أختًا أكبر منها تزوجت منذ سنين فى مركز الدلتجات . وأن أباه كان يدعوها « بالعدوية » وأن اسم أخيها الوحيد هو « أبو اليزيد » وأنهم يدللونهم فينادونه « بالبسطامى » كما تدللها أمها وتناديها « بسكرة » ثم انصرفت غنى بعد ذلك وهى تقول :

— إن بقاء ساعة واحدة فى المصلى كفى بأن يحقق لقاء بينك وبين عمك « خليل » الذى سيصلى العصر بعد عودته من السوق .

وما هى إلا لحظات حتى رأيته وحدى جالسًا أطالع الأفق فأرى القرى القريبة وقد انعقد حولها دخان أكثر من المألوف لأن اليوم يوم سوق ، ولأن بيوتًا كثيرة فى تلك القرى توقد النار لمدة طويلة تحت لحوم البقر والجمال التى تكون عادة أكبر سنا مما يساق إلى المدينة . يبعثون إلينا بأطيب الخيرات ويستبقون لأنفسهم النفاية !!

ثم جعلت أدير حديثًا بينى وبين نفسى مرة أخرى لأكون صورة عن « عم خليل » . تصوره ريفيًا طويل القامة كبير الرأس تشع من عينيه قسوة مريبة ، لكنى تراجعت عن أفكارى حين ذكرت أسماء أبنائه ، ووثبت إلى مخيلتى فى الحال صورة مدرس العربى « ناصف أنندى » المتصوف الشطاح الغائر العينين فى حول يبدو من وراء زجاج منظاره وحضرتنى

معلومات كان يلقيها كلما ركب استطراده المحبب فى حصة الإنشاء الشفوى، وكثيرا ماتعرض « لرابعة » و « البسطامى » فى حماسة تفقده نصف وعيه، وتكسو سحنه هيئة تراه معها دروisha فى ثياب نظيفة .

تذكرت هذا فاعتقدت أنه عدة قد أحتاج إليها إذا مالقيت « عم خليل » . ثم فتحت كتاب « الجغرافيا » فتذكرت أمى ، وتذكرت « المميزات الطبيعية لحوض البحر الأبيض المتوسط » يوم ضبطتنى متلبسا بقراءتها وأنا شارد ذاهل ساعة كانت خارجة من الحمام . فعجبت للحوادث التى تلقى بالعثرات فتذكرنى « بأم مختار » فى كل خطوة أنشد من ورائها اللذة . لكن صورتها مالبت أن غابت وحلت محلها صورة « ناصف أفندى » ثم امحت هذه أيضا حين رأيت « عم خليل » أماى بلحمه ودمه وهو يلتقى على السلام .

كان ربعة متوسط القامة تبدو على وجهه آثار الزمن وتخریب السنين . وكان أبلغ ما يوحى بذلك أسنانه التى تثلثت فيما يقابل فتحة الفم . وغابت بعض الأضراس كذلك نجم فى خديه أخذودان متوسطا العمق . وجهه على العموم قريب من الاستدارة تكمن فى ملامحه العتيقة غير المنعمة ملامح ابنته « سكرة » كونا مندثرا غير واضح لا يدركه إلا من قلبى ملامحها بإدمان . أما العينان فلا تزالان سليمتين على الرغم من أنهما نظرتا إلى الدنيا خمسة وخمسين عاما تفيضان بنظرة تدل على سلامة الطوية ، وشعر الدقن مهمل سطا عليه شيب كأنه سال من الشارب لأن شارب « عم خليل » أبيض كله فيما عدا شعرات بقيت سليمة تدل على اللون كأنها أعواد حطب تخلفت عن الحريق . وإذا ماتأملت وجهه استوقف نظرك اصفرار فى شاربهِ تحت فتحتى أنفه على شعره الأبيض نشأ من إدمانه التدخين . وكان يلبس جلبابا من القطن واسع الفتحة حول العنق ينطبق طوقه تماما على طوق صدره

لمخطط وتطل من أعلى مباشرة ثلثة من شعر صدره تشف شفافية واضحة عن
وشم يمثل نخل بدت سعفاتها من خلال الشعر فى أعلى الصدر وغاب باقيها
تحت الملابس .

وحيانى وسلم وهز ذراعى فى توده كأنى صديق قديم ، ثم حملق فى
وجهى وسألنى من أكون ، فلما عرف أننى طالب من الإسكندرية أقصد إلى
موطنه الجميل هذا طلبا لمتعة النفس واستذكار الدروس ازدهاء ما قلت كأنه
أيقن أنه شىء مطلوب ، وجرنا الحديث عن المدارس فلذكر ابنه وقمى أن
يعيش حتى يراه مثلى ، فضحكت فى ضميرى . ثم دفعه الفضول الذى يكثر
فى نفوس السذج كما يكثر فى نفوس الأطفال الذين يتطلبون المعرفة بالغريزة
- دفعه إلى أن يسأل عن الكتاب الذى كان بين يدى .

قلت :

- إنه فى علم الجغرافيا أيها العم .

فسألنى عن معناها مرة أخرى فألفتنى أقول :

- به نعرف أحوال الدنيا وأسرار الأرض كما تعرف مناطق حقلك .

فأنتجت هذه الكلمات ثمرات لم تكن مرتقبة إذ طغت عليه موجة من
تصوف جميل فى ذاته لولا أنه يستغل فى بعض الأحيان حتى يصير حظيرة
للمتخلفين وملجأ للفاشلين . قال « عم خليل » وهو يهز رأسه حركة بندولية
ويدق كفا بكف فى رفق وشروء :

- أسرار الأرض ! الأرض لله يا بنى خالصة له وحده فلنشغل بأنفسنا

قبل كل شىء . ، لأن أنفسنا أولى بالمعرفة!

ولم يكن الرجل فى حالة تسمح لى أن أجادله ، ولم تكن الكلمات من
أفكاره وإنما هى شىء تلقاه فى مدرسة المتصوفين ، ولم يكن يعيننى أن
أزحجه عن مكانه لأننى عاينت مجال أعماله فلم أجد فيها إهمالا على ضيق

المجال ، وبعد ذلك كله فإنه لم يمهلى بل استطرد إلى زهد العدوية التى رفضت الأزواج وأكياس الذهب لأنها رأت الدنيا ممرا إلى مقر . ثم إننى لم أكن معنيا إلا بكسب وده ووصل حبله فقطعت عليه حديثه بأحاديث كنا سمعناها من « ناصف أفندى » فى حصة الإنشاء ، ولعل « عم خليل » قد رأى فيها جدة وطرافة ثم لعله أحب نفسه حين رأى أفكاره تجول فى رؤوس شباب مثقف فى مثل سنى يقيم فى المدينة وراء النوافذ الزجاجية والستائر الزاهية !! ففرق فى سعادة حببت إليه كل شىء عشية ذلك اليوم ، ودخلت أنا فى نطاق الكائنات التى أحبها . وثار فيه بكرم الريف وطاف به حسن الضيافة فأصر على أن أصاحبه إلى الكوخ حيث نشرب الشاي معا وحيث يرى « البسطامى » الصغير فإنه لا شك عائد من المدرسة ، وأحسست أن الحوادث كلها فى صفى وأن الأقدار تحاببنى . وكنا نخطو على الطريق المستوى الذى نظمته فأسه وهو يحدثنى عن أصناف الشاي قائلا فى فخار :

— عندى منه والله قدر كبير وأصناف لا بد أن يعجبك منها صنف .. لاتقل إننا فقراء فالنفوس غنية : شاي ناعم ، وآخر ورق ، وثالث متوسط . نستطيع أن نذبح لك خروفا وإن شئت فزوجا من الدجاج السمين . أو دعنا على الأقل نشعل التنور فنعمل فطيرا . أأست ترى أن خيرات الله غزيرة جدا وأن الرزق أكثر من الخلق !!

ثم دلفنا إلى الممر عند مدخل الحقل حيث تتعانق أوراق الموز على جانبيه وحيث يجرى بين أيدينا كلب كأنه يريد أن يعلن قدوم غريب . لم أكن أفكر فيما أسمع ولا فيما أرى ، وإنما كنت أفكر فى المفاجأة التى أعدتها الأقدار « لسكينة » .

جعل بصرى يفتش عنها فرأيتها جالسة القرفصاء أمام الفرن حيث يسطع من فتحته بخار امتزج بالدخان فشاعت فى الجو روائح لائحس إلا فى

الريف ، تتميز فيها برائحة الرز المطهو باللبن أو رائحة أوانى الحلب الفخارية حين تعرض للنار بعد فراغها من اللبن . وتمتزج هذه الأنفاس بأنفاس الحقل حيث نوار القول أو زهرات البرسيم أو رائحة الندى والعشب .

قامت واقفة حين رأتني أعبر المجاز وقد كانت فى الحقيقة أجمل ماتقوم فى هذه البقعة من أشياء . وبدأ فى عينيها عجب وسرور والتفت شفتها العليا بأختها المثيرة على هيئة تنبؤ ، بأنها تغالب ضحكا ثم مسحت وجهها بطرف « طرحتها » بحكم العادة . كأنها تجفف عرفا أو تزيل غبارا فتلهب وجهها بزيئة مونقة ذكرتني بتلك الزينة الصناعية التى كانت تلجأ إليها أمى حين يلح على وجهها السقم . لكننى تجاهلتها عامدا ونحن ننحرف إلى اليمين حيث تقع الحجرة الأساسية جنوب الحقل يفتح بابها نحو الشمال فيرى المزرعة ، وليقع منه الناظر أول مايقع على شجرة واحدة من المشمش مستها عصا الربيع فتألفت مسحورة يغطى أغصانها الحمر العارية من كل خضرة زهر أبيض لايهتز مع النسيم ، كأنه نوع من الفراش يطلق عليه فى الريف اسم « ابر دقيقة » أما الجهة اليسرى التى انحرفنا عنها فقد كان فيها الفرن وحظيرة فيها بعض ماشية وطير .

ودخلنا الكوخ الذى سأسميه حجرة على سبيل التجوز ، فرأيت فيه الفاقة النظيفة والفقر المرتب : حصير مبسوط يبدو عليه أنه غسل قريبا ، لأكراسى ولا ارائك إلا مسندان غليظان اتكنا إلى الجائط كأنهما مهيآن لزائر مرتقب . وعلى مقربة من الركن الأيمن وفى مواجهة الداخل صندوق نصل لونه وغاب زخرفه تحت تراب الليالى يومى . إليك بأنه شهد الليلة الأولى لعروسين لهما اليوم أحفاد ، أما الزاوية التى يكونها الركن فقد شد فى تجاهها جبل أكمل أضلاع المثلث يسمونه الحمالة ، رمت فوقه الأسرة بملابسها التى تكون عادة تحت الاستعمال قريبة من اليد . وغير هذا . وذاك آنية نحاس وواهور

جاز وسقط فيه خبز وعدة أحقاق لست أدري مافيه . وانتقضت فترة الترحيب ثم شربنا بعدها الشاي ، ورأيت في هذه الأثناء ربة البيت ، وكانت في مثل سن « عم خليل » تبدو عليها طاعة هي من مقومات الزوجات في القرية ، لكنها لم تكن ذات ملاحه ولا ذات شخصية ، فأحسست أنها قطعة من الأثاث لكنها متحركة .

ثم دخل أبو اليزيد عائدا من المدرسة التي يقطع إليها كل يوم بضعة كيلومترات . غلام في السابعة . واحد بين بنتين ، تبسمت له جوارح أبيه حين أهل من الباب . وهتف أبوه بقلبه قائلا قبل فمه حين أهل :

- أهلا « البسطامي » الصغير .. سلم على الضيف .

فانحنى محاولا تقبيل يدي ثم عرج على أبيه فأعطاه يناه ، ثم انتقل إلى الداخل فخلع عن كتفه حمائل كيس من القماش جعله حقيبة حشر فيها مصحف وعدة كراسات . ثم شد الكيس إلى مسمار دق في الحائط وجلس إلى يميني تفيض عيناه بالأنس والبراءة وتشف بشرة وجهه عن نفس الدم الذي أحبيته في « سكينه » . ربت الغلام وأحسست كأنه قريبي ثم طفقت أسأله في بعض معلومات يتلقاها من هم في مثل سنه فكان يجيبني بلهجة تقطر شهدا . ثم اقترح على أن يقرأ لنا شيئا من محفوظاته فلما فعل أحس الأب بنشوة كاد ينسى بها وقار الريف ، وسألني في عجب وثقة :

- هيه يا سيدنا الألفندي .. أعجبك « البسطامي » الصغير ؟ قلت له:

- بلا مرأ أبقاه الله !!

فحاورني قائلا :

- لكنه ابن رجل لا يخاف الله .

فجمدت ملامحي في بلادة لأنني أخذت بما يقول لكنني لم ألبث أن أفقت على ضحكة من صميم قلبه اضطر معها أن يسند رأسه في الحائط ،

قال « عم خليل » بعد أن فرغ منها :
- ألا يعجبك أنني لأخاف الله ؟

قلت :

- وهل يعجبك أنت ذلك ؟

فأوماً بالإيجاب لأن الضحك عاد إلى مغالبتها . فاحمر وجهي
وأحسست خجلاً أيقنت منه أنني تلميذ بليد حتى ولو كان مدرسي أميا ،
ولعل الضيف أدرك مايجول في نفسى فسارع إلى أن يفسر الشطحة :

- هكذا قال « البسطامى » الكبير أيها الضيف العزيز ، أحب الله
غاية الحب فلم يخالجه خوف منه . هكذا قالوا !!
فجعلت أندهر الأمرحتى تبين لى أن الحب والخوف لايسكنان مكانا
واحدا فى قلب إنسان . فهتفت :

- صدقت يا عم « خليل » حقيقة أننا لاناخاف من نحب !!

وتلمست عبارتى هذه طريقها نحو الباب حيث كان شبح « سكيئة »
ماثلا عند العتبة وفى يمينها زمرة من أغصان المشمش تضامت أصولها
وتفرقت نهاياتها منتشرة . وكانت بسمتها الحلوة البيضاء مضاهية لنصاعة
الزهر . وقدمتها إلى أبيها ليقدمها إلى على حين تفرق صوتها الوداع قائلا
لنا :

- إنهم هناك يشترون الأزهار !!

أصبحت حياتى منذ ذلك الأصيل ذات ثلاث شعب أوكاحبل المفتول من
ثلاث طاقات : طاقة من الحرير خضراء ناعمة تمثل علاقتى بهذه الأسرة ،
وطاقة من الكتان فيها قوة وخشونة وتلك هى التى تربطنى بأمى ، وطاقة
من الليف سمجة بمقوتة ذات نشوز وشذوذ وتلك هى التى تربطنى بالدراسة .
وكثرت أحلامى كما كثرت أحلام « أم مختار » !!

كنا غارقين فى الأفكار ، فلم ينتبه أحدهما إلى وجود الثانى ، اللهم إلا فى سويغات محدودة ، كانت تعلق أسمى على مظهرى فيها كأن تستفسر عن سبب لفحة الشمس لوجهى أو عن تلوث حلانى بالطين الكثير ، أو عن تغييبى ساعات طويلة خارج المنزل ، وماكنت أعدم أن أجد لها علة كلما سألتنى .

وأصبح للشقة مفتاحان أحدهما فى جيبى والثانى فى جيب امى ادعيت أنا أننى أذاكر مع أحد إخوانى وأن ظروف عودتى لم تعد منتظمة بحيث وقع لنا أن اختلقت أوقات خروجنا وإقامتنا فى المنزل . أنا أذاكر عند صديق وهى تزور صديقاتى ١١ وطبعا بمصاحبة المرشدة « الست زينب » أما « أم نعمات » فقلما كنا نراها ، بل وقلما كانت تخرج معهم .

وأذرتنى الشمس فى حقول عزبة « خورشيد » بحدثها النوعية أن الصيف على مقربة منا ، وأن الامتحان على الأبواب ، وآية ذلك عربات الملائة والخس التى تدرج داخله إلى المدينة تحمل أصوات باعتهما الذين لا يغيرون ، ذكريات عن الامتحانات تثيرها نداءاتهم فى نفسى ١١ وما أكثر ذكريات الامتحانات عند كل طالب مخفق ١١ إنها الفجائع الباكرة التى نمنى بها فى مراحل أعمارنا الأولى .

على أننى استطبت « المسكن » حتى أصبح داء مع الداء ١١ استطبت ترددى على العزبة متناسيا بذلك الهموم والخاوف ، فأصبح ترددى عليها بعض مخاوفى وهمومى ١١ وأحببت « سكيته » فالتصمت الأعداء لمن يحبون ، ولو كانت علاقاتهم القلبية تعود على بالإيداء ١١ هذا هو الذى دار فى خلدى فترة من الزمن ، بعد أن تمكنت العلاقة بينى وبين أسرة « عم خليل » .

حملت إلى « بسطامى » الصغير جملة من الكتب الإضافية ليستعين

بها على دراسته بمعاونة منى فى فترات متقاربة هيات له أن يبرز بين أُنَداده، وحملت إليهم شيئا من الحلوى التى تنفرد بصنعها المدينة نظير ما كانوا يحملوننى من أزهار ، ودسست قلبى بين ما كنت أحمله فلمسته « سكينه » حتى أحست به ، فاستخلصته لنفسها مباحا حلالا .

وبدأت ألّف طبائع الريف ، وبدأت لهجتى المدنية تصاب من حواشيها بتنافر وخشونة كانت عينا أُمى تلمعان بسببهما حين تحسهما فجأة فى أثناء حديثى ، ثم تتسائل فأقول : صديق من الريف . فتراجعنى قائلة : أهذا هو الذى تذاكر عنده ؟ فأجيبها باختصار: طبعا !! ثم ينصرف كل منا بعد ذلك إلى شغله الحقيقى ، لأن مصالحنا لم تعد متفقة .

كان الامتحان على الأبواب وبدأنا نغيب عن المدارس . وأخذ المصطفون الخليون الذين لا تثقل الحياة كواهلهم بشيء يندون إلى المدينة باكربن ، وكنت أنا أوليها ظهري كل صباح خارجا عنها آخذا سمى إلى العزبة .

وبدأت كتب المدرسة نفسها تشاركنى حبنى ، لأن كل صفحة من صفحاتها كانت قد احتفظت بين سطورها بذكرى يوم من الأيام . كنت أجوس خلال الحقول على غير هدى ، والكتاب فى يمينى ونحن فى مستهل « مايو » فيلهينى تدبر الأماكن عن تدبر المعلومات ، ويشغلنى ما بين السطور عن ذات السطور . لكن ماذا أعمل وما الحيلة مادام الله قد ابتلانى بفكر سريع التزلق ، لا يثبت طويلا على شيء كأنه « النعل ذات العجلة » التى يزلقون بها على الجليد !!

وأخفقت فى الامتحان ولم يكن لى الحق فى الدور الثانى ، وكان مجموع درجاتى يدعو إلى السخرية . كأننى كنت جالسا على عتبة الفصل ، والحق أننى عرفت من فنون الزراعة وطبائع الأرض وتغير الجو وأسماء

الطيور والدواجن فى عامى المنصرم هذا - أكثر مما حصلت من معلومات دراسية . فلم أستشعر ندما ولا حسرة ، ولم أقف عند الناصية متدبرا أمرى ناظرا إلى السماء . أستلهم منها الصواب . بل خرجت بعد إعلان النتيجة محتملا الفشل فى غير خجل ، كما تبسم المخدوعة للناس وعلى كتفها وليد غير شرعى . وكنت فى هذه المرة أجرى نحو البيت جريا مستعجلا الواقعة طائرا إلى أمى لأنهى إليها الحوادث . وطرقت الباب ففتحت هى بنفسها ثم ارتدت إلى الداخل حيث اتخذت مجلسها بجوار « زينب » وتقدمت أنا حتى وقفت بين يديها ولم تخل فعلتى هذه من مظاهر التمثيل ، قلت وأنا ناصب عودى واضعا يدى فى جيبى سترتى مشربنا بعنقى ناظرا نحو السقف :

- أمى .. هل تعلمين ؟ لقد رسبت فى الامتحان ، وليس لى الحق فى الدور الثانى .

فغاب عنها لونها ووضعت كفها على جبينها وأطرقت قليلا كأنها تعاني صداعا طارئا ، ثم نظرت إلى « زينب » كأنما تستلهمها التصرف ، فإذا بالضيقة تنوب عنها سائلة إياى :

- أحق ماتقول ؟

قلت وأنا انصرف عنهما :

- أجل .. لم يعد هناك وقت للمزاح .

ثم صفقت الباب من ورائى متلمسا طريقى إلى البحر غير آبه بعواطف أمى حين أيقنت أن مسألة إخفاقى أو نجاحى إن هى إلا من المسائل الشخصية التى لا تشاركنى « أم مختار » فيها بشىء أبدا . وماكدت أهبط الدرجات الأربع التى يرتفع بها مسكننا عن مستوى الأرض حتى صادفنى « نونو » بائع الثلج والغازوزة ، الشاب الأسمر الجعفرى الذى يعرض بضاعته فى صندوق كبير يجثم على إحدى النواصى القريبة ، وهو فى موسم الصيف

يعمل سمسارا للمصطافين . صادفنى عند الباب الخارجى ومن ورائه رجل فى الخامسة والأربعين قائلا :

— « ياسى مختار » ، رب أسرة تريد الاصطياف كأمر السيدة الوالدة . فلم أجد بدا من العودة بهما ، وسمعت وأنا عند الباب صوت أمى يعلو فى صخب يتناثر من حواشيه غضب ذكرنى بالشرر الصغير النفاذ الذى يستوقفنا فى حارات المدينة حين نرى السنان والحجر والسكين ؟ وطرقت الباب فعرفت طرقتى فكفت عن الصخب وقامت لتفتح . فلما دخلنا ثلاثتنا فهمت الأمر والتقى بصرى ببصرها فلمحت فى عينى بريق الخنجر يستل من جرابه لكنها فرت بنظرها . ورمى استهتار « زينب » ولينها على الحريق شيئا ثقيلا فطوى على دخانه ، ثم تولت هى عقد الصفقة وأفهمته أنه سيتزل ضيفا علينا أى أنه غير مستأجر من الباطن . وسرعان ماقبل الشروط .



أصبحت أعرف كل شىء عن « سكينه » ولو أنها لاتعرف عنى شيئا . إن « عم خليل » يأمننى على بيته كما يأمن أحد أبنائه ، ولعل سر هذه الثقة راجع إلى تعلق « البسطامى » به وهى أننى صرت أحبه ، كان يعاتبنى عن انقطاعى عنهم إذا طالت الفترة بين الزورتين عتابا أقرب إلى التعنيف يشق طريقه إلى قلبى شقا شعريا ساذجا للذيذا فكنت لأملك معه إلا أن أقبله .

عرفت عنهم كل شىء حتى دجاجتها البيضاء المفسولة ودجاجة « البسطامى » المنقطة « نوار الفول » ثم ما لبثت أن صار لى بين دجاجهم دجاجة لم تكن ملكى بالمعنى المفهوم من الملكية ولكنه تملك صورى قصدت به الذكرى ومعرفة الطالع . وقد كانت رمادية دكناء فى لون الذئب . ولشد ما كنا نضحك حين اتضح لنا أنها أقل الدجاج بيضا !! وحملت إليهم بنظولنا من التيل قصيرا تركته عندهم ألبسه عند إصرارى على مشاركتهم بعض

أعمال الفلاحة ، أنا وهى و « البسطامى » الصغير كنا نشترك فى زرع أو سقى أو حصاد فنلتصم الحيل أوتسعفنا المصادفة فينفرد بنا المكان ، وهناك تختليج شفتها السفلى فى تقلص ينبنىء عن حركة الداخل ثم تسترخى الأجفان فرارا من أن تقول عيوننا شيئا فأهمس قائلا لها :

- هيه . ألم يقتل لك أحد بعدها يا « سكينه » ؟ هلبقى هذا الاسم من خصوصياتى فلم يهتف به إنسان ؟ .. كلهم يدعوك « بسكرة » إلا أنا وحدى فإننى أدعوك « سكينه » . ألسنا متفقين على أنه الاسم الذى تبيعين لى أن أحب صاحبتة ؟

لم تكن كثيرة الكلام بطبعها ولا بارعة العبارة . كانت من أولئك اللاتي يختص باطنهن بالشق الأكبر من المعركة فلا يترك للظاهر إلا الشيء اللطيف ، كان حبها لى أشبه بأن يكون انفجارا تحت الأرض لكن آثاره كانت تبين على الحدود ومن نافذة العيون .

وكان أقرب ما يكون إلى المتعة الروحية الخالصة التى يتعاقب فيها التعب والراحة والقلق والإيمان لأنه حب فارغ من كل أمل .

على أن بعض الشجيرات كانت تحنو علينا حينما فتسترننا عن الأبصار كما أن ظلمة المساء كثيرا ما هبطت علينا قبل أن نعود إلى الكوخ ، ففارت فى طبيعة الطين وأدمنت النظر إلى شفتيها وخاصة إلى البقعة المثيرة فيهما التى تستخف الأحلام وتطيش ميزان العقول . وكانت الحقول تشاركنى الموقف فتدفعنى بسكونها إلى الحركة ، وتذكرنى بوظيفتها وظيفه المرأة على حين تزقزق فوق رموسنا الطير غادية أو رائحة زوجين زوجين ، وتتوارى المراثيات عنى عامدة إلى أمد لتفسح الطريق كأنما خشيت أن تفسد علينا الخلوة . يحدث هذا جميعه فأنظر إليها راجف القلب مضطرب النفس فألفيها هرة أنيسة بيضاء جميلة آمنة مستكنة كأنها واثقة أنى سأحرسها منى فأحوط

نظافتها أن تتسخ . وأشفق على أمنها أن يبده الحارس ، فأغمد المديّة في قلبى بيمينى حتى يغيب النصل وأستعيض عن مطالبى كلها بمطلب واحد يتمثل فى سؤالى إياها قائلاً لها :

— « سكينه » .. هل تحبيننى ؟!

وهنا فقط وليس فى لحظة سواها ترفع أجفانها سامحة لنظراتها أن تجوز إلى ثم تقول مبتسمة :

— أألزمت غير مصدق ؟ سأقول لك نعم نعم حتى آخر العمر .

وتتحول عن المكان قليلاً ثم تعود ، ثم تبدأ فى إحدى القصص وكثيراً ما كانت تعيد مآقاته من قبل لأنها تقصد الإفادة من هذه الإعادة ، فالموضوع موضوع إحدى العذارى فى العزبة أو فى القرية البعيدة . عدواء أنساها الحب نفسها فجرت حتى الغاية وأدركها « المكتوب » على خد قولها ، فلما تسلمت قمة اللذة رأت أنه لابد من أن تنحدر فأشعلت فى نفسها النار .

لكن عينيها كانتا تقولان لى بعد كل حكاية من ذلك اللون : وعلى الرغم من هذا كله فإننى لأدفعك عن شىء ، ولكننى واثقة من أنك لا تريد . ثم تغنى لى بصوت خافت لين أغنية الحبيبين اللذين يقف كل منهما على بر وبينهما « معداوى » عنيد لا يقبل أجراً ولا يبذل صدقة !!

- ٤ -

ما أعجبها أسرة التى جاءت تقضى الصيف عندنا على الشاطئء فرارا
من حرارة الشمس فى « دمنهور » ا
ريها « عباس أفندى » الذى استأجر حجرتين فى مسكننا لمدة شهرين،
وهو أنموذج يدل على أن أسرار الله فى الخلق غامضة عميقة نقف أمامها
بلهاء عاجزين .

أسمر الوجه مملته قميل سمرته قليلا إلى السواد ، وتبدو عليه معالم
الإهمال متمثلة فى شعر الذقن . كما ينتشر فيه عث الجدرى الذى استخصب
ماحول الأنف فرعاه جيدا ومر بالباقي مرا خفيفا ، غزير الشارب تنمو
شعيرات شاربه فى كل اتجاه حتى اشتجرت مع شعر الأنف فى فوضى غير
مهذبة ولانظيفة ، واسع الفم ، يرسب لعابه عند زاويتي شفتيه فترك أثرا
جيريا باقيا لارتجاج إليه العيون ، ويبدو أنه مصاب بالتهاب فى الحياشيم
مزمّن قديم قد استحال مع الأيام إلى زكام دائم يحمله على استعمال المنديل
حتى فى الصيف ، ويخرج الهواء من أنفه المرة إثر المرة حتى يصلح مجرى
التنفس .

وبين هذه الملامح التى ترى كأن كل عضو منها يخاصم أخاه ترى عينين
هما حقيقة سر الله فى ذلك الكائن ، ومن عينيه هاتين تنبثق شخصية قوية ،
فلو فرضنا أنه يكلمك دون أن ينظر إليك أحسست أنك تخاطب أئفد إنسان،

أما إذا ما نظر فإن الموقف سرعان ما يتغير . فى الخامسة والأربعين متوسط الطول يكاد يكون سمينا ينحشر لحمه فى الحلة حشرا ، طربوشه إلى وراء على حدود منابت الشعر من الجبين ، وقلما يجاوز حده ، طربوش غير زاهى الحمرة ولا أسود الزر، يوائم لونه بقية الملابس من رباط عنق لا يعقد كل صباح بل يلبس معقودا ويخلع معقودا كأنه طوق من الحرير ، إلى بنيقة لاتأخذ وضعها حول العنق ساعة من نهار، إلى أزرار ناقصة على الكمين أو على الجنبين ، إلى حذاء يلبس مربوطا ويخلع كذلك ، وينظفون لا يخلو من التكسر فضلا عن انتفاخ خفيف حول الركبتين يقال : إنه نجم عن السجود ، إلى ملابس تدور كلها حول اللون البنى الذى لا ينسجم مع سمر الألوان ، ويمشى فى حركة أدنى إلى السرعة ، ويتكلم بلهجة من نوع حركة المشى فيها تقلقل ولهجة . أكل شراب يتنافى ما يحمله من السوق مع هيئته التى تبدو عليها دلائل الفاقة ، هذا هو « عباس أفندى » .. وهو أحجية من أحاجى القدر !!

أما زوجته فلا أدري كيف أصفها ، ولكنى سأحاول ، فأقول أولا : إنها تسمى . إلى من يراها بأنها مخلوق غريب تخلف عن عصر تاريخى سحيق ، سطا الزمن على كل أفراد نوعه فلم يبق أحد سواه !! ولعل مبالغ ، فلست متأكدا من صدق ميزانى !! ولكننى واثق من أن « عباس أفندى » قد استعاض بلذة الأكل عن كل لذة سواها بعد أن تزوج منها بقليل . طويلة !! ولكن ليس كطول البشر ، بل طول تنفر العين منه منذ الهولة الأولى ، سمراء حمراء فى وقت واحد كما تخلط صبغا بصبغ . رخية البال واسعة الصدر وإن كان صدرها مسحوحا على الرغم من فراشة العود . لا تغضب مهما يفضيها ، لأنها تخاف على عش الزوجية أن تتقوض أركانه ، وأنجبت منه بنتين أكدت بهما صحة قانون الوراثة !! تقوم بحاجاتهم جميعا خادمتهم « وهيبة » الشابة

التي لاتعد مليحة إلا إذا رأيتها فى محيط الأسرة وإن كانت بيضاء صافية. لكنك على كل حال تحس أنها أنثى قد ابتذلت فى الخدمة فنمت كفاها أكثر من المألوف من مزاوله المسح والغسل والأعمال العنيفة ، وتضخمت قدمها وتقرطحتا من الحفاء وتباعد مابين الأصابع واتسعت الفرجة وترهل الصدر ، ولست أدرى لماذا تنظر إليك بعينين فيهما حول غير منفر، وتحديثك بغم يعتبر لجمال غريبا بين بقية الملامح ، صغير ناعم أحمر قان مستدير ، كأنه خاتم من العقيق .

هذه هى الأسرة التى شاركتنا مسكننا لمدة شهرين من زمن الصيف ، وكنت أحس بوجودها إحساسا مؤلما قويا كما تحس الشظاة تحت الأظافر. ولعل سر ذلك أن مقام هؤلاء المساكين الذين لم تَمِنْ الفطرة على أحدهم بوجه حسن هو أن وجودهم كان منبها يخلو من القصد جعل امرأتين فى بيتنا تشعران بنعمة الجمال وتعتران بها كما يعتز السليم - فى ضميره - بنعمة الهضم حين يستمع إلى شكاة الممعود . فزاد مزح « زينب » واستشرى تأود « أم مختار » فى مشيها حتى خلت أن العظام قد استلت من بدنها أو أن الأريطة التى تشد النصف الأعلى من الجسد بالأسفل منه قد وهت وتقطعت!! وكثر جلوسهما فى الصالة على الكنبه التى أحرق بها كروسيان فتهيأت بذلك الفرصة لاجتماع عام لاتظهر فيه روائح التدهير .كانت الأغراض مختلفة والمصالح متشابهة : « فزينب » يلذ لها بطبعها أن تعرض ماتستطيع من محاسنها على كل رجل لغاية أو لغير غاية ، كما يلذ لها أن تبعث برائحة « شواتها » إلى المحرومين ، ولعلها كانت تجد فى ذلك لذة لاتقل عن لذة الأكل نفسه ، أقصد أنه يحلو لها أن تترك « عباس أفندى » يشعر بأن هناك لونا من النساء « رخيص التكاليف » « مصنوع محليا » غير باهظ الثمن يغنى الرجال عن هذا التقشف !

لاستطيع السنوات التي مرت على هذه الأحداث يا صاحبي أن تنسيني
اختلاج حلقها وهي تستقى رب الأسرة كل هاتيك المعاني . وكان الرجل يبتلع
ريقه أو ينفخ في الهواء من أنفه ، أو يستعمل المنديل ، أو يتحسس رباط
رقبته المعوج في ارتباك وتطلع يفسد على النفوس رضاها بالمقدور ، ويحمل
ساكن الكوخ على تقويض أركانه : لأنه رأى على مقربة منه قصرا باذخا
يرنو إليه بعيون من الزجاج وأحداق من الأضواء .

أما « أم مختار » فكانت تخدع نفسها بنفسها وتتناسى غرضها من
مجلسها بينهم ، تخدع نفسها بأنها ربة المثوى التي يجب عليها أن تلاطف
وتتودد وتسهر على الحاجات والمطالب ، أما غرضها الحقيقي كما تصورته
أنا وقت ذلك وعرفته بعدئذ فهو أن تعرض جمالها في معرض القبح ، وأن
تسوق نحو السوق سلعة مليحة . وغايات الأمور يعلمها الله .

وقليلا ماكنت أشارك في هذا الاجتماع إلا إذا قصدت الملاحظة . على
أننى كنت ألاحظ ما أكره وأعرف ما يسعدنى أن أكون جاهلا به ، وعلى أن
ظهورى في الصالة ولو إلى أمام قصيرة كان مدعاة إلى ظهور الفتاتين
والخادمة وثلاثتهن من جيلي . كانت نظراتهن تتكسر على محياى في تطلع
ونهم حبيب إليهن المقام كما حبيب إلى العائل ، ولعل نفسا واحدة هي التي
كانت محرومة من المنفعة - مع تجوزى في التعبير - بل وكانت تتوجس شرا ،
تلك هي زوجة « عباس أفندى » ، المتحركة بذاتها ، الصامتة كأبى الهول ،
المستسلمة للمقادير الهوج استسلام كل فارغ من المزية .

وينقضى الصيف كسلان حارا متثائبا كثيبا ، لا يعجبني فيه شيء
لأننى كنت على وشك أن أفقد غاليا جد عزيز .. كنت على وشك أن أفقد
حنانا واهتماما فطرت عليه الأمهات ، كنت في ذلك التاريخ شابا لأزال في
أول مراحل الشباب التي يكون الطابع الأصلي فيها الحدة والثورة والحارة

والاندفاع ، والتي تكون شبه خالية من التجارب وبخاصة تجارب الرجال الذى يقفون من المرأة على أسرار الجسم والنفس بحكم السن و عالم الزمن . ولكننى كنت قادرا على أن أصف لك - لما رأيته من صدوف أسمى عنى - إحساس زوج محب يرضيه من زوجته القليل التافه ، لكنها أبت إلا أن تدبر إليه ظهرها من أجل رجل آخر ! هذا هو الذى وقع وذلك حقيقة إحساسى فى ذلك الحين لأننى كنت أنظر إلى « أم مختار » بحنق أحس حرارته على قلبى كأنها زوجة حبيبة .

ثم يأتى بعد ذلك شتاء كتيب كالح !!

كانت أيامه تناوى أسرة « عم خليل » فى عزبة « خورشيد » كما كانت ترسل إلى بيتنا بالنذر هنالك على شاطئ البحر .

أما ما انتاب عزبة « خورشيد » فى ذلك الشتاء فإنه لم يكن قاصرا عليها وحدها بل كان موجة من غزو سيل جارف طما عبايه على الريف فى مصر ، وإذا كان الفلاحون قد تعارفوا على مواسم الحصاد فقالوا « موسم القمح » و « موسم القطن » فإنهم كذلك قد تعارفوا على مواسم الأمراض حتى قالوا « موسم التيفوس » !!

وقد كنا فى موسم التيفوس « ا

كان الموت فيه عملاقا عظيما يحمل تحت إبطه منجل الفناء الماضى المعقوف ، وماكان يضعه أبدا لأنه ما فتر يوما عن نقل خطواته بين القرى والديساكر يحصد أرواحا اصفرت أعوادها قبل الموسم . وكثيرا مارمى بمنجله على وحيد لأهوين قد شاخا ، أو عروس مازالت تحلم بعطائر الزفاف ، قصارى القول إنه كان ينشر الشكل والبيتم والدمع والجزع فى كل مكان .

وانقسم الفلاحون ازاء هذا الوباء قسمين طبيعيين : أفراد أحدهما قديرون متعصبون يجلدون الصابون ولكنها لا يحتاطون . وقد رعى الموت

فيهم رعبا خفيفا . أما أفراد الفريق الثانى فهم قديرون متعصبون كذلك لكنهم لا يجدون الصابون ، وإن وجدوه فإنهم لا يجدون ما يغسلون ، وقد أكل الموت هذا الفريق أكلا لما ، وطارده حتى فى الحقول والمزارع .

وانتشر رجال الصحة فى الريف يحاربون الوباء بطرق متعثرة يائسة تدعو إلى الرثاء لا إلى الإعجاب . فضربوا فى الأجران عدة خيام حشدوا فيها الحلاقين ليستأصلوا شعر الرجال من جسداهم كله !! الظاهر منه والخافى !! حتى لا تجدد تلكم الحشرة البليدة البيضاء الخبيثة ملجأ فيهم تأوى إليه .

دخلت هذا المكان فى ضحا يوم من الأيام مع موظف منهم فرأيت شيئا يحجب إلى النفس المرض . كل ما فيه قلدر : الشعر منشور فى كل ناحية ، والحلاقون فى ملابس داكنة غريبة كأنما أعدوها لذلك اليوم ، وهناك طست فيه من محلول الفينيك سيح قليل رقرق تبدو منه أجسام أدوات الخلاقة المغمورة صدئة سوداء كأنها تستعمل من عهد « خوفو » ويخلع الفلاح قلنسوته الصوفية مسلما رأسه ليد مستهينة وأدوات تالفة عقيمة ، فسرعان ماتقلص ملامح وجهه لتدل على الألم . وتنقضى ساعة يخرج بعدها لامع الرأس تحت الشمس كما يلح قشر البطيخ تحت ضوء القمر . تفوح من أرائحه رائحة الفينيك وتبدو على وجهه آثار الموقعة . أما النساء فقد ضربت لهن خيام منعزلة فيها نساء مثلهن يقمن بالتنظيف والتسريح والتعطير بحامض الفينيك . لم يكن العلم قد بسط ذراعه فى ذلك الزمان حتى بلغ مكن هذه الحشرة . فكر فى الأسد والفيل فنصب لهما الأشرار حتى اعتقلهما وجعل منهما ملهاة ينظر إليها النساء والأطفال فى الحدائق ، لكن أنامله لم تكن نالت « قوادة » التيفوس !!

لن أنسى الذى يعينى بما أقصه عليك فإن الذى يعينى منه شخص

واحد .

نصبوا هنالك بين الحقول خيما جعلوها معزلا للمرضى ، كانت ريح الشتاء تنازعها أنسجتها بين خضرة الأرض حتى تكاد تطير بها كما تطير بأشعة السفن . وفى ذلك المعزل البارد والكن غير المكنون ترقد طائفة من الناس يطعمون الألم ويستدفنون « السخونة » ويغتون بالهذيان . حيلة الطب فيهم أن يجس نبضهم فحسب ، حتى يعلم الحالة التى آلت إليها قلوبهم . وحولهم ممرضون لا يستجيبون النداء ولا يحاورون الداء ، مهمتهم تسليم الجثث أو تقبل الهدايا من أسر الذين ينقسم المرض فى أجسامهم إلى سم و ترياق فيشفون بلا عقار .

وبين هؤلاء المرضى فى هذه الخيام رقد « البسطامى » الصغير !! وهكذا ناوت الأيام أسرة « عم خليل » فالصبي مضطجع فى الخلاء منذ ثمانى ليال ، ولم يستطع أحد أن يزور مريضه كما استطعت أنا أن أزور مريضى ؛ لأن رجال الصحة قد خدعهم مظهرى فتسامحوا معى كثيرا .

زرت الكوخ ذات مساء - لأن زيارتى لم تعد موقوتة - فلما اقتربت من بابه أحس أن هنالك صموتا ثقيلا يلقى بكلك على المكان ولو أن الريح المتتابعة الأشواط أبدت نشاطها فى أزيز أعواد الخطب على سطح الحظيرة وتصفيق أوراق المرز عند المدخل ، وفى نشيش شجرة الصفصاف والسنت ، وهفيف زمر الحلفاء على التربة . وعلى الرغم من هذا كله فإنى أحسست سكون المكان . وناديت ففتحت « سكينه » وكان الاهتمام باديا على معياها . لم تقل شيئا ولكننى فهمت من صمتها أنه يجب أن أعجل بالدخول . فإذا « البسطامى » الصغير نائم أمام الصندوق الكبير القديم الحائل ، تحت رأسه وسادة تستعمل سندا فى النهار ومخدة فى الليل . وعليه كساء من الصوف الغليظ المخطط وقد ربط رأسه بمنديل أبيه ، وألقى المصباح

الوانى المدخن الزجاجية من أنفاس الهواء كلما فتح الباب - ألقى على وجهه المحتقن ضوءا خابيا لاهثا مكثودا يرمز إلى الحظ . وأسبل الغلام أهدابه واستسلم لنوم . لم يكن نوما وإنما كان عناء وإرهاقا وشدة جلست الأم عند رجله والأب قريبا من رأسه فى يده مسبحة من تسع وتسعين ، وشفتاه تدعوان فى رجة . أما « سكينه » فلعلها كانت أمامه ولكنها أخلت لى هذا المكان .

واستعدت بالله فى سرى من تحليق القضاء فوق رموس الناس .. فى تلك الفترة المشحونة بالقلق والمخاوف ، واستعدت بالله فى سرى ودعوت بل لعلى كنت خجلا من نفسى ساعة وضعت يدى على جبين الغلام لأعرف مدى الحرارة ، متوهما أن هذه الأسرة الطيبة المسالمة ربما عزت مايقع لها ومايصيبها إلى طالعى أنا لا إلى طالعمهم ، وفى الريف يتفاءلون ويتشائمون ويرجعون الأشياء كثيرا إلى غير أسبابها . ثم رفعت كفى عن جبينه وأنا أقول :

- لا .. لفحة هواء .. لاتزيد . ستصبح بارئا بإذن الله .

فكتمت الأم دمعها ، وهتفت الأخت قائلة :

- ليسمع الله منك !

أما الأب فقد أبدى استسلامه قولاً وفعلًا حين نهض من مكانه ليصلى النافلة .

تسلقت سور المدرسة الخلفى بعد الحصّة الثمانية أربعة أيام على التوالى لأطمئن على حال صديقى الصغير . أحسست خوفا عليه وحبا له ، ولست أجادلك إن اتهمتني بالأنانية فى ذلك الموقف وزعمت أننى أحبه من أجل سواه . وماذا فى هذا ؟! لئتنا إذن نحب عباد الله من أجل حبنا فى الله !! كنت عندهم قبل الظهر فى اليوم الرابع ، وكانت الحال تجري من سىء

إلى أسوأ فقد أصابته العدوى . وما كاد المكان يستقر بهى حتى فاجأنا رجال الصحة الذين كانوا يلاقون عناء فى البحث عن المرضى . وهذه كلمة حق . كانوا يخبئونهم فى باطن الفرن وفى مخازن التبن وتحت أكداس الحطب وعند أقربائهم البعداء لأن أسطورة قديمة كانت تعيش وتجدد فى كل قرية مع موسم الأوبئة ، فحواها أن الذئب تسطو على المعزل فتجر منه جثث الموتى من بين أحياء بعضهم يهلذى وبعضهم نائم !! ومن أجل ذلك كان رجال الصحة يهجمون على البيت وسمعتهم يومئذ وهم يقولون :

— لا داعى للإنكار ، فإن المدعو : أبو اليزيد خليل ، متغيب عن المدرسة من أربعة أيام مضت وقد أبلغنا ذلك الناظر .

فذهرت الأسرة وتوليت أنا إقناع الأب بأن هذا عمل صالح وأن المرضى هناك يكفلون بما لا يكفلون به فى البيوت . على أنه لم يكن هناك مناص فأصررت أنا على أن أحمل الغلام بنفسى . ورأى الرجال إخلاصى فعطفوا على آلامنا . وفرت الأم تجرى نحو الحقل فى دعر محزون ، ووقفت « سكينه » تهرق عيناها كالمرأة بدمع كان له على حشاى ملمس النار . أما الأب فإنه رفع إلى السماء عينين لم يخفف الدمع عن صاحبهما البلوى وهمهم بالدعاء ، ثم رفع صوته قائلاً :

— كله بأمره .. إنه ليس أفضل من النبى محمد ، ولا من « البسطامى الكبير » .

فلم أملك سوابق دموى . وسرت وساروا من ورائى !! ولست أدرى كيف تطول أجسامنا حين تغيب عنها الإرادة فلقد كانت أقدام الغلام تلامس ركبتى على طولى وفراهة عودى . كان محمولا على صدرى من الجهة اليسرى بعد أن عقدت ذراعى تحت مقعدته وبحيث ارتاح رأسه على كتفى . كنت أحس دقات قلبه مسوقة بعنف شديد ، وأحس لفتح أنفاسه على صفحة

عنقلى وحول أذنى ، وسرعان ماسخنت بفعلها البنيقة . وكان يهذى هذيانا
متقطعا أسمعنبه بوضوح ، وقد هذى بأشياء كثيرة ، فيها « جدول الضرب » ،
وفيهما الأنشودة الوطنية « مصر العزيزة » وفيها غير ذلك ، ولكن الذى
أبكاني مرة أخرى هو أنه نادانى .

وانجھت إلى السماء دون أن يرشدنى أحد حين رأيت أن الأزمة لا حل
لها على الأرض . وددت أن أفديه بنصف عمرى ، فلجأت إلى المصلى على
الترعة تحت شجرة الصفصاف وسجدت على الحشيش بل وكنت مستعدا أن
أمرغ خدى وجببنى فى التراب فيخفف عنه الله ، فقد اكتشفت أننى أحبه .

ودخلت على أمى ذات مساء فسمعتنى أهتف بقلق وشروء واهتمام
وإخلاص قائلا : يارب !! فتهافتت ضاحكة كضحكة « زينب » تماما
معتزضة على بأننى لم أفعلها من قبل متسائلة عن الدافع ، فعجبت غاضبا
وسألتها فى جرأة أهذاها إلى سلوكها الجديد :

— لك أن تعترضى على حين النجىء إليك .. إننى لم أقل يا أماء قلت

يا رب !!

فانصرفت عنى .

لكن ذلك حملنى على أن أتفحص الأمر حتى كدت أدرك فى هذه السن
أن الحب معنى يجب ألا يخلو شىء منه وإلافسد ما بين « وحداته » . إننا
نقبل الققط فى بعض الأحيان أو نهم بأن نفعل ، وما ذلك إلا أن الحب بين
نفسينا !!

ثم بدا اللطف يحف بظلمة الكارثة حتى أحال ظلامها نورا فإن الحياة
دبت من جديد فى جسمه الضاوى . وتبين لى ذلك فى ضحوة من الضحوات
يوم ذهب لأزوره غير معرج قبلها على كوخ أبيه ، وكانت فرحتى عظيمة
وكدت أجود على المرضين والخدم بسترتى بعد أن وزعت عليهم نقودى

القليلة وهممت أن أهب أحدهم دراجتى المنهوكة لولا أنها تيسر على الذهاب إلى المدرسة والنزول إلى العزبة .

كان « عم خليل » فى الإسكندرية يوم ذاك يبيع بعض خضره فعدت أنا بالصبي أحس دفء أنفاسه لالهيها وأستمع إلى حديثه لاهذيانه ، وفوجئت بذلك أمه فلم تملك أن تتحرك ، ودخلنا إلى الحجرة حيث تركتها تكيل له القبلات وتجهز طعاما عاجلا ، وجريت إلى نهاية الحقل نحو الشمال حيث كانت « سكينه » مشغولة فى عمل . قلت لأمها اختصاصى إن شئت ودعبنى أحمل إليها البشرى ، فوافقت وتركتنى أجرى مدفوعا بحرارة وحب حتى إذا ماوصلت إلى هناك أبصرت بها واقفة بين شجيرات الفاكهة على حاشية الحقل ترمى فى حجرها ببعض أثمار البرتقال . وقرأت البشرى على وجهى قبل أن أفوه بحرف حتى إنها سألتنى فى ابتسام وشروء :

— هل عاد ؟؟ لعله عاد .

قلت وأنا أجرى نحوها :

— نعم .. نعم لقد عاد .

فتركت حجرها ينحل فتهاوت الأثمار مبعثرة على الأرض ؛ لأنها كانت محتاجة إلى يديها . وقفت تجاهها فى الظل آخذ أنفاسى بعسر وعنف من جرمى واضطرابى معا فلم أستطع أن أقول لها كلمة ، لكنها استشرفت ناظرة إلى عليا قوامى رافعة وجهها محدقة نحو عينى واضعة كفيها على كتفى لتفصل بين جسمينا مسافة قليلة . وكانت فى موقفها أشبه بمن تخاطب أحدا فى النافذة وهى على الأرض ، فأتاحت لى أن أرى عنقها الطويل العال ، وأن أرى استدارة وجهها البدرى ، وأن أرى من صدرها ما تحت النحر فى تلك المنطقة التى تسترها الجلابيب فى الريف فلا تراها الشمس . فلما وقع بصرى عليها ألفتيتها بيضاء ناصعة جميلة وأحسست نعومتها كأننى ألمسها .

وبقينا كذلك برهة ، الألسن صامتة والعيون نواطق ، لكننى مالبثت أن وضعت ذراعى حول خصرها فأحسست لنا كلين الماء ، وأيقنت أنه قابل للانجذاب إذا ما جذب . ثم أخذت عيناى تتحولان عن عينيها هابطا بنظراتى على التدرج منهما إلى الأنف والخدين فى وقت واحد ، ثم إلى ما تحت ذلك حيث الشفة العليا تتوسطها نفرة جميلة ، حتى وقفت عند الفم الباسم كله جملة واحدة . ثم انفصلت عنه نظراتى حيث نامت الشفة السفلى وحدها واستقرت على نقطة المناوشة والإثارة ، فإذا بها ترجف خفيفا كورقة الورد مع نسيم الربيع . وهنا نسيت كل شىء . كانت هذه اللحظة آخر عهدي باليقظة فقد غبت غيبوبة لست أدرى ما مداها ، أفقت بعدها فأدركت ما مرت به كما ندرك حوادث الأحلام . وكان الذى حدث هو أننى جذبتها فانجذب خصرها الذى لا يقوى على المقاومة ، فلما تماس الجسدان وميت بنمى على شفتيها فى قبلة كانت بابا ذهبيا عبرت منه للمرة الأولى فى حياة كلها أشواك ، بانسة محرومة ، وبخاصة من الحنان !! فلما فرغنا نظرت فإذا هى بين ذراعى أنيسة وادعة كأنها فى أمان !! ولعل منظرها هذا هو الذى وقف تدفع الشباب فى مثل هذا المعارك .

وكان منظرنا عجيبا حقا : طرحتها على الأرض عند قدميها من الخلف ومنديل رأسها متراجع إلى الوراء فى فوضى أحلى من النظام ، وأثمار البرتقال منتشرة فى الظل كأنها أكر من النار وعلى ملابسى وملابسها قروش من النور سقطت من بين أوراق الشجر . وبعض الطيور محلقة تزقزق فرحة بدفء اليوم ، يبشر بعضها بعضا بمقدم الربيع ، وإن كانت مخدوعة . ثم بدأنا نتكلم . فقالت كمن يخاف أن يسمع صوته :

— كده ١٢

قلت :

— أتريدين أن تشعرينى بالندم ؟
 واحمر وجهى وكدت ألفظ حلاوة الموقف من فمى لكنها سارعت قائلة
 كأنها خافت أن تتلف شيئا ما :
 — لا . لست أقصد .. هى فرحة الأخ الكبير بعودة الأخ الصغير .
 دعنى !

وبدأت تلم شعنها وتجمع الشمار المبعثرة لتسببنى إلى الكوخ وقد
 أحسست أن ندمها يخالطه فرح ؟ ألم تجرب ذلك قط ؟ إنه كندم الصائم
 الذى يأكل ويشرب ناسيا حتى يبيت الجوع فيذكر أنه فى رمضان ، فيشهى ،
 ويضحك ، ثم يتمضمض مستأنفا صومه مستشعرا ندمها تخالطه فرحة ، لأن
 الله هو الذى أطعمه وسقاه . وقد يتمنى بينه وبين نفسه أن تتكرر الحادثة .
 وهكذا كانت وهى تحت شجرة البرتقال .



لعلها خطة مرسومة يريدون بها أن يجرعونى مرارة الأحداث قليلا قليلا
 حتى لا أفقد صوابى حتى أرى الكأس مترعة . لكنه عمل غير صالح لا يكاد
 يخلو من التعذيب .
 ماذا عليهم لو أعلنوها صريحة ؟! لكنها « زينب » التى لا تتغير ،
 إنها المرأة التى ترسم كل شىء وتخطه بدقة كما تخط قوسى حاجبيها .
 سمعت ضحكيتين نسويتين فى الصالة نفذتا إلى من الباب المقفل وقت
 العصر وأنا جالس إلى كتابى . وكأنا مختلطنى الرنين فى حلاوة موسيقية
 تحمل إلى الأذن معنى المرح والمفاجأة فى وقت واحد . ثم تنهى إلى بعد ذلك
 نحنحة رجل وصوت أمى وهى تحيى : « أهلا وسهلا » وهمت أن أغادر
 مكانى خارجا إلى حيث الضيف لكننى لم أكد أفعل حتى استؤذن على
 بطريقة عرفت فيها تكلف « زينب » حتى فى طرقاتها على الأبواب ، ثم

فرجت بين المصراعين وأطلت بوجهها وحده وكان « معمولا » مرسوما
اقتضاها على الأقل مجهود ساعة فأمسى يطفح بالصبغ والعطر ، فرجت بين
المصراعين قائلة :
- تعال سلم .

وردت الباب وانصرفت ، وسمعت وقع حذائها العالى وهى فى طريقها
إلى حجرة الضيوف ، وسارعت طبعاً إلى هناك يسوقنى تطلع وهم ونكد ،
ويحدثنى ضميرى أننى أدعى لأمر غير عادى ، وإلا فلماذا أدعى لأول مرة
على هذه الصورة ؟!

واجهنى أول ما دخلت زوج الست زينب بشكله الخرىم وهذوته الجدير
بعذارى الريف وهندامه المرسوم بريشة امرأته وصوته الخافض وشباهه الموثق ،
فلما بصرت به وأيقنت أن هناك أمرا غير طبيعى لأنه كان نادرا ما يزور .
ويقع هذا النادر فى أيام الأحاد ولم نكن فى يوم أحد .. ثم جال بصرى حتى
وقع على .. على « عباس أفندى » . رب الأسرة التى عندنا شطرا من
الصيف . وها نحن أولاء فى فصل الشتاء ، لكنه جاء يزور ، جاء يطمئن
علينا فلعله خاف أن تجتاحنا العواصف ، ويصحبته رجل وامرأة غريبان عنا ،
بل غريبان عن المجتمع كله لأنهما مشغولا بنفسيهما عن كل ما يهم . قلت :
- أهلا وسهلا « عم عباس أفندى » . وأحسست وأنا أحبيه بأننى
أهجم عليه ، أقصد أن أقول : إن الخوف كثيرا ما يدفعنا إلى الأقدام ،
كنفس العمل الذى نعمله حين نلتقى بشعبان بين أكوام السجاد فى القرية .
وجعلت أردد التحية أهلا وسهلا « عم عباس أفندى » ، والرجل يرد باهتمام
 واحتفاء بعد أن ينفخ الهواء من أنفه فى كل مرة .

ثم حملنى مظهره على أن أتفحص الموضوع لأن عليه حلة بنية جديدة
ولم تكن بنية القميص مكسرة كما ينبغى ! أما رباط العنق فقد بدا أنه عقد

للمرة الأولى .

وقدمت القهوة وجلست أُمى تحببى وتتكلم ، وانطلقت « زينب » تجوس خلال أغراض الحديث فلم تدع شأنا ولا غرضا ، كلا ولا فرصة لعقل ولا لسان . ثم أمسكت قليلا ، ثم هزت أَرادفها فى كرسيتها برشاقة مؤذنة بانتهاء الجلسة فنهض الرجلان ! كأنها ضغطت على زر !! وبدأنا نتصافح مفترقين ، وحرص « عباس أفندى » على أن يخصنى بشيء فإنه أوصانى بالدرس خيرا وقتى أن يسمع عنى ما يسر فى عامى المقبل . قلت بينى وبين نفسى : والهدف نفسى اثم أويت إلى حجرتى مشئت الهال أضرب أخماسا فى أسداس .. أطالع صورة أبى فى المرأة ، وانظر إلى عين أُمى كلما دخلت فألاحظ أنها تصرف بصرها عنى ثم أعد صفحات الكتاب ، ثم أنقر برجلى على الأرض ، وأنغم بأصابعى على المنضدة لحنا خاويا بليدا . ثم أرجع فأعد أصابع يد بيد ، ثم أتحول إلى السقف فأنظر إليه وأقوم بعدها إلى النافذة فأهصر الستار عن الزجاج لأرى وجه البحر الغشوم وأنظر إلى سحاب الشتاء وقد غمس حوافه فى الماء عند الأفق ، ثم أعود إلى مكانى فأبدأ حلقة هذه الأعمال مرة جديدة !!

إنه الشرود واضطراب الفكر وبلبله الخاطر ، وتطلع أبصارنا الكليلة إلى المغيب ، وانطواء النفوس عن النفوس فى بيوت تنقصها الصراحة ولا تنهض دعوماتها على الحب . طالما أسندت رأسى إلى صدر « أم مختار » وأنا أتغذى بلبنائها .. فهل كانت إبان ذلك تقبلنى بحنان ؟! إذن فلماذا تطوى عنى سر نفسها ونحن شجرتان مفردتان تقتضينا الحياة أن نتماسك .. من الذعر ..

إن لم يكن من الحب !

وضقت بالحياة ووقفت سادرا حائرا أسأل عن الطريق فلم أدر إلى أى

جهة يجب أن أسير . وأخذت أفكر فى الموت مرة أخرى .. انجذبت إلى النافذة الضيقة المظلمة الكئيبة المحصنة بالأسلاك والقضبان ، القريبة البعيدة ، المرعبة المطلوبة ، فرأيت أنها هى النجاة ، ثم جعلت أسائل نفسى : لماذا نحتمل الحياة هكذا مؤلمة غامضة جلدنا بالسياط ونحن نحتضنها ؟! لكن الحياة نفسها وقفت بينى وبين الجواب ، فلبثت أنظر إلى نافذة الموت وأنا فى مكانى لأرىم ، لا أتقدم خطوة ولاذراعاً وإن كنت راسخ اليقين بأن العلاج الحاسم لكل شقوة إنما هو إنهاء الحياة !

ثم عدت فنسيت هموم نفسى فترة أخرى من الزمن لأننى شغلت بمراقبة مأساة قد لاتعتبرها أنت مأساة وإن كنت أرجع أن حكمك عليها قد يتغير . هناك فى عزية خورشيد مرة أخرى وفى البقعة المنعزلة التى يعمرها «عم خليل » بفأسه وقلبه وزوجته وبنيه .

لم تكن الأسرة ملتفة حول واحد من أفرادها وإنما كانت ملتفة حول بقرة !!

نحن لا نرثى للحيوان يلبح فى ظروف عادية ولكن ما بالنا نرثى له حين يتدخل السكين ليحول بينه وبين ما يقاسيه من ألم ؟. والموت نهاية طبيعية لكل حياة ، بل لعله ليس نهاية وإنما هو مرحلة غريبة علينا تأخذ وضعها فى هذه السلسلة التى نظمها المبدع الأعظم ، ولن يغير الموقف شيئاً أنه « مرحلة » أو « نهاية » فهو محزن على كل حال . ويتضاعف إيلاؤه للأحياء إذا تداخلت إرادة الإنسان فى ميقاته فنحن نألم للمتتحر والمشتوق كما نألم للحيوان حين يتدخل السكين واضعاً حدا لما يقاسيه من ألم !!

وقفت بقرة « عم خليل » أمام الحظيرة غير مشدودة إلى وتد لأن المرض قد قيدها حيث كانت واقفة . وكانت تدور حول نفسها أحيانا كما كنا ندور فى المحارات ونحن صغار باسطين أذرعنا حتى تدور بنا الأرض . كانت تدور

وتخور خوارا معبرا . فلاتعجب للذين يستبكون العيون حين يصفون مآلهم لأن الأثم ينطق الحيوان ١١ وكما نتقلب على فرشنا من جنب لجنب كانت المسكينة تتقزز فى مرقدها إذا ماأتعبها الوقوف فلجأت إلى الأرض ، ثم ترمى بعنقها مطروحا رميا يفهمك معنى التهالك راجعة به إلى الوراء حتى ترى عقد الزور واضحة تحت جلدها المشدود متطلعة بعينيها إلى لا شئ ، لأن سوادهما أصبح مفعما بشكوى صامتة . وقليل ماكانت ترنو إلى بنتها المربوطة على بعد معبرة عن الحنان الذى تبذره الطبيعة فى قلوب الحيوان والإنسان على السواء .

كان « عم خليل » متأكدا من أنه سيفقد بقرة ، ولذلك فإنه أرسل إلى العزية حيث استحضر جزارا رضى على مقربة منها بسكين ، وفقدان بقرة عند فلاح صغير جزء من الشكل ، وحادثة تتلقى فيها التعازى . ولكن ذلك الذى عرفناه صبورا كان يفلت حبات سبخته من بين أنامله سريعا فى حركة عصبية ، فإنها كانت تدنو منها لتمسح جسما بين أونة وأخرى فتنظر البقرة إليها كأنها تعتذر إليها عن الدر الذى أنضبه المرض فى حزن وأسف . حتى إذا ماعجزت عن الحركة وتوسدت الأرض غابت عنها الفتاة كمن يفر من رؤية ظل الفناء على وجه شخص عزيز . واشتد شحيجها ، وانتفخ بطنها ودمعت عينها وغرب السواد إلى جانبيهما وحل محله بياض متوقد أحمر . وسال المخاط من فمها غزيرا واضطرب خيشومها لشدة التنفس ، وبدأت حلقات زورها تختلج تحت جلد الرقبة السفلى ، وهى ملقاة على الأرض ، ووقف « البسطامى » الصغير ينظر آية الموت فى مخلوق كبير وغرقت ملامحه فى العجب ، أما الأم فقد كانت منزوية عند الفرن ناكسة طرحتها على وجهها تعد الحصى وعبرتها تسيل . كانت تعلم أن مغزى هذا الحادث هو انقطاع اللبن من البيت وهو الغذاء الأساسى ومعناه أيضا عدم الذهاب إلى السوق بالزبد

والجبن والعودة بالنقود .

وبلغ الألم ذروته فلم تعد البقرة لتحتمل جديدا فهزت عنقها وحولت عينيها المكدودتين إلى صاحبهما كأنها تقول : أيها الإنسان ألا تملك من أجلى شيئا !! ولعلها لم تكن تعلم أن الخلاص فى يد الجزار !! فأوما « عم خليل » إليه أن حانت الساعة . فوثب القدر من هذه الإيماة ، فخطا الرجل إليها خطوتين حتى وقف عند رأسها من الخلف .. وانقضت ثوان ولت بعدها الألام غير راجعة !

كانت هناك عدة دجاجات تحوم فى المكان بعضها ينقر فى دمهـا وبعضها ينقر خيشومها . أما البقرة الصغيرة المربوطة على قرب فإنها كانت تنظر فى بلاهة بهيمية عجماء عجيبة ، وهى مادة عنقها شاخصة ببصرها إلى الأم . وأما « البسطامى » فقد بكى ، أما أبوه فقد كان ينقل بصره بين شبح ابنه وهيكـل الذبيحة ويحرك السبحة بين أنامله وهو يتمتم قارئا : « وفديناه بذبح عظيم » ، ثم اتجهت عناية الأسرة بعد ذلك إلى البقرة الصغيرة التى ورثت عن أمها مرعى وحظيرة !!

— ٥ —

آيات التفكير بادية على وجهها طوال النهار .

حركاتها كثيرة تبذلها فى أعمال قليلة ذكرتنى فيها بأى التى كانت فريسة للأمراض . لكن حنانها اليوم دافق عذب : نادتنى مرة بقولها : يا بنى. وهتفت مرة أخرى قائلة : حبيبى . وقدمت لى وقت الغداء فى ذلك اليوم الذى لم أذهب فيه إلى المدرسة وكنا فى شهر أبريل ، شريحة من اللحم طهتها بعناية فأكلت حتى امتلأت للمرة الأولى منذ سنين . أما العشاء فقد كان مختلف الألوان : جبن وزيتون وعسل وقطعة من الزبد وصنف من الفاكهه

كانتها كانت وليمة !! قلت فى نفسى : سبحان مغير الأحوال ، لكنها أمى على كل حال والأم من طبعها أن تحنر . الأصل فى وضعها السلام لا الحرب ، وعسى أن تكون قد وضعت أوزارها مع ابتسام الربيع !!
وأمسى المساء فرأيتها كثيرة الطواف من حولى ، واستأثرت بانتباهى طاقة عصبية شديدة طغت على وجهها وبعثت حركتها فى كل صوب : عند النافذة ، وفوق السرير ، وفى المطبخ ، والمدخل ، كأنها نحلة خشبية يلهبها صبى بكرابها حتى استقر بها القلق آخر الأمر عند الشباك خلف الزجاج المقل تنظر إلى الظلام فى الخارج مرتفقة حافة الشباك . ثم نادتنى فجأة .. وكنت غيرمقل إليها ببالى :

-مختار.

قلت :

- نعم .

فقلت برقة :

-دع كتابك الآن قليلا ، وتعال إلى .

وما إن جلست تجاهها حتى رأيت على وجهها دلائل الحاجة . شعرت من فورى أن أمى ستقصدنى لشيء وستفضى إلى بهم خطير . قلت بينى وبين نفسى : ذاك إنذار بخلو الوفاض من المال من غيرشك . قطعاً هو الإنذار المعتاد الذى تبلغنيه كل عدة أشهر قاصدة به إيقاظ نفسى وتسجيل فضلها على ، ولكن ماذا أعمل !! أنا مستعد أن أشغل أى عمل بشرط أن يدبر لى ولو كان من الوظائف التى تمسك الرمق وتحقق القوت وتغنى عن السؤال فحسب ثم يغتنى بالتالى عن اللقمة المسمومة التى أغمسها فى أدام هو من تدبير يديها !! ألا ليتها تريحنى !!

- مختار ..

قلت :

— نعم يا أماء .

فسألت كأنها طفلة :

— هل تحب أمك ؟

فكدت أبكى ١١ رأيت السؤال تافها قد تنافى منطوقه مع جلال
الأمومة فى قلبى ، ورأيت مرة أخرى غير ذى موضوع وماكان ينبغي أن
يوجه إلى ابن ، ولكنى أرضيتها فأجبت :

— إذا كان حولى فى دنياى من أستطيع أن أختصه بقلبى فدلينى عليه .
فبدأت تبلع ريقا كاد ينضب بل ولعلها أدركت أن هذا الصندوق المقفل
الذى لم تحاول مرة من المرات أن تطلع على مافيه — فيه شىء كثير لقفته
الأحداث إياه فتعلمه بلا معلم وإن كان فاشلا فى المدرسة ١١ ثم لعل أحداث
الحب التى كنا نتساقاها أنا و« سكينه » أرشدتنى إلى طريقة الكلام فى
مواقف العواطف .. دلتنى على الاتجاه فحسب لأن النوعين مختلفان . وطال
سكونها فترة معقولة استأنفت بعدها الحديث :

— هذا جميل . ويظهر أنك ولد طيب .. ابن حلال .. لم تفقد استعدادك
لفهم الحوادث والخضوع لأحكامها إذا لم يكن هنالك بد .
وسكتت مرة أخرى متوقعة أن أسأل أوأعلق ، لكننى قابلت صحتها
بالصمت . وبدأت جدية الموقعة تتجلى فى العيون . قالت :

— وأنت تعلم مدى حيلتى فى تدبير المعيشة وكيف أن البقية الباقية من
حلى طافت بكل بنوك الرهون وكيف أن مجال الدراسة طويل أمامك .

فهززت رأسى لها هزات سريعة مشيرا عليها أن تعجل بالنهاية ، لكنها
أمسكت عن الكلام ثم عادت فنظرت إلى ، وبدت فى هذه اللحظة أكثر
اضطرابا مما مضى حتى كدت أحس رعشة شفتيها فلم يسعنى إلا أن أعمل

ما أجبرها به على أن تتشجع . فحولت وجهي ونظرت من فوق كتفي إلى الصورة الزيتية المعلقة على الحائط فوق مجلسي قماما من منضدة الدرس . نظرت إلى صورة أبي ثم نظرت إلى أمي كما يفعل المتفقدون في العاطفة بعد أن يهيلوا التراب على عزيز . لكن بوادر الغضب هبت على طبعها لعلها عادت فتذكرت أنها في حاجة ماسة إلى بقاء الجو بيننا على صفاته والريح على سكونها ، فضبطت زمام نفسها وتنهدت قائلة :

- يبدو أنك تنظر للموضوع من زاوية واحدة فحسب . أنا مستعدة أن أبذل لك كل مايرضيك في الحياة الجديدة التي يشاركنا فيه رجل طيب ، لأن الضمان سيكون متوفرا لدى فسألته مطرقا :

- هل من حقى أن أعرف من هو ؟

ف قالت وهى تدارى خجلها بتقطيب من وجهها الناظر إلى البحر :

- انت تعرفه .. رجل طيب . هادىء مسالم .. يحبك ويحترمك .

مدرس فى ابتدائى وسيقيم معنا بعد انتهاء الموضوع .

فسألته :

- وهل ينتظر موافقتى ؟

فاعتدلت على الكرسي ومندت جسدها مستوفزة كأنها ملأها الشر ، حتى خيل إلى أننى أرى هرة قد وقف شعر جسدها بكل شعرة فيه ، ثم أتانى صوتها المختلج يقول :

- سيقم معنا بعد انتهاء الموضوع . هذا هو ما قلته لك بالحرف الواحد.

أدرت الكلام فى فكرى وإن لم يكن محتاجا إلى إدارة ، وأحسست أن شيئا ما يهبط على قلبى ويغمر جسدى ووجدت نفسى إزاء أحد أمرين لامحيد عنه ولا محيص : إما تشجيع وإما بكاء . فأثرت أن أتشجع ، وناديت قواى جميعا لكى أقول لأمي وأنا أنهض متحولا عن مكانى :

— « خلاص .. مبارك !! »

لكنها ضغطت بكفيها على كتفى حتى أبقى حيث أنا ثم تشنجت ملامحها وأجهشت بالبكاء ، على حين جعلت أنا أنظر فى كل فج محاولا تفهم الموقف ، ولم ألبث أن أحسست خفق الحنان فسألتها فى هدوء :

— وفيم البكاء الآن ؟ ألم ينته كل شيء ؟

فنبئت كبرياؤها من خلال الدموع كما كانت تفعل مع أبى فى سالف الأيام وقالت بإصرار المتأكدين :

— ليست هذه أول حادثة من نوعها على الأرض . كلهن يفعلن ذلك ولا يفعل ذلك إلا اللاتي يخفن على شرفهن .

فأوحت إلى هذه العبارات بنقيضها المؤلم ، حتى خلت أن أمام عيني ميزانا تتأرجح كفتاه بشيئين يكادان يتعادلان وإنه من المحتم أن أختار ما فى إحدى الكفتين . فنظرت إليها والغضب يلقى على المراثيات لونا داكنا فظيما حتى إذا ما وقع بصرى على صدرها تذكرت طفلا انكب عليه عامين مستمدا منه الحياة .

فزائلت مجلسى فى قنوط وصمت وارتديت ملابسى فى سكون مطبق ألقى بجرانه على الغرفة حتى أضت أشبه بالقبر ، ثم صفقت الباب ورائى بعنف كاد يحطم البلور إلى حيث سرت أنقل خطواتى على البحر ويدى معقودتان إلى خلفى . ورأسى ناكس وعيناي تسبقان مواقع أقدامى ، والخطاير تجرى حارة متدفقة سريعة لا يجمعها سلك ولا ينظمها منطق كأنها هى رأس محموم !!

وفى الصباح التالى رأيتنى أنظر إلى المصاب على أنه أمر واقع ، وعلى أن دمعة واحدة تراق على فراق مثل هذه السيدة إنما هى نوع من الإسراف لا ينبغى أن يكون . ومر يوم ويوم وكانت إحدى الأمسيات فجلست

حيث كانت فى المرة السابقة وكنت أنا فى مجلسى لأن الامتحان قريب .
فتنحنت عدة مرات أدركت فيها أنها ستستأنف القضية ، فنظرت فإذا بها
تقول وعيناها فى غير اتجاهى :

ـ هل عندك الليلة استعداد للتحديث فى نفس الموضوع ؟

قلت على الفور ولكن بمذلة :

ـ أليس من الممكن أرجاؤه سنة واحدة حتى نرى ما إذا كان فى مقدورى
أن أحصل على شهادة الكفاءة ؟

فهزت رأسها معلنة أنها لم تفهم ما أريد ، فاستطردت موضحا :

ـ أقصد أنه إذا وفقت فى نبيل الكفاءة استطعنا بها أن نستغنى عن
تطلب العائل .

فشرعت ابتسامة صفراء تولد على فمها رويدا فلما تكاملت نطقت بعدم
ثقتها بجهودى . فتضائلت فى مجلسى حتى خلت المنضدة أطول قامة منى
ولمت نفسى على تذلل لم ينتج سوى الذلل . ثم ران عليها صمت جديد . ثم
قالت أوى وهى تنقر بسبابتها على حافة الشباك .

ـ أنت لاتعرفه . إنه رجل طيب « عباس أفندى » مدرس الابتدائى
الذى وافقت على عرضه لأننى رأيت فيه شريكا لا يتعب أحدا . ما بالك
هكذا لا ترد بكلمة ؟ من زمان وأنت عنيد لكن هل تظن أن عنادك هذا يغير
الموقف ؟

ثم نهضت من فورها آخذة طريقها إلى المخدع .

أكسبتنى بقولها هذا عاملا جديدا من عوامل الشرود وأضافت بلبالا
إلى بلبالى . غير أنى أصبحت فى مرحلة من إرهاب الحس وضعف النفس
تغلبت فيها على الآلام ، فقد صرت فى شبه ذهول .

وهبت على روائع الصيف قابضة مخيفة تذكرنى بالمتاعب ، وبدأت حركة التحول تدب فى ركود البيت بحلول الخدامة « وهبة » حلولا دائما بإذن الله . جاءت قبل سيدها لتخدم سيدتها ، أما القديمة التى فى « دمنهور » فلعل زوجها أهدى إليها خادما أخرى أو لعل إحدى بناتها ستتولى مرافق البيت .

وبيضت الشقة واختير لغرفة « نومنا » لون جديد مناسب وغسلت الأبواب وصقل زجاج النوافذ حتى نافذة المطبخ التى تراكم عليها هباب السنين واطمأنت فى ركنها العنكبوت . ولجأت بعض الحفة وحشايها واستبدلت ستائر بستائر وقرش فى حجرة نومنا بساط جديد أحمر ، وكان الإصلاح منصبا فى الغالب على حجرة النوم وعلى الملابس التى ستظهر بها « أم مختار » . أما بقية البيت فإن حظه من الإصلاح شكلى رخيص على هامش النفقات .

أحسست أن حالى آخذة فى التبدل وأصبح هدوئى الشارد وطبعى البلبد أقرب إلى العصبية حتى لحظت سكينه ذلك فى زوراتى المتباعدة . جعلت أنظر إلى الأرض على أنها دار ظلم وطغيان ليس فيها مجال للرحمة ولا مكان للتعاون . وكدت أعتقد أن الرحمة صدقة وأن الصدقة ليس لها إلا « اليد السفلى » واليد السفلى لمخلوق ضعيف ، والضعيف ليس له فى الزحام موضع . وارتحت إلى هذه الخواطر المزعجة لأنها احتلت آخر موقع فى قلبى كان يكمن فيه حسن الظن بالناس . فأصبحت أوقاتى موزعة بين الشاطيء والحقول . وبعدت فى جولائى عن جنة عم خليل بمسافات طويلة حتى أدى بى الطواف إلى أرض تخالف فى طبيعتها الرقعة الخصبة السخية . كانت سبخة بخيلة لا تجود إلا بالإلحاح ، مزقتها مصارف التصفية كل ممزق وانكب فيها الفلاحون انكباب المحرومين يكادون يستحلفونها أن تنبت .

واتسقت هذه المناظر الجديدة مع تلكم الخواطر الجديدة فكانت إطارا مشوها
غير جميل لصورة تافهة قبيحة .

وآثرت ألا أَدع منضدة الدرس فى حجرة نومنا القديمة فنقلتها بنفسى
فى حجرة أخرى لأن المناظر من حولى كانت تثير فى قلبى نوازع الشر
والبغض من كل مكن . وألقت الحجرة منسجمة فى كل ما تحتوى ، لونا
وأثانا وترتيا وزينة إلا فى نقطة واحدة كانت بين أرجائها بموضع المخافة من
البلد الحصين أو أشبه بالسوراس فى ليلة اللذة .. هذه هى الصورة المعلقة
على الحائط التى لا يزال خيالها منعكسا على المرأة . نظرت إليها وأنا أنقل
المنضدة من تحت فكذت أرى ملامحها شيخوخة وغيره بل خيل إلى أنها
تقول : بنى . أخرجنى من هنا من فضلك !! ولكننى لم أفعل .

وألحت روائح الصيف فى الهبوب قابضة مخيفة تذكرنى بالمتاعب .
ودخلت الامتحان ، ولكن دعنا الآن من النتيجة .. واقتريت عطلة الصيف
وقد بدأها عباس أفندى قبل أن يبدأها المدرسون . وحددت ليلة اللقاء أعنى
ليلة انتقاله إلى بيتنا السعيد فى الإسكندرية ، ولم يبق على ذلك سوى ليلة
واحدة . رأيت أمى يومئذ شديدة الاضطراب يبدو عليها أنها مهتسة وكانت
كثيرة الجولان فى البيت كطبعها حين تعانى ثورة داخلية ، دخلت عليها
المطبخ على حين بفتة فرأيتها تبكى أمام موقد الجاز وكانت وهيبة فى الخارج ،
فعجبت . ثم أمسى المساء فدعتنى إلى حجرتنا التى ستستقل بها بعد ليلة
واحدة . فدخلت . وكانت فى مكانها المألوف بجوار النافذة وهناك نسمات
وانيات تلمس بأناملها حواشي ستار وردى جديد يرفرف أمام الزجاج . وفى
سماء الحجرة مصباحان أحدهما عادى والثانى ركب ليسهر على النائمى .
كانت شديدة الجهامة حين دخلت عليها تنطق أسرارها بالعنف والتصميم
فتذكرت بكاءها فى المطبخ فأدركت أنه كان غبار المعركة الأخيرة بينها وبين

نفسها المنقسمة ، وأن عناصر الشر تغلبت بعد لحظة الموت التى مرت
بعناصر الخير فى نفس العروس قالت آمرة :

— اجلس .

فقلت مسالما :

— إننى مشغول .

فقال بسرعة :

— إنه خلاف مبكر ، إذن فماذا عسى أن تكون ادخرتك للمستقبل

الطويل !

فجلست بحركة آلية كأنما ضغطنى الكلام . ومرت فترة صمت كأنها دهر

قالت بعدها :

— بعد الليلة المقبلة سيكون عددنا فى البيت أربع أنفس ، هل ترى من

الضرورى أن أعد لك الأشخاص ؟!

فهزئت رأسى مؤمنا إليها بأنه لاداعى ، ثم نظرت نحو الأرض وساد

الصمت مرة أخرى وكان أشبه بصوت الفناء . ولم يجد أحد منها حيلة لأن

يصل جبل الحديث فرأت أم مختار أن الأحجى بها أن تقول وهى تنظر إلى :

— خلاص !!

فقممت أتعثر فى كل ما فى طريقى وضلت يدي أكرة الباب لأن الدم كان

فى عروقى شديد الحرارة وأكاد أجزم أن هذه الخطوات التى خطوتها خارجا

من الغرفة كانت آخر عهدى بما فيها حتى آخر الحياة ، فإننى لم ألج بابها بعد

ذلك .

قضيت فى غرفتى ساعة من الزمن حاملا رأسى بين كفى معتمدا

بذراعى على متضدتى ناظرا من خلال الدموع إلى صفحة الكراسى المبسوطة

التي تتراقص فيها الكلمات وتتعانق فيها السطور . فلما أفقت رأيت

الدموع وقد أتلقت كتابة الصفحة فقامت آخذاً سمتى إلى دورة المياه لأصب على رأسى ماء بارداً فالتقيت بأمر مختار وجهها لوجه وهى خارجة من حجرتها قاصدة حجرة الضيوف تهوول وهى تجتاز الصالة فى ثوب من الحرير طويل أخفى من عمرها عشر سنين . وكانت غير متسقة الحركات كأنها تهم بعمل غير عادى . فلما عثر بها بصرى ألفتها تحمل الصورة .. صورة الرجل الذى لم يعد لها فيه من أرب ، بل أمسى مما يعد فى العورات التى لا يحسن أن تقع عليها النواظر ، وفهمت ما الذى تعنيه ، وسمعتها فى عودتى من المغتسل تدق فى الحائط مسماراً لتعلقها فيه ، فانتابنى شعور مبهم لم أتبين فيه راحة ولا ألماً . لأننى ما كنت لأرضى أن تبقى صورة أبى فى أرض أصبحت غريبة ، وماكنت لأرتاح لمراها وهى تجلى عن عرش كان لصاحبها فيه ذكريات أى ذكريات



وتأهب بيتنا فى الإسكندرية تأهباً هادئاً لا يخلو من الحركة لاستقبال « عباس أفندى » الذى يصل اليوم فى قطار الظهر ليقم عندنا إلى ما شاء الله ، وكانت « زينب » بهية الزينة فائضة الفتنة مريحة سعيدة ، لأنها رأت ثمرة جهادها الطافر . وكان هناك لحم وفطائر وعطر وزهر ولهب وبهجة ، وأشياء أخرى ولكنى لم أشأ أن أراها ففرت لأننى أيقنت أن قلبى لن يقوى على احتمالها كما لا تقوى قلوبنا على رؤية عزيز يجهزونه للدفن . ففرت إلى العزبة بعد ارتفاع الضحى . ولعلنى كنت بادى التعاسة إلى حد أن عم خليل سألنى عما بى فأجبت بآننى مريض من الجهد ، الذى ينوبنى بعد فراغى من الامتحان والاستعداد للامتحان . فصدق الرجل الطيب ، ودعا لى بالعافية . ولم ألبث طويلاً حتى استأذنت منه فى رحلة قصيرة بين الحقول . ثم سرت أضرب على غير هدى أنظر الدنيا بعينى شاب بدأ يفهم الورطة ، وإن

لم يبلغ بعد مبلغ الذين يوفقون إلى الحلول ، والتقيت بسكينة عائدة من العزبة تحمل على رأسها فى طرف الطرحة بعض مطالب البيت التى تشرى عادة من البدالين . وبلغ بى الشroud حد أننى كدت أمر فلا أراها ولا أحس أنها تبسم لى ، فاستوقفتنى بضحكة جميلة كانت بين أحزاني أشبه بالزهرة البرية فى زمرة الشوك على التربة . فلما أفقت بادهنتى تسأل وهى تحملق فى وجهى مشفقة ذكرتني الشفقة المفقودة فأثارت فى قلبى الأشجان . كانت تقول :

— أخى .. ماذا بك ؟

فتخلى عنى جلدى البليد ، واعترضت فى حلقي الفضة وتندت مقلتاى بالدموع ، فإذا بسكينة تسبقنى إلى ما كنت أحاول ألا أتورط فيه ، فتخلى السبيل لدمعتين كبيرتين التقتا على ذقنها من أسفل .

وخفت عنى دموعها بأكثر مما تخفف عنى دموعى ، فما أتفه هذه الحياة !! تلك التى تعيد اعتبارها المفقود إلى قلوبنا دمة يبذلها من أجلنا إنسان !! أجل ما أتفنها !! وأجبت سكينة جدا فى هذه اللحظة ، ولعلنى أقصد أن أقول : إننى أحببت الحياة وهممت أن أقدم على «عمل» . لكنها تلفتت على الطريق الخالى وقالت لى عيناها الصافيتان الصريحتان : لا تشوه جمال المنظر .. « ولو أن الطريق كان مقفرا » ، ثم أشرقت بسمتها من خلال جونا المعتم ، كما تتفتح الزهرة فى قر الشتاء : ثم سألتنى فى حنان مرة أخرى :

— إلى أين تقصد ؟

قلت :

— إلى نزهة قصيرة .

فاستطردت راجية :

— هل من الممكن الآن أن أعلم ما بك .. أمرض أنت ؟
ولم يكن هناك مناص من الإجابة . فلما قلت : لا . هزت رأسها
مستفهمة عن العلة وهى تستأنف السير فى طريقها إلى البيت ، فسرت
بجوارها وأنا أقول لها :

— لست أنا مريضا ياسكينة ، بل هى أمى المريضة .

فقلت :

— لا بأس عليها . ماذا يؤلمها ؟

فأجبته :

— قلبها !!

فعادت تسأل فى اهتمام :

— جدا ؟

قلت :

— جدا .

قالت :

— ليشفها الله !!

ولكن الدعاء كان أوانه قد فات !!

وطرقت باب شقتنا فى الإسكندرية قبل منتصف الليل بقليل طرقة
رجل يحس وحشة الغربة وهو فى وطنه ، وكنت مشتاقا إلى معرفة من
سيفتح ، ثم مالبث المصراع أن انفرج عن وجه وهيبة التى قامت تتعثر وتكاد
تصطدم بكل ما فى طريقها من أثر النوم والجهد طول النهار ، ثم تركتنى أعيد
إقفال الباب ، وفرت نحو مضجعها فى المطبخ قبل أن تدب فى نومها
اليقظة ، ثم دخلت أنا إلى غرفة نوم جديدة .

خيل إلى ليلتذاك أن بيتنا مزدحم بالناس ، وأن رجالا غرباء كثيرين

يتمددون فى كل شبر فيه . وكان الظلام مطبقا على كل حجراته إلا واحدة منها ، لكنتنى على الرغم من إحساسى بزحمته أحسست كذلك معنى يتنافى مع الزحمة .. أحسست سكونا ووحشة وخلاء ، حتى لكان الدنيا لم يعد فيها ديار ولانا فغ نار ، وانتبهت إلى المنبه يدق ، وسرت دقاته المعدنية فى هجعة الليل ، فشعرت كأنى أحسها للمرة الأولى .. وأدركت معنى المسؤولية التى حملتها هذه الأداة .. أدركت أنها مسئولة عن يقظتى ورقادى منذ هذه الليلة . وخلعت ثيابى مجهدا متهاكاً أرمى بكل قطعة فى ركن ، لأنى متلهف إلى أن أنام .

كنت مرهق الجسم ملتهب القدمين موجع الظهر مهبض القلب مشغن العواطف بجراح بليغة ، وكنت فوق ذلك كله أريد أن أنام ، فلما تمددت على الفرش الجديد جعلت أفكر فى الفراش الجديد ، فطار النوم عن أجفانى وحل محله أرق ساهر ، أدارت يده مغزل الأفكار حتى مد فى خيوط الهموم فتمنيت أشياء كثيرة ربما كان هديان المحمومين أدنى منها إلى دنيا الحقائق ؛ وكان أطرف ماتمنيت فى هذا الظلام أن يتخاصم كل زوجين على رقعة الأرض ، فيدير كل ظهره للآخر ، فيختلف الشريكان ويتناقر القلبان ، وتسرى العداوة والبغضاء بين الذكر والأنثى ، وقنيت أن يبقى التدابر والتقاطع بعد ذلك إلى ما شاء الله ، حتى تهلك الأرض بالفناء البطيء .

ثم ابتسمت من طرافة الأفكار وقدرتى على الابتكار ، وأعدت فحصى الموضوع فأيقنت أن الجزع غير مفيد ، وأن الذى وقع قد وقع وانتهى كل شيء . فشرعت أتملق النوم ، وبذلت فى هذه الغاية كل تجربة وصل إليها المؤرقون فى ليلة ما ، ثم قصوا خبرها على الناس : احتلت عليه بإعراضى عنه كما أشاروا ، فما زاد النوم إلا إعراضا . ثم أسبلت أجفانى وتهايت له ، ولكن طائرته لج فى النفور فتصورت - وهذا غريب - أننى واقف على باب حظيرة

أدخل وزا لا ينتهى عدده ، يؤلف سربا طويلا يتهادى نحو الباب ، بحيث تتبع البيضاء منه وزه سوداء ، وتتبع السوداء منه زه بيضاء ، وهكذا ١١ ولكن فشلت الحيلة . ثم نشبت بينى وبين الأفكار معركة جديدة ، لأدرى كيف انتهت بالنوم .

وعند ارتفاع الضحى طرقت وهيبه باب غرفتى ، فلما أذنت لها بالدخول قالت بعد تحية الصباح :

— هل يريد سيدى طعامه الآن ؟

فأومأت بالإيجاب . وخرجت بعدها إلى دورة المياه أتحنح كلما خطوت لأشعر من هناك بأننى هنا ١١ وكان بدافع من الفطرة . على أننى كنت مشغولا بتدبر « تسويد » وهيبه لشخص مثلى ، تقول له « سيدى » فما أعجب ذلك ؟ عبيد يسودون عبيدا وكلهم أذلاء ١١ وكان الفطور شهيا سخيا ، لكننى نفرت من ألوانه إلا بما ألفت أن أطعمه كل صباح من جبن وفول ، فلم تطاوعنى نفسى أن أمد يدى إلى لون من الألوان التى دخلت بيتنا مع المناسبة السعيدة ، فلا تستسحف تصرفى يا صديقى لأنها الأنفة ، وإن الأحداث التى تهزم ضعفنا بقوتها ، لاتستطيع أن تقبل فيها الأنفة بسهولة حتى ولو كنا فى الحضيض .

لم ألتق مع أحدهما لعدة أيام ، وطبيعى كذلك أننى لم أجلس معهما إلى مائدة لأن الطعام كان يدخل إليهما فى المخدع شأن كثير من الناس فى شهر العسل . ولم أكن أعنى مطلقا أن تلتقى نظراتى بنظرات أحد العروسين ، بل كنت مهتما بهذا المأزق أفكر فيه بغم شديد ، وإن كان كالموت لامفر منه ولامحيص . وقد طالما ساءلت نفسى كلما لج بى الفكر عن التحية التى ينبغى أن أحىي بها إذا ما حم اللقاء . لكن أم مختار طرقت على الباب فى ضحى أظنه الخامس وأطلت من الفرجة قائلة بلهجة مرتبة سريعة :

- هيه .. صباح الخير . هل تريد شيئاً ؟
ولم تعطينى فرصة للرد لأنها ردت الباب وتراجعت إلى الصالة حيث
سمعت صوتها العالي يهتف :

- اذهبي فانظري ماذا يريد سيدك الصغير يا وهيبة .
كنت أريد أن ارتاح من هذا العناء الذى ابتلتنى به الأيام ولكن الأيام
كانت تقذف بى من محنة إلى محنة وتنصب فى طريقى عثرات كانت جديرة
بجبل كامل . وإلا فمن أين جئنا عباس أفندى هذا ؟ ولماذا عن له فى سنته
تلك أن يقفل باب من جديد على زوجة حسناء ويرقب السماء مرة أخرى عسى
أن يمن الله عليه بغلام ؟ أو أين كانت زينب قبل هذه السنوات ؟ ولماذا طفت
على صفحة وجودنا على هذه الصورة واستولت على أمى كل هذا الاستيلاء ؟
كل ذلك كنت أنا المقصود به فالخير الذى فى طياته لم يصبنى منه رشاش
وإنما أصابنى الشر وحده . انصبت على سياطه وأطبق على قتامة وتظاهرت
قوة الأقدار على مخلوق منهار ضعيف فهل تتصور ؟
فى البيت ..

حجرتان متقابلتان إحدهما إلى اليمين يسكنها أمن وسكون ولذة ودعة
وأحلام وراحة وثقة بالمستقبل . والأخرى إلى اليسار فيها فرد غير ساكن
يكاد القلق الذى تغلغل فى قلبه يسرى إلى تلافيف حشاه وإن بدا هادئ.
النفس ساكن الريح !!
وفى المدرسة .

أذهب فى إحدى الضحوات فأرى الورقة البيضاء معلقة على السبورة
السوداء ، وأطالع الأسماء فأخرج جارا ذبول الخيبة مستشعرا أن كل ما بينى
وبين النجاح قد تقطعت أسبابه فلا أمل ولا رجاء . ثم تمضى فترة أسف
قصيرة المدى أهنى نفسى بعدها بأنى من الذين سيدخلون الملحق !! ولم لا

أهنىء نفسى وهنالك طائفة من التلاميذ ستحرم من دخول هذا الامتحان ؟ ثم انطوى على همى عدة أيام لأصارع أمى فيها بشىء . على أنه خيل إلى فى كثير من اللحظات أن نظراتها تسألنى . ولعلها كانت حريصة فى شهر غسلها على أن تتجنب مأسى الناس حتى ولو كانت مأساة ابنها ، ومن يدرى ؟ لعلها فلسفت موقفها بعد ذلك وصبت فى قالب أفلاطونى بديع فقالت بينها وبين نفسها : إننى الآن حرة . إن لى شريكا من حقه على أن يرى منى كل مايسر ، إذن فلا داعى أن أنقص عليه راحته ولا أن أقطع عليه أحلامه !! ربما قالت أم مختار بينها وبين نفسها شيئا من هذا ففتحت لنفسها أبواب الملذات وهى مختبئة وراء غيرها من الناس .

وكانت طوال هذه الفترة أشبه ماتكون بعربة الترمس فى يوم صيف شديد قانظ . ولعلك تدرك الآن ما الذى أعنيه . لم تقع عينى مرة واحدة على شبحها فرأيتها « جافة » من الماء بل كانت على الدوام « مبلولة » فذكرتنى بعربة الترمس التى لا يكف صاحبها عن صب الماء عليها لحظة وإلا فقدت بهجتها فى العيون !! وأنى لى بعد ذلك أن أثبت هذه المرأة شيئا من متاعبى وآلامى ؟! إن آلامنا عزيزة علينا نتخير لها المكان الذى نحفظها فيه . حقيقة إننا نكره الآلام ونرجو أبدا أن نتخلص منها ولكننا لانتشرها بين يدى كل إنسان .

وقد عرفت الآن ماذا فى بيتنا . وماذا فى المدرسة . أما عزبة خورشيد فقد كان فيها وحشة وسكون أكثر من المألوف : الحقول نائمة والأشجار مطرقة والنخل ساجى السعف والطير محسكة عن التفريد والماء متعدد فى الأخاديد راقد لا يتحرك كأنه مكدود . هذا هو مارأيتى وحدى دون خلق الله جميعا لأن سكينته كانت غائبة . كانت هنالك فى مركز الدلنجات عند أختها العدوية ولعلها يوم سافرت لم تشعر أنها تركتنى « وحدى » وأن وحشة

كبرى أناخت على الدنيا كتلك التى تنيخ على الطفل فى الحجرة ساعة تخرج أمه لقضاء أمر وتأخذ المصباح فيسودها ظلام . أجل ، لعلها يوم سافرت لم تحس أننى « وحدى » !! وترددت على العزبة على الرغم من غيابها حتى لاأفتح طريق الشكوك أمام أسرة عم خليل . تلك التى كان الحب طابعها والبراءة أجلى صفاتها ، والتى لم تعد تطيق أن أغيب عنهم بعد هذه العشرة الطويلة .

وامتد بقاء سكينه عند أختها ثلاثة أسابيع لأن بها ضعفا من آثار الولادة يستلزم إقامة الأخت حتى يزول ثم تعود .. ولست بحاجة إلى أن أقول لك : إن الشمس لم تشرق على الدنيا إلا منذ عودتها ، ولا أن أقول : إن عيوننا تفاهمت على أن الفرقة شئ فطيع لسننا ندرى كيف يحتمله الناس إذا ما رمتهم به الأيام . ثم تنهدنا معا لأننا لم نكن على انفراد متفقين بما بعشنا من زفرة على أن نترك المصير لمن بيده كل مصير .

- ٦ -

خففت عنى الأيام من لأوائها شيئا ما هذا الخريف ، لأننى نجحت فى الامتحان ونقلت إلى السنة الثالثة . على أن مرافقى قد دب فيها الفساد حتى أحسست كأننى محصور يكاد زاده ينفد فيمسى مهددا بالموت .

وفجوى ذلك أننى سمعت همسا سرى مع نسيم الأصيل إلى أذن من فم زوجة عم خليل « مؤداه أن سكينه على وشك أن تخطب ، لأن الأيام التى قضتها عند العذوية فى الدلنجات تمخضت عن إعجاب أحد الشبان بها وهو من أقارب صهرهم القديم . ثم علقت الأم على خبرها بنفسها بعد أن صمتت برهة وبدأت تعمل المخرطة فى أوراق الملوخية التى فرغت من قطعها .

علقت قائلة :

— إن سكرة جديرة بكل سعادة . بنت حلال . عجل الله لها بالخير !!
ما كان أشبهها وهى تدعو لها بإنسان يدعو لأحد الأبناء بأن يرث مال
أبيه بعد بضعة أيام ، لأن معنى هذا الدعاء أن يفقد الابن أباه فى فرصة
قريبة . خير مغلف بالشر ، أو شر مغلف بالخير ، ونعمة فى طى نقمة . إن
أم سكيئة كانت تبتهل إلى الله فى ذلك الأصيل وهى لاتشعر — بأن يشئت
شعلى وينثر دمعى ويقوض حصنى ويجعل ما بينى وبين الناس خرابا يبابا لا
أثر فيه لحب ولا رحمة !!

ولما تدبرت الأمر لم أطق البقاء فى مزرعتهم تلك فهمت على وجهى بين
الحقول وفى الطرقات المتعرجة التى أحال ماء القيسان ترابها طينا ، وجعلت
أفكر فيما عسأى أن أفعل فدلتنى حيرتى واضطراب حالى على أن أتقدم
إلى عم خليل طالبا يد سكيئة ، وأمسكت الفكرة بتلابيبى فلم تعد تفلتنى
ثم طفقت أناقش الموضوع .

ما الذى يجرى إذا ما فعلتها ؟! ألسنا نطلب الوفاء والحب والإخلاص
ومعانى الرضا والألفة ؟! أليس ذلك خيرا من ندم مقبل وبكاء بعد فوات
الأوان !! ماذا بقى للزوجة بعد ذلك من صفات محبوبة ؟! يقولون : الأصل
والمحتد !! نعم يقولون ذلك ! ألايتهم يفسرون لى هذه الأحجية فإننى عاجز
عن فهمها !!

وجلس القرفصاء على أحد المضارف أرقب نبات البرنوف النامى فى
حوض الشط منحيا على مائه الأجن ثم استأنفت قضية الخطبة فى خاطرى
وتصورت حالتى وأنا أعرضها على أم مختار ثم تخيلت ذهولها ، فضحكت ،
ثم عدت فتخيلت سخريتها فبكيت !! وجففت دمعى بتدلىلى وجعلت أتسلى
بعد ذلك بإلقاء الحصى الصغير على صفحة الماء الراكد .

ساءلت سكيته فى الموضوع بعد ذلك بأيام فهمست إلى وقد ارتقت ظلال
أهدابها على وجهها المشبوب :

— لا .. كلام نسوان .. دعك من هذا .. لا تخلق لنفسك المتاعب .

ثم لم تنظر إلى بعد مقالها هذا ولعلها كانت تعلم حقيقة ما يضطرم به
قلبى ومايتقاذفنى من خواطر ، فلذ لى من بعدها أن أعيش فى المجهول
وأن أنفق من دراهمى المحدودة إنفاق إسراف وترفيه وأنا متغاض عن
النهاية . فضلا على أن عقارب الرية دبت فى كيانى من مقالة زوجة « عم
خليل » لأنى أعتبرها فى لحظة من لحظات حرصى على شخص « سكيته »
إيماء خفيفة أوحى بها قلب أم كى تهيب لبتها حياة زوجية .

ولعله يبدو لك أن تعود فتسألنى : إنك لم تبين حقيقة نيتك حبال
سكيته .. هل ترتضيها زوجة ؟ فأقول لك : إننى أراها خيرا منى . هل
تعرف من أنا ؟ أنا ابن أحد التجار القدامى المفلسين الذين ختموا حياتهم
سماسرة يعتصرون الجلود ويمسحون لغيرهم ضروع السوق . وابن أم ألت
على القوى حتى تهدم ولم تصبر على الضعيف حتى يقوى فلجأت آخر المطاف
إلى سوق السمسرة كما لجأ أبى من قبل حتى باعت بواسطة زينب فضلة
شبابها لرجل . هو رب أسرة !! أما أنا .. شخصيا فقد قصص عليك أمر
نفسى : إنسان لامواهب فيه ، تختطفه ربح من ربح وتهديه زوجة إلى
زوجة !! فكيف أرى سكيته أقل منى ؟ ليتنا جميعا نتدبر حقائق أنفسنا ؟
وخفت من بيتنا حدة الأفراح فى بدء العام الدراسى الذى انتقل فيه
« عمى » عباس أفندى إلى مدارس مدينتنا الكبيرة فأصبح من المقيمين على
أن يسافر عصر كل أربعاء إلى دمنهور ويعود مساء الجمعة . وقد تفضل
عليه الناظر فأخلاه من حصص يوم الخميس . وتلك خطة عادلة لجأ إليها
عباس أفندى بعد شهر واحد من زواجه وأقرتها أم مختار.

ثم أخذ الزمان يمشى فى طريقه المرسوم فتداركت الأيام وتتابع
الشهور ، وجدت أمور فى نطاق حياتنا واتضحت وأخذت أمور أخرى ترجع
وتتوارى ، وتلك هى سمة الحياة :

كان منها مايتعلق بالست زينب ، ومنها مايتعلق بالزوجين ، ومنها
مايتعلق بهيبة .

أما زينب فإنى صرت أذكر الحوت كلما رأيتها لأنها طويلة النفس
واسعة الجوف ، كل شىء فيها قوى حتى ولو كان ذنبا . نفت أم نعمات من
نطاق حياتنا فلم نعد نراها .. ثم ماذا ؟ ثم ابتلعت شخصية أم مختار
منفردة . ثم عادت فابتلعتها « مطبوخة » مع شخصية زوجها . أى أنها
تلوقتها مطهوة على ألوان كأنها طبخة سمك !! ومدلول هذا أنها سيطرت
على البيت ووضعت يدها على كل مشكلاته حتى ماكان منها متعلقا
بالزوجين .

أما العروسان القديان فقد أصبحا زوجين ، وخرجا إلى الحياة فلم يعد
طعامهما يدخل المخدع . وبدأت عربة الترمس تخف عنها البلولة كما بدا
لها فى كثير أن تظهر بمظهر المتشعبة بأذيال زوجها ، ولعل مرجع هذا إلى
ماضيها العاصف مع والدى الطيب . كنا نجلس إلى المائدة نحن الثلاثة فإذا
بأم مختار تنساق وراء عواطفها فتنتقى الطعام على مرأى منى وتقدمه
لعباس أفندى فما يكون منه إلا أن يقول : دعينى ، فكل شىء أمامى ، أو
يقول : هى لك هنيئا مريئا . كل ذلك وهو مكب على طبقه حتى يكاد ذقنه
يلمس حافة الإناء . ولكن أم مختار ينبوع الحنان الدافق لا يعجبها تصرف
الزوج ، فتسارع مقسمة عليه داعية على نفسها لتحرضه على الطعام :
« لاهضمها من أكلها غيرك » تقول هذا له ، فأقول أنا فى نفسى : « ولاهو
يارب » . أو تقول أم مختار : فقدتنى الليلة وأغمضت عينى بيدك إغمضة

الموت إن رددت يدي . فأقول في نفسي « اللهم استجب على أى حال » .
ولكن هذه الحيل كانت تؤتى ثمرتها فيأخذ منها ماتشاء حتى يرى وهو يأكل
بكلتا يديه وذقنه يكاد يلمس حافة الطبق .

ثم تحولت حياتهما بعد ذلك نوعا فلم تعد حبا خالصا ولا أكلا خالصا
لا يشويه شيء ، هبت عليها ريح الخلاف ، وإن كان خلافا غير طائل ولعل
سببه الليالى التى يبيتها فى دمنهور ، فى بيته العتيق الذى قرد عليه بعد
أن صب فيه تجارب شبابه خمسة وعشرين ربيعا . وكانت زينب إذا مانشب
الخلاف بالنسبة إليهم محكمة عامة من كل درجة يبدأ الحكم فيها ويستأنف
ويتقض ويبرم ويشمل من وقت صدوره بالنفاذ .

وقد كنت أستشعر الشماتة إذا ماساعدتنى الفرصة وشممت فى بيتنا
روائح التنافر . كادوا يخلقون منى شريرا يضحك من دموع الناس ويتبرص
بهم الدوائر ، وهذا كله ليس من صميم طباعى ، وتضاعفت كراهيتى لزينب
وودت أن تغيب هذه الوصبة عن الزوجين حتى أرى هل يقدر زورقهم على أن
يعود ؟ على أن أمى بدت متشبثة بحياتها الجديدة كما قد علمت . ولكنك
لا تعلم مدى عجبى حين أجلس مرة أمام عباس أفندى فى حجرة الضيوف
بسبب ما ، فأراه قد اقتعد كرسيا تحت الصورة .. صورة أبى ، فأخذ فى
نقله طرفى بين ملامح الرجلين لأوازن بين خلق الله فى الوجهين .. ثم .. ثم
أستغفر الله . ثم ألح على نفسى سائلا إياها : ما الذى يعجب هذه المرأة فى
هذا الرجل ؟ فحين أعيا بالجواب أتهم عقلى وأسفه أفكارى وألتمس لها
العذر بما يكمن فى طبائعنا من حرصنا على الثقافة بعد تفرطنا فى الثمين
حتى تضيق الفرصة ، كما يتشبث الملاح بلوح من سفينته الفارقة التى
أضاعها الإهمال .

أما وهيبة فقد حاولت أن تبسط على من حبها جناحا . لم تكن جميلة

لكنها كانت أنثى . وأشد الأعضاء أنوثة فيها هو قلبها النسوى . كانت تشارك كل داعم بدمعة ، وتشارك كل زائر بزفرة حتى ولو لم تكن تعرفه . تبكى لكل متألم . وقد طالما تمنيت بعد أن تعمقت نفسها أن يمن الله عليها بالفرصة التي تخلق منها أما !! آه .. ما أجدر نفس هذه المخلوقة بأن تكون أما لألف مولود ! وكم كنت أخاف عليها حنانها هذا ، لأن كثرة الحنان توجب كثرة الثقة والثقة الواسعة خطر على الفتيات ، إذا كن غير واسعات التجارب !!

ولإخال أن المدة التي أقمتها في بيت أبى بعد زواج أم مختار لم تكن لتطول إلى ذلك المدى لو أن وهيبة لم تكن فيه ، وأستطيع أن أؤكد أنها أحبتنى .

أظنها أول الأمر عطف على ضرائى وبلواى حين رأتنى غربيا فى أرض وطنى ، وآية ذلك أننى كنت فى حجرى ساعة الظهيرة يوم رسبت فى الامتحان جالسا إلى منضدتى أفكر وأدير ، فلما استعرضت مأساة حياتى لم يقو قلبى المهيض فى هذه الساعة على استعادة الأحداث فجهرت بالبكاء . - ولما كنت أفعل - قلت فى نفسى وأنا أبكى : اهلك يا مختار حتى يكف الباكون جميعا على الأرض ، وأؤكد لك أنه ما من يد ستمتد لتمسح هاتيك الدموع ! ومد هذا الخاطر نبع دموعى فجاشت نفسى حتى ضاق صدرى بالشهقات ، وفزعت إذ أحسست أن صدر امرأة يضغط ظهرى من الخلف ، وأن ذراعين عاريتين تلمسان عنقى من الجانبين ، وكفين تحددان بوجهى على الصدغين وترفعانه إلى الوراء ، ثم قبلة أحسست فيها الرحمة قبل أن أحس فيها شيئا آخر تقع على خدى . ثم رأيت من خلال الدموع وجه وهيبة التى دخلت على وأنا شبه غائب ، وكان فزعا حزينا مثلها يكاد ينطق بالفداء . قلت بينى وبين نفسى : تلك هى أطواق الفلين التى تلقى بها المقادير للفرقى

والمتعبين .. إلى أن تدركهم عناية الله .

لكن العطف على الضراء مفتاح يدار فى أقفال القلوب ، فلا يلبث أن يفتحها . فقد بدت وهيبة بعد ذلك معنية بكل شئونها تقول : نعم ، حين أهم بنداؤها حتى يختلط ردها على بالأحرف الأخيرة من اسمها وأنا أنادىها . ترتب حجرتى وتذكرنى بيوم الامتحان ، وتنذر وتبشر إذا أهملت صحتى أو اعتنيت بها . وقد تحول بينى وبين أن أضبط المنبه على ساعة من ساعات الليل ، لأنها كفيفة بأن تدق على الباب ، وكما نستنبط برتقالا من نارنج ووردا من نسرين نستنبط حبا من حنان ، وهكذا - كما تدعونى على الرغم منى - وقفت فيه حبالها موقف رجل نقم على الناس أنهم بثوا فى طريقه المأسى وهو ضعيف فحنا على الضعفاء فلم يرم فى طريقهم بمأساة !!

اللهم إلا اللهم . وقد كنت فى الجانب « السالب »

طرقت على الباب بنقرة خفيفة والليل ساكن والكون يصب فى آذان الساهرين حديثا يطير النوم - لأننا فى الربيع - واستيقظت على الطريقة فى ظلام الغرفة فقلت :

- من ؟

وكانت واقفة فى فرجة الباب بثوب أبيض ، فإذا بها ترد بصوت خافض تهز نبراته رعشة خفيفة تخلت عنها الإرادة :

- كأنك تنادى يا سيدى .. هل تريدنى ؟

فتنهدت . وأجبتها فى حزم حركته الشفقة :

- لعلك تحلمين .. اذهبى فنامى .

فأقفلت الباب .

ثم مرة أخرى ..

من طبعى دائما إن قمت فى الليل أن أتسلل إلى دورة المياه فى صمت

لأقضى حاجتى ثم أعود ، إلا فى حالة واحدة ، هى إذا مارجحت أن عباس أفندى مستيقظ فى غرفته . وأعرف ذلك بانقطاع شخير الغليظ العالى الذى يصك سمعى بعد فتح بابى مباشرة وقبل أن أخطو إلى الصالة . فإذا سمعت شخيرته تسلمت مباشرة إلى دورة المياه فى صمت ثم عدت . أما إذا رأيت السكون مطبقا عميقا لا يشويه شخير فإنى أرجح أن عباس أفندى غير نائم لذلك أراى مضطرا إلى أن أتحنح أو أسعل وأجر القبقاب على البلاط لأسمع من هنالك أنى هنا ؟

هذه هى قاعدتى التى لا تتخلف وقد حدث أن فتحت باب غرفتى فرأيت السكون مطبقا عميقا لا يشويه شخير ففهمت أن آتى بحركاتى المألوفة لكننى أمسكت وكففت فجأة لأننى رأيت وهيبة فى ظلام الصالة الذى لم يكن حالكا لمصباح فى المطبخ يرمى على أرض الصالة بنور هزيل حائل لكنه على كل حال ساعد بصرى على أن يرى وهيبة . ولما سمعت فتحة بابى خطت بسرعة إلى مدخل الدورة وهو قريب ، مرجحة أننى لم أرها لأن الفرصة لم تكن كافية .. ورفت فى الحركة كما يرف الخيال لأنها حافية القدمين قريبة من الباب . وتسلمت ساكنا إلى دورة المياه لأننى أدركت ماتبتغيه من وقفعتها تلك ، فإذا بها تعترض طريقى بوجه هائج متغير الملامح وتطوقنى بذراعيها فى عنف ، وتقف على أطراف أصابعها لتعال فى بقبله حارة . وتركتها تفعل حتى أنهت قبلتها على أكمل وجه ثم انتظرت منى الخطوة التالية فرفعت يديها عن كتفى برفق بالغ وتراجعت إلى الوراء وأنا أهمس فى أذنها بكلام لكى تستفيق .

ماذا أعمل ؟ لقد تركتني أم مختار الشمس الأعدار لكل من زلت به قدم ، لأن فعلتها المشروعة لم تكن مشروعة فى خاطرى ، ولأنها تطالع فى مخدعها وجها أستغفر الله كلما تأملته . أما وهيبة فإنها لاتعدم عذرا لأن

ملامي وشبابي ربما أنستها مايجب حين تسطو برأسها حميا الشباب فى ساعة من ساعات الليل .

ولعلك لاتسخر منى حين أعترف لك أننى جد حريص على بقائها فى المنزل . كان قلبها فى الإسكندرية وقلب سكينه فى عزية خورشيد دليلا فى نظرى على أن أرض الله لم تفتقر بعد من الحنان . وفضلا على ذلك فإنها تغدق على من خدماتها وتنقل إلى ما تحاول أم مختار أن تخفيه عنى من حوادث ربما كنت صاحب شأن فيها ، وبذلك رأيته أحياء فى النور .

ثم لعلك تحب أن تعرف مدى علاقة عم عباس بحياتى العلمية . فأقول لك : إن الواقعة الأولى بينى وبينه كانت هى الحاسمة يوم دخل على غرفتى ونصحنى بالمشاورة والجد ثم استطرد فى قوله حتى وازن بين جهدى وجهد إحدى بناته فانتفضت واقفا وأنا ألهم وعضلاتى متصلبة توحى بعمل سريع وهو رجل قصير ذو كرش لايقوى على العراك وهو - بعد له من الذرية ما هم فى حاجة إلى نصحه وإشرافه ، ففنع بهذه التجربة وفر من بين يدي إلى « النقطة » الوحيدة المخصصة التى فتنته فى بيتنا ، ولم يعاود هذه التجربة مرة أخرى . غير أن الحادث ألقى فى قلبه بذور البغضاء فكان لى قدرا لمحت دلالة على وجهه القبيح . ولعله كان أكثر من أم مختار مراقبة لحالى إذا ما اجتمعنا على مائدة الطعام . لأنها هى التى كانت تشغل نفسها به أما هو فقد كان يشغل نفسه به ، فيرسل إلى لحظة خاطفة سريعة تومض بها عيناه ليقرأ وجهى حين تغريه أم مختار بالطعام داعية على نفسها أو مقسمة عليه . يفعل ذلك فلا يرى على قسماتى إلا السخط والبغض والإنكار .

وتطورت الحال بينى وبينه - وإن كنتم كل منا ما عجت به نفسه - فى عصر يوم من الأيام حين دخلت عليه حجرة الأضياف لأسلم على بعض عارفيه الذين سألوا عنى فسمعت من أحدهم كلمة نابية - كنت لابساً حذاء

الكاوتش ، فلم يسمعوا وقع خطواته ، وكان عم عباس جالسا تحت صورة أبي بالضبط لاويا عنقه إليها مانحا ظهره للبواب الذى جلس قبالة . أما الضيف الثانى الذى لم يكن وحده ، بل كان مع ثالث ورابع ، فإننى سمعته عند مدخله يقول :

— أهذه صورة الخيال القديم ؟

فلوى عم عباس عنقه لينظر إلى الصورة وهو يقول :

— أى نعم .

ورأى أحدهم داخلا فمصمص بشفته مستنكرا لافتنا نظر الغافلين الذين يخوضون فى أمر يخص الداخل . وتثلجت أطرافى وكدت أتعثر فى غير شئ . فأقع على الأرض ولكننى تماسكت وسلمت وانصرفت وأنا أحس وقع سخرية على قلبى ، وأتخيل أن أبى أغضى حين سمع هذا الهراء . ومنذ ذلك اليوم أخذت كراهيتى لعم عباس تنمو وتزدهر ، ولعللى قد نسيت هذا الحادث مع الأيام ، ولكن أم مختارنفسها هى التى عادت فأثارته بطريقة مزعجة وشكل بغيض .

نظرت ذات يوم فإذا بصورة أبى معلقة فى الصالة ، فوق الكنبه التى كانت أسرة عم عباس تستريح عليها عام نزلوا عندنا مصيفين ، عند ذلك لم أصبر على ألا أسأل أم مختار عن حقيقة الحادث ، فانتهزت فرصة سانحة وجابهتها بالسؤال ، وكنت أحدث بحدّة نوعية وغضب يبين على ملامح وجهى ، ولكنها امرأة لاتخاف ، خصوصا منى ، لثقتها أننى فى حاجة إليها ، ولعدم معرفتى ماذا تركه أبى من مال معرفة واضحة ، فهى تستطيع أن تدعى أنها تتسول من أجلى منذ سنوات ويصدقها الناس . لذلك لم تكن تخشائى . فلما واجهتها بالسؤال واجهتنى بنظرة قاسية منذرة مخيفة ، قالت بعدها وهى فى المطبخ تقلب عصير الطماطم فى السمن وتسبكه على النار :

انقطع خيطها فسقطت على الكرسي ، فنقلتها هناك . : أليس ذلك أكرم ؟
ثم استوفزت كليلة كانت تحدثني عن زواجها حتى خلت أن أمامي هرة يقف
بدنها كله بكل شعرة فيه . فأثرت أن أنهى الموقف ، وأن أسدل الستار على
الموضوع . ثم اختليت بهوية بعد هذا وسألته عن الأمر ، فأكدت لي حقيقة
ماقصته على أم مختار من أن حبل الصورة قد وهى وانقطع فسقطت على
الكرسي منكثفة على وجهها « كما يحدث للأطفال أول مايتعلمون الجلوس » ،
ورأيت مخايل الكذب تغدو وتروح في عينها الحولاء ، ولكنني فضلته على
الحقيقة وآثرت أن أعيش فيه .

ورأيت الرجل القديم بعيني رأسي وهو يجلي عن « الموقف الثاني » ثم
أخذتني لمحة شعرية ، فجعلت أعلل انقطاع الخيط ، إن صح الخبر ، فعلته
بأن الهموم ثقلت على الصورة فسقطت تحتها لاهثة بسبب « أم مختار » كما
قد حدث لصاحبها في الحياة .. ليرحمه الله !!



كانت وهيبة تنقل إلى من شجارهما مالا تسمح الظروف لي أن
أعاينه ، وخيل إلي أن أمي كانت حريصة على ألا أقف من حياتها على
مكروه .. تماما ، كما نلحق جراحنا في صمت ونصبر حتى لا يرى ما بنا
الشامتون . وكنت أحب « عباس أفندي » جدا حين يهدى إليها شتمة أو
إهانة ، وأرى فيه قوة مسخرة سلطتها الأقدار على امرأة تعلقت بالرجال ،
فلطمت من أجلمهم أعز اللكريات بين حية وغير حية ، وكثيرا ماوددت أن
يستشري الخلاف حتى أرى على وجهها طابع المهانة .

لست أذكر فيم اجتمعنا نحن الثلاثة ليلتشد ، ولكنني أذكر أننا كنا
جالسين في الصالة ، وكانت رطوبة الشتاء مسيطرة على جو الإسكندرية ،
حتى خلنا أننا نتنفس ماء خالصا . وأثر هذا الجو الجديد على خياشيم « عم

عباس « تأثيرا سيئا جعله ينفخ الهواء من أنفه فى فترات متقاربة منتظمة كأنه مدخنة بخارية صرتها مكتوم ، ثم اكتسحته نوبة من العطاس دمعت لها عيناه واحتقن بها وجهه وتلف منها منديلة ، ثم شرع يشهق متملقا العطسة لعلها تأتبه وهى لاتواتيه ، فبرقت عيناي بضحك اجتهدت فى مغالبتها وفطنت أُمى لذلك فأرادت أن تصرفنى عن الموضوع حتى يذهب انفعالى فقالت لزوجها :

- يظهر أن الأمر أصبح فى حاجة إلى استشارة طبيب .
 فعلمت على حديثها لأنسى تقلقل أحشائي من الضحك المكتوم :
 - نعم فى حاجة قصوى ، فإن الأغشية المخاطية تعاني الآن التهابا عنيفا .

فرد عم عباس بصوت أخن يقطع بسخرية شديدة :
 - حقيقة ؟ . هل ترى الأمر كذلك يا دكتور ؟
 ففهمت ما الذى يعنيه ، وأيقنت أنه يعيرنى بإخفاقى تعبيريا غير مباشر ، فثرت ورايت الرجولة تقتضينى أن أرد له اللطمة ، فسارعت قائلا بلهجة واضحة صريحة :
 - نعم يا سيدى هو كذلك .. وآية ذلك أنك تقلق سكون الليل بشخيرك الغليظ .

ففغر فاه من المفاجأة وحملت أم مختار بعينين جامدتين ، أما أنا فلم تعد بى حاجة إلى أن أبقى مكانى ، فلممت شمل أعصابى ونحولت عن مجلسهم خارجا إلى الخلاء الطليق .

وسرعان ما انتضى العام ودخلت امتحان الكفاءة وأخفقت بحمد الله فى الدورين إخفاقا ذريعا ، لأن وزارة المعارف فى تلكم الأعوام شامت ذلك، وتحالفت مع الزمان ضدى أنا شخصا ، هل تدرى كيف ؟! قررت أن

يكون الإمتحان فى مقرر السنوات الثلاث التى ذرفنا فى سبيل انتقالنا منها دموعا كثيرة ، كأنما أرادت لأمشالى من الطلاب أن نهكى جملة وتجزئة وأن يحال بيننا وبين الحياة باسم النجاح والرسوب .

وكان أجمل ما فى رسوبى أن أحدا من الزوجين لم يقل لى كلمة أشم منها رائحة شماتة أو تأنيب ، لكن ذلك ليس معناه أننى مقبل على كارثة ، وأنها كارثة قريبة ، لأن سؤالا ثانها واحدا يستطيع أحد من الناس أن يقذف به فى وجهى قائلا لى : من يعولك ؟ وم تنفق ؟ مثل هذا السؤال جدير بأن يوقننى فى الحيرة ، لأننى لا أعلم مصدرا واضحا أستمد منه تلك اللقمة المرة التى تقيم أودا ليته لايقام . حدثتنى نفسى من أجل هذا أن صمت أمدى وحياد زوجها ليس سكونا ستتبعه عاصفة وتقبطها سيعقبه اندفاع وإهمال من نوع ذلك الذى نلقبه على الضيف الثقيل حتى يقرر الرحيل . وهممت فى ظروف متعاقبة أن أسألها عما إذا كان قد بقى لى شىء من المال أبعيش به فخفت من الرد فأمسكت عن السؤال ، وبقيت أحيا : فى غموض مطبق على حاضرى ومستقبلى ، إنسانا بلا برنامج ، يمشى على الطريق معصوب العينين !!

ورأيت على وجه وهيبة عصر يوم من الأيام تردد الذين يريدون أن يلتقوا إلى غيرهم خبرا . وكان سيئا فيما يبدو ، لكنه أقلق سكونها ولبلبل أفكارها. كنا وحدنا فى المنزل لأنهم كانوا فى « الخارج » ، وأغلب الظن أنهم كانوا عند الرصية الست زنب . وأخذت وهيبة تغدو وتروح وعلى وجهها كلام حتى عن لى أن أنادىها لأستوضحها الأمر وترددت برهة ثم قالت بعدها :

— إن اسمك يتردد كثيرا فى الأحاديث التى تنشب بين سيدى وسيدتى ، ويبدو أنه أمر غير سار لأن صراخها كثيرا ما يأتينى وأنا بعيدة عنهما . وقد

حاولت أن أعرف ولكننى فشلت !!

وأخذت حيطان مسكننا تمشى إلى الداخل شيئا فشيئا حتى ضاق على المكان . قلت فى نفسى : لو كنت فى كوكب غير الأرض أحيا فى المريخ أو فى القمر . ثم وصفوا لى هذه التعاسة التى أعانيها لما صدقت أن يحتملها قلب . كنت أكل وأشرب وأنام على فراش وأدخل الحمام وأغير ملبسى ، وهناك خادم تقول لى : يا سيدى ، ولكننى على الرغم من ذلك كنت جوعان ظمآن مشردا بائسا أنام فى العراء ، عبدا لكل الناس وكلهم سادتى !!
من أجل ذلك رأيتنى أخيرا مستعدا لأن أقدم على كل شىء . غير خائف من غول المستقبل الرابض على مقربة منى فاغرا فاه حتى بدت لهاته . وبدأت الأيام تملى على الخطئة فأذعنت خانعا مطيعا غير متردد ولا متذمر .

وتلقيت الحلقة الأولى من خطتها ذات ليلة كانت واجمة كالحلة كئيبة تصرخ الطبيعة فيها بريح الشتاء . وكنت عائدا إلى البيت من بيت أحد الناس الذين كنت ألجأ إلى مساكنهم إذا ما حننت إلى سكن ، وهممت أن أنقر الباب ليفتح من فى الداخل ، لكننى توقفت حين سمعت صراخ أمى وبكائها وشهقاتها تقترب وتهتد لأنها فيما يبدو كانت تدور فى أرجاء الشقة كطبعها حين ترى ثائرة . وكان زوجها يصخب ولكن على بعد ، لعله قد كان فى المخدع والباب مفتوح أو لعله كان فى حجرة الضيوف فلم أتبين ما يقول . وجلست أم مختار على الكنبه فى الصالة فاختنفى ظلها الذى كان يتخايل على البللور وأنا جامد أمام الباب ، واستطعت فى وقفتى تلك أن أعين مكانها . وكان صوتها يخمد شيئا فشيئا كما يخبو اللهب ويكاوها يجرى نحو الهدوء كما نحاول إنهاء الحن . وهممت أن أطرق الباب من جديد لكننى سمعت صخب زوجها يعلو مقتربا ففهمت أنه يمشى إليها واستأنفت هى

العجيج مرة أخرى فطرقت بعنف على البلور ، فانفجر الباب بسرعة لأن هيبه كانت قريبة منه فى هذه اللحظة كأنها كانت فى طريقها إلى الخارج . ودخلت فى وهلة لم يكن أحد يتوقعها قط ونظر الزوجان فبصرا بى عند المدخل أنظر إليهما فى ذهول وغضب ، عتب أن صك عباس أفندى وجه أم مختار بضربة صرخت فى أثرها صرخة ألم .. آه .. هل أقول : أحسست وقعها على قلبى لأن هذا هو الذى حدث ؟! ونظرت ، فإذا بخطط من الدم دقيق يسرى على شفتها العليا ثم يمتد نحو الذقن . وأعمتنى حمرة القانية تحت ضوء المصباح على وجهها الأبيض فلم أدرك ماذا فعلت ، لكننى أفتت فأدركت أن حقيبة كتبى لم تعد فى يمينى . قذفت بها فى وجه عم عباس ولولا أنه تلقاها بذراعه لخطمت وجهه ، لكن الحركة لم تخل من الإيذاء تماما فإن شيئا ما صدم منظاره فخطمه وكان يلبسه عند تصحيح الكراسات ، وترك تحطيم المنظار على قنطرة أنفه خدشا خفيفا لكن الدنيا كلها قامت وقعدت بعد هذه الزلة !! قال الرجل متظاهرا بالحلم وإن كان حلمه خوفا وضعفا :

— أهكذا تفعل يا بنى .. حسن . إنك على حق . يظهر إنه لم يعد هناك داع للإقامة .

وعملت هذه الكلمات فعلها فى نشيج الزوجة وغضبها فأفاقت سريعا ، وهذأت أنفاسها . ونطقت ملامحها بكلام كثير وجهته إلى ، فيه : أنت فضولى . وفيه : وغير مؤدب ، وفيه : ومتهم بسوء القصد وإضرار النار فى العيش الهانىء !! فاستشعرت ندما قيدنى فى مكانى حتى لا أدرى أى فعلنى صواب : أأدخل نحو حجرتى أم أخطو قافلا إلى الخارج . ولكن إلى أين ؟!

غير أنى شقتت طريقى إلى غرفتى غير آبه بما يدور ، وانتقضت دقائق

سمعت بعدها صوت الزوجين وهما فى طريقهما إلى المخدع ، وسمعت ردة الباب وتبعت بأذنى تطور الحديث وأنا فى مكانى حتى آل إلى الحال التى يبدأ عندها فى الخمود شيئا فشيئا كما يخبو اللهب .. ثم .. ثم انقطع الحديث !!

وحاسبت نفسى على فعلتى فلم أستشعر ندما ، بل عدت فتمنيت أن لو كانت الفرصة قد أتاحت لى عملا آخر . هو أن أحطم وجهها بالحقيبة ليعلم الزوجان أنهما فى حاجة إلى إنسان يؤدبهما . وبدأ شريط الماضى يعرض نفسه بنفسه حتى أتاح لى أن أرى صورة خادمنا القديم الصغيرعبد الرئى الذى كان يبكى ويتسم فى وقت واحد حين تضربه أمى - رأيت صورته يوم سال من أنفه خيط من الدم دقيق يسرى على شفته العليا ثم يمتد نحو الذقن حتى تختلط حمرة بخضرة الوشم . وكان سبب هذه اللطمة دما أيضا .. دما تخلف على بلاط المرحاض .. خرج عبده وتركه ناسيا أن يصب عليه الماء ، لأنه كان مريضا بالبلهارسيا ، فلما اشمازت منه أمى أسالت الدم من أنفه ، ومع ذلك فقد كان يومها يضحك ، أما هى فقد بكت فى هذه الليلة ساعة سال من أنفها خيط من الدم !!

« كل شيء فى البيت يدعو إلى الاشتزاز »

قلت هذا وخبطت بعض الكتب على ظهر المنضدة ناقما وعدت أقول : لعنة الله على الجميع .. يقولون : إن أرض الله واسعة جدا ، فلماذا لا نعانىها ؟ ربما ارحمت . وقد أعانين ألوانا أخرى من الشقاء لكنها لن تتسامى إلى ما أعانيه فى هذا المكان . وخلعت ملابسى وأطفأت النور وارتقيت على الفراش بلا عشاء ، ولست أدرى لماذا لم يحاورنى الأرق ؟ فلم أستيقظ إلا على صراخ أحشائى من عضه الجوع قبيل مطلع الفجر ، تلك الصرخة التى أتاحت لى فرصة أفكر فيها فى أخف ماقد يصيبنى فى المستقبل الذى بدأت

أرسم الخط الأساسى فيه .

وارتفع الضحا التالى .. ومتع النهار ، وكان يوم جمعة ، فدخلت على « عربة الترمس » بعد أن خرج « صاحبها » من البيت وكانت - كما بدا لى - حزمة من المشاعر ومعتزكا للأفكار.

كنت متمددا فى سربرى الصغىر الذى تنهض بحشيته حمالة من السلك أدها حملى فاسترخت إلى الأرض . ولم تشأ عربة الترمس أن تحبى بل قصدت من فورها إلى حافة الفراش فجلست ترمى ببصرها نحوى. وعقدت يديها على صدرها قبل أن تهمل بالكلام وجلست أنا فى سربرى وفى يدى كتاب على حين عقدت هى ما بين حاجبيها وتنهدت ثم نظرت إلى الناحية الأخرى فأناحت لى فرصة أرى فيها شعرها المبلول . وعادت فاستقبلتنى بوجهها كله وكان أشبه بوجوه الخارجين من المعارك . قالت أم مختار ويدها لاتزالان معقودتين على صدرها :

- هل تستحسن ما فعلت ؟

فهزئت رأسى مستفهما كأنى لم أفطن لما تقول ، فاحمر وجهها وارتعشت شفتها وبدت ربح الغضب تعصف بلامحها القاسية ، لكنها جمعت جماع نفسها وأجابتنى ببرود :

- هل نسيت ليلة البارحة ؟

قلت :

- لا .

قالت :

- إذن فهل ترى الذى حدث كان صوابا ؟

فأجبته :

- كان الموقف حادا جذبنى إلى تياره دون أن أريد .. ولكن ، ماذا كنت

تظنننى فاعلا ؟ وانتظرت جوابها بشوق بالغ فإذا بها تقول : كان ينبغي لك ألا تفعل شيئا .. تدخلت فيما لا يعينك .. رجل وامرأته يشنق كل منهما صاحبه فما بالك تقدم رقبتك إلى حبلهما ؟

وسكنت ونظرت كما تنظر النمرة أهاجتها طلقة الرصاصة . وظننتنى وأنا ناظر إليها أنى منهيهء لأقول شيئا لأنها ماكانت لتعلم ماى : كنت محمقا فى الفضاء لأرى ، تخنقنى الغصة وتحجرى حرقة الغيظ فى صدرى كما تحجرى حرارة النار . ولما لم أنطق بشىء واصلت حديثها :

— هذا غريب .. إنك تبدو هادئا ولكنك سرطان .. ولد ذو بدوات .

تفعل دائما ما لا ينتظر ، وتفعله بغتة وعلى غير انتظار .. حكم الوراثة !!

ثم انتصبت واقفة كمن يستعد للشجار وكانت أحشائى وأعصابى وعضلاتى وكل ما فى من لحم ودم قد استحالت إلى هباء ، فلو هاجمتنى هرة فى هذه الساعة لصرعتنى . لكننى قلت على الرغم من ذلك :

— ألم يحن الوقت الذى نرى نفسنا فيه عافين عن الموتى غافرين لهم ما قد أساعوا ؟ مالك ولأبى ؟

فلم تحب . واضطربت أنفاسها حتى بدا ذلك على صدرها . وحانت منى نظرة فرأيت بطنها .. رأيته منتفخا قليلا بارزا شيئا إلى الأمام ويعلن عنه بوضوح نوعى ثوبها الضيق . عند ذلك أحسست اشمئزازا لا أدرى من أى لون هو ، لكننى شعرت بالغشيان فضبطت أعصابى وقمت واقفا ازامها لأسألها سؤالا أدركت عند سماعه أن جدا غير منتظر كذلك قد جاء فى بدواتى .

قلت :

— هل من حقى الآن أن أسألك عمابقى لى من مال ؟

فابتسمت ساخرة وأجابت :

- ياله من خيال واسع !! هل تفهم ما أعنى ؟! احذر مرة أخرى أن تتعرض لرجل اتخذنا منه سدا يقف بيننا وبين الجوع !! احذر !! ثم ولت خارجة وتركنتى للنار ترعى فى أوصالى .

قلت فى نفسى : فلنسأل أهل الذكر . فقلت يوم السبت لزميلى أنور أمين ونحن فى المدرسة :

- ما رأيك فى الموضوع ؟!

فلما استوضحنى الأمر بحث له بنيتى .

وأنور أمين متخصص فى الإباق والهرب . زاولهما فى فرص وأوقات متباينة أغنته بالتجارب ووقفته على خفايا كثيرة . واحد بين خمس بنات تكيل له أمه التدليل ويكيل لها التجنى ، وتقف بينه وبين أبيه فلا يد إليه عصا التأديب لأنها تحمل الموت فى عرف بعض الأمهات . وأبق أنور من بيتهم نيما وعشرين مرة لأنه رأى فى الإباق والهرب وسيلة ناجعة فى تحقيق المطالب حتى يتيح لأمه على الخصوص هواجس مقلقة ترى أقلها أكثر بكثير مما يطلبه غلام بين بنات .

قال لى وهو يبتسم فى اعتزاز من يرى الناس فى حاجة قصوى إلى آرائه :

- حتى أنت يامختار ؟! ولكن .. لماذا ؟!

فأطرقت فى استحياء وأجبتة :

- قسمة !! والمسألة عائلية صرف . أرجوك !!

فتأبط ذراعى حيث انزويننا فى مكان هادىء وحيث بدأ يسوق إلى بنات أفكاره وأغلى تجاربه التى كسبها منذ عرف الأباق :

- لاحظ أنك ستهرب فى الشتاء يا صاحبى وهذا أمر جد عظيم ، لأن

الجو فيه عامل غير مساعد . نحن فى الصيف نستطيع أن ننام فى العراء بلا غطاء ، لكن فى هذا الفصل فانظر أى خطر ستعرض له .
ليس هذا من شأنى على كل حال . أما الذى من شأنى فهو أن أبصرك بأمور هامة بالنسبة للذين يزاولون هذا العمل للمرة الأولى : احذر أن تبدو مضطربا إن كنت فى مدينة وإلا خلقت لنفسك المتاعب « البوليس » !! كما يجب أن تجعل الطعام فى المرتبة الثانية بعد المظهر وإلا وقعت فى المتاعب كذلك ، أعنى : لاتجعل شعرك يطول ولا قميصك يتقدر فإن الشريد النظيف سيد الشرداء .

وأما ما يتعلق بالمبيت وهو أهم المشاكل فلك أن تختار مثنوى رخيص الأجر فى أيامك الأولى وأمامك بعد ذلك العمارات الجديدة التى تقام أبنيته وينام فيها العاملون فانزرو فى أحد أركانها . ثم المساجد والزوايا على شرط أن تتوفر فى خدمها المزايا الضرورية لك كضعف البصر أو الشيخوخة ، ثم المقابر أخيرا إن كنت ثابت الجنان .

وكف أنور أمين عن الكلام وبقيت عيناه تقولان لى : هل تستطيع ؟ ..
ليس كل الناس قادرا على تحمل الشدة . فقلت له :
- أشكرك .

وقضيت الليالى التوالى بعد ذلك أعد أمرنفسى وأتخيل المكان المهجور الذى سأسافر إليه بآلامى أو أرحل إليه منها . لكن أمر المال أتعبنى . ثم عدت فوازنت بين أصناف اللقم فألفيت بعضا يفضلهُ الجوع . وحالفتنى الأقدار فى المعركة الأولى لأن قسط المصروفات كان معى قبل هبوب الزويعه على بيتنا يوم الخميس فلم أشأ أن أؤديه إلى المدرسة . فاحتجزت الجنيهات عقب مانال زوج « أم مختار » من حقيبتى وما نالنى من لسان « أم مختار » .

ولم أجد أحداً أفضى إليه بأمر نفسى إلا « وهيبة » التى انفردت بها خارج البيت وبادهتها قائلاً لها :

— « وهيبة » ، أنا أعلم غاية ما تكنينه لى من حب وهو عظيم ، ولذلك أرجو أن تساعدنى فى أمر ، سأرحل عن « الإسكندرية » يا « وهيبة » لأننى لا أجد فى هذا البيت إنساناً يمت إلى بصلة قبرى .

فانبثقت الدموع من عينيها كما ينفجر الينبوع ، وخيل إلى أن قلبها يولول . كانت حناناً خالصاً احتكرته الأقدار فى مخزن مهمل ، وعلى الأرض بنون يعيشون فى مجاعة . قالت فى انكسار العاجز عن مد يد الإنقاذ :

— عاود التفكير فى الأمر يا سيدى مرة أخرى لعلك تغير القرار .

قلت :

— إنه الأخير .

وافترقنا .

وحددت يوم الرحيل وأنا فى طريقى إلى عزبة « خورشيد » ولشد ما خفق قلبى لرحيلى بعد ثلاثة أيام حينما تذكرت حبنى « لسكينة » وجعلت أنظر إلى دراجتى فى أشواطها الأخيرة على هذا الطريق الذى عبرته سنين حتى قامت بينى وبين معاملة ذكريات باقية . وجعلت أدق جرسها . بلا داع كأننى أداعبها قبل المبيع . كانت تنقلنى بعجلتها إلى هناك وسوف تنقلنى بश्منها إلى هنالك .. إلى أى مكان .

ولبست مناظر الريف لعينى ثوباً جديداً بهيجاً كأنما تزينت به من أجلى . ثم جعلت تناغىنى : كيف ستغيب عنا ؟ .. هل هنا عليك ؟ أما « سكينة » فخيّل إلى قبل أن أبلغها النبأ أنها فى وداعة حمامة تشخذ من أجلاها السكين وهى تزجى وقتها بالهديل غير عالمة بالمقدور .

كانت فى الكوخ وحدها : أبوها فى الإسكندرية وأمها فى السوق .

فلما لقيتها شرعت تعاتب على الفور من تباعد ما بين الزيارات . ثم شرعت
تغنى بصوتها الهادىء ووجهها الخجول أغنية تشكو فيها فتاة ريفية إلى
أمها دلال حبيبها - وما أكثر شكوى الفتيات لأمهاتهن فى أغنيات الريف !!
- فلما فرغت قلت لها :

- سكينه .

فقالَت وكأنها تومئ إلى أنها بدأت تعيا بأمر قلبها :

- لست « سكينه » .. إنما أنا مسكينه !!

فابتسمت فى تشاؤم وبانت على وجهى دلائل جد صريح فألقت إلى
بنفسها خالصة ، فشرعت أقول :

- استمعى إلى فالأمر هام عظيم .. أنا مسافر .

فلم تنطق بحرف بل زمت شفة على شفة كأنها تكظم بكاء . وظلت هكذا
إلى أن قلت لها :

- وبعد يومين .

فازداد توقد وجهها ثم مال إلى شحوب القطن ثم سألتنى وعيناها
دامعتان :

- إلى أين ؟

قلت : إلى القاهرة .

فاستطردت :

- لوظيفة ؟

فأومأت برأسى : أن نعم . فسألت :

- ولن يرى كل منا حبيبته بعد ذلك ؟

فبكرت عيناى بالدموع ، ثم أمسكت الألسن وتولت الجوارح والملاح
والحركات والسكنات شرح ماجاشت به النفس فى صمت طويل عميق أبلغ من

الكلام والقوافى التى يسجع بها الشعراء ، حتى جال من حولنا هدهد ينقر ويفتش ، ويبحث وينقب ، فسألته مبتسما هازا رأسى :

— عم يبحث ؟

فقلت :

— يقولون : إنه لا يزال يفتش عن كنوز سليمان .. من يومها حتى يومنا

هذا !!

فقلت :

— إذن فنعمت المشاورة .

قالت بصوت يهدج حياء ووله :

— ولن ينقضى عمله حتى ينقضى ما بيننا ، ليتنا لم نلتق .

وأدرت كلامها فى قلبى فاستعذبه القلب حتى انتهت هى إلى نعيم غراب على شجرة الجميز فنظرت إلى وفى عينيها تشاؤم أهل الريف ، فابتسمت لها مهونا الأمر . فسألتنى :

— لماذا لا نرى غرابا غير أسود ؟ كلها سود .

فقلت ما جاد به خاطرى وإن كان قولا لا طائل تحته :

— لأنه من رهبان الطيور ؟ لكنها استعذبت قولى ، فقلت :

— هذا حسن . إذن فلا تنس ، سأحبك مادامت الغريان فى ملابس

الرهبان والهدهد يبحث عن كنوز سليمان .

ثم التقت شفتانا . ثم أبعدت وجهى عن وجهها بيدها لتقول شيئا كأنها خافت أن تنساه :

— وهل ستكتب إلينا ؟

قلت : ولم لا ؟

قالت :

— هل فى المدينة بنات يكتبن لأحبابهن كلما أردن ؟
 فأومأت بنعم . فتنهدت ولمعت عيناها بالمنى والشوق . ثم ما لبثت أن
 قالت :

— ليت زمانى تأخر قليلا حتى جئت فى أيام تستطيع فيها بنات الريف
 أن يكتبن لأحبابهن . فأجبتها :

— لانهزعى .. إنه .. بعد لم تفتك فرصة ستتحقق لفيرك من الناس .
 وجاء عم خليل وزوجه والبسطامى الصغير فقصصت عليهم القصة
 فتباينت على وجوههم دلائل الأسف ، لكنهم مالشوا أن دعوا لى بالتوفيق .
 لم يروا فى ادعائى أننى أثرت الوظيفة على الدراسة شيئا غريبا لأن
 اسم الوظيفة عند أهل الريف مرادف لمعنى السيادة والعزة والإمارة وتصريف
 شئون الناس بالسوط أو باللسان . ثم كان وداع أخير ساذج بعد يوم واحد
 اضطلعت فيه الوجوه والعيون بالمهمة الكبرى فى التعبير لأنهم لا يستطيعون
 غير ذلك . ثم ساروا فى مصاحبتى إلا سكينه حتى قطعنا عدة كيلومترات
 على الترع ووصلنا إلى الطريق الرئيسى على المحمودية فتبادلنا الدعاء
 والقبلات مرة أخيرة ، وكففت دمعة وأنا أقبل البسطامى ودعوت له بحظ
 أجمل من حظى فى حياة المدرسة .. ثم .. ثم قام بيننا البعد !!

وعدت إلى الإسكندرية عصر ذلك اليوم وأنا أتدبر الأمر جيدا : إن
 أسرة عم خليل تعلم أننى مسافر غدا إلا سكينه فهى وحدها التى تعلم
 الحقيقة فأنا مسافر بعد غد . وسألقاها هى وحدها فى الليلة المقبلة كما
 اتفقنا . وتنزى قلبى من هزة ألم طافت به حين شعرت أن فى موقفه هذا شيئا
 من الخداع لقوم طبيين ، ولكنى لم أعد أعدم عذرا فالتمسته حين قلت :
 أليس من حق القلوب علينا أن نهىء لها فرصة الراحة فى زمان يلهبها
 بسوط العناء ؟! فأقنعتنى الفكرة !!

ورأيت الكنبه فى صالة بيتنا يحدق بها الكرسيان ولكن صورة أبى لم تكن مشرفة عليها . كان الحائط مقفرا بعد اختفائها كأنا هو دار رحل عنها ساكنوها !! ولم أسأل أم مختار كمال أسأل وهيبه لأن مكانا واحدا فى الشقة من المحال أن تقوم فيه ، وهو مخدع أم مختار ، ومن المحال كذلك أن أدوس عتبه ، ودخلت غرفة الضيوف وغرفة المائدة فلم أجد بغيتى فقلبت كفى وقلت بينى وبين نفسى : بقيت إذن حجرة واحدة ، هى حجرة الكرار . وسرعان ما رأيتنى أسعى بلا تفكير ودخلت بابها فإذا بالصورة منفية فيها لم تكن معلقة على الحائط لأن حجر الكرار إنما هى مخازن وليس فى الناس من يزينون المخازن . لقد تأملت ، بل وبكيت ووقفت أتأمل المنظر كأننى أرى جثة فى قمامة ، أعنى إنسانية مبتذلة معذبة طالعتنى فى الصورة التى كانت على مقربة من إناء فيه غسل وإناء فيه سمن حولها ذبابات تحوم فى المكان - والذباب فى الشتاء قليل - كن يهبطن على الأوانى ويطن ثم يسترحن قليلا على الصورة قبل أن يشرعن فى شوط جديد .

إن قانوننا فى داخلنا وعرفنا فى نفوسنا . وقد كنت فى هذه الرقعة أشبه بدولة توشك أن تعلن حربا لأن « علمها » قد أهين . على أنه كان فى داخلى حرب ضروس أقلقت أحشائى وهيجت سكونى وفجرت آلامى . وسمعت صوت الرجل والتراب بينى وبينه . وكأنا حلقت روحه حول الصورة تحسبها جسدا فأحسست كأنه يصول ويجول فى الشقة كليله غيرته أم مختار بالفشل فحملته على الأباق ، وكان صوته يأتينى وهو يقول : « نساء .. نساء آه .. آخ » فوضعت كفى على أذنى وخرجت مسرعا لا ألوى على شىء !!

ولم يبق بينى وبين الرحيل عن بيتنا السعيد إلا الليلة المقبلة ولعلك تجد فيها ليلة أى ليلة لحقولها بالحوادث .

خطا الليل خطواته الأولى وأنا أنحرف إلى الطريق الجانبى قاصدا
 مزرعة عم خليل . قلبى يدفعنى ويمسكنى ضميرى ولو أننى غيرمقبل على
 ريبة ، لكنهم يظنوننى الليلة غريبا ، ولعلمهم فى كوخهم الساعة يقولون بعد
 أن قضى رب البيت صلاة العشاء : ترى أين تنام الآن يامختار أفندى ؟
 لأنهم تهيأوا للنوم . وسرت وتوقفت ثم هممت بالرجوع . لكننى عدت
 فتذكرت أن سكينه بانتظارى وأنها لن تنام ولو أدركها النهار . وأن رجوعى
 وسفرى دون أن أبر بوعدى - ولو أنه سخيى - معناه أننى أهذى إليها قلعا
 ومتاعب فى اللحظة الأخيرة ولن تجد سكينه بعدها بابا تستقى منه خبرى
 فتطمئن إلى مصيرى . وهكذا ١١ خلقت لنفسى من الأعداء ما أقنعت به
 نفسى فرأيتنى أجد السير على الطريق حتى بدت لعينى من بعد قريب شجرة
 الجميز وأشجار السنط والتوت وشريط الحلفاء على التربة ، وكلها غارق فى
 السكون هاجع تحت جناح الليل . وخفق قلبى لأننى لم أحس السلام ولا
 الأمان ولا الأمان الذى كنت أحسه فى كل يوم وليلة ؟ أين ولت ؟ لكأننى
 الآن فى مكان غريب . ولما اقتربت من مدخل الحقل فوجئت بما لم يدخل فى
 حسابى ولا حسابها يوم اتفقنا على اللقاء . فوجئت بالكلب بين رجلى ومن
 حسن الحظ أنه نائم لأنه لو رأى من بعد لنبح . وجلست من فورى إلى جواره
 وجعلت أمسح وأريت رأسه وظهره فاستراح وذهبت عنه الريبة ثم تشاغل إلى
 مكانه حين اطمأن إلى شخصية الدالج ١١ ثم بعثت بما اتفقنا على جعله
 إشارة . وكان صغيرا كصيرير الجندب الذى حاكبته عدة سنين ، إذا لم تكن
 هناك ربح ، أما إذا كانت هناك ربح فدقة واحدة بقبضة يدى على الحائط
 الخلفى ، تخرج سكينه بعد إحداها فورا أو بعد قليل حين تتأكد من أنهم
 نائمون ثم تلحق بى هناك فى الحقل المجاور على بعد بضعة مئات من الأمتار
 ترانى فى كن مهيباً بين أكداس حطب الذرة كان ينام فيه صاحب الحقل أيام

كان فى حاجة إلى أن يحرس المحصول . ويصر الجندب من فمى صريرا
طويلا تحولت بعده إلى الكن الموعود فارقت فى أحشائه أرقب الأمور فى
الخارج . كانت قوافل السحاب الأبيض متحيرة فى السماء تسوقها عصا
هواء غيرعنيف تصر به أحيانا أوراق الخطب وأعواده . وفى السماء كذلك
قمر شتاء هزيل حائر يضىء ما فوق السحاب ، ويبدو للواقف على الأرض
كأنه غريق فى لجة كثيفة فتفرق نوره بين الأطباق حتى وصل إلى الحقول
الغافية متعبا مكدودا لكنه على كل حال أمات وحشة الليل . وبدت
الطبيعة متطرحة فى فراشها - كان كل عضو فى ناحية - تطرحا يذكر
بالأحضان والحنان والنجوى والشعر والحب . وتنفست عميقا حينما غرق القمر
فى لجة السحب فظننت ألحاج له منها حتى آخر الليل ، وخبا نوره إلا آثارا
ضعيفة رأيت بفضلها شبعا يتخايل ناقلا خطواته فى حذر وحرص يشمر
أذبال جلبابه الرمادى الطويل بكلتا يديه ليرتفع من الأمام فلا يتعثر فيه ،
وعليه شال من القطيفة يدفع عنه برودة الليل ، واستحالت الحياة من حولى
إلى حلم عميق فضاع منها عنصر الإرادة . وتحولت الأعمال إلى حركات
تلقائية صرف يسيطر عليها معنى واحد فحسب هو « الحب » . وقفت على
القرب من كنى وهتفت بصوت راجف خائف :

- أليست توافق على أننا مخطئون ؟ ..

فلم أزد على أن قلت :

- ادخلى !!

ففعلت . وصرت بعد ارقائها فى أحضانى أشبه بالواقف على خشبة
المشقة لا يريد أن ينهى عملا تشهى أن يكون هو آخرها يفعل فى الحياة ،
ولو أن كل شيء من حولنا كان يهيب بنا أن عجلوا . وتخلخلت السحب من
فوقنا مرة أو مرتين فحملق فينا القمر من فرجتها ثم تراجع . كان كلامنا

همسا وكانت شكوانا أنينا وأدفاأنا أنفاسنا فلم نعد نحس برد الليل . على أنها بذلت لى ما وعدتني ولم تزد وإن لم يكن هناك ما يحول بيننا . وكانت تضع فيها على رقبتي من أسفل ثم تمسحها بشفتيها مقبلة إياى مرتفعة بنفها إلى أعلى رويدا رويدا حتى إذا ما لامس أذنى فأحسست أنفاسها الحرى ألفت فيها بلفظة حلوه . ولست أدرى ماذا بدر منى بعد ذلك لأنى انتبهت إلى صوتها الهامس يقول لى فى انكسار وحب وثقة :

— مختار .. ما بالك الليلة تبدو غير خائف على ؟ قل ما بالك !؟

فعاودنى وقارى وثاب إلى رشدى . وأدركت أنها خافت على موردها أن يرنق فى غفلة منا فيعافه الشاربون . ثم قالت :

— دعنى .. وداعا !!

ولكننى لم أفلتها فاستدركت :

— فلاذعك أنا ..

ولكنها كذلك لم تفلتنى . وسمعنا نباح الكلب فارتحفت بين ذراعى كأنها دمية . ثم قالت :

— إذن فليدع كل منا صاحبه .

وسكت الكلب عن النباح فساد السكون ، وكف الهواء عن الحركة فلم نسمع حتى أزيز بوصة وكأنا أراد الكون أن يفرينا بشيء ما .. ولكننا أفقنا وتسللنا خارجين من الكن وكل منا يقصد جهة . وفعلنا لكننا عدنا فتوقفنا وقطع كل منا إلى صاحبه نصف المسافة التى بعد بها وتعانقنا فى الخلاء ، وغطت وجه القمر وقتذاك سحابة سوداء أظلمت بها الدنيا فكأنا ألقى الليل علينا ستاره الكثيف ووددنا أن نظل هكذا ثم ليكن ما يكون . بيد أن يد البعد ضريت بيننا بعد ثوان قليلة فसार كل منا يحدث نفسه وهو مول ظهره لصاحبه: ترى هل نلتقى ؟ لكن الجواب كان فى ضمير الزمن !!

وقبيل الفجر كانت حركة خافتة تجرى فى غرفتى : كنت أعد أنا ووهيبة
حقيبة سفرى ، وأضع فى هذا الوعاء المصنوع من الورق المقوى كل ما أملكه
من متاع : حلة قديمة فصلت على ، وأخرى قديمة من حلى أبى ومعطفنا كان
فى ميراثه وقميصين وجوربين وجلياب نوم وشبشا وبعض أربطة للرقبة ، ثم
ساعة جيب كبيرة ذات سلسلة من الفضة هى كذلك من آثار الوالد ..
والبطانية الصوفية الخفيفة التى طيرت يد الأيام وبرها من كثرة مانشرت على
سريرى عقب نهوضى من الفراش . ولم يكن هناك كتاب ولا كراسة ولا قلم ،
لأننى ودعت الدراسة !

وجعلنا نزاول أعمالنا ونحن مطمئنون . لأن شخير عباس أفندى كان
عاليا أكثر من المألوف لأنه فيما يبدو كان متعبا جدا . وأوصيت وهيبة أن
تقول إذا ما سئلت عنى فى الصباح : سمعته منذ دقائق فحسب وأنا فى
فراشى يقول : إنى ذاهب إلى بيت زميل . وانتهت كل مهمة ولم يبق لى إلا
أن أتلفت حولى فى الحجرة ، فلم أر فيها ولا فى الإسكندرية أربا واحدا .
لأننى قطعت آخر ما بيننا من أواصر بعد أن أخذت الصورة .. أخذتها من
حجرة الكرار وأودعتها حقيبتى لتتزل منازل عز أو منازل ذل .. حكمها
حكمى وحظها حظى !!

وخطوت خارجا من الحجرة والحقيبة فى يمينى ، لكنى سمعت من خلفى
شهقة مكتومة جادت بها وهيبة على وداعى الحزين ، فاستدرت إليها
وتركتها تهوى إلى أحضانى وبادلتها قبله كانت طويلة . ثم خطونا معا إلى
الصالة فى صمت وسكون ، لا يلتقى عليه ظلا من الحجرة إلا ما كان يتناهى
إلى أسماعنا من شخير ، وقد تبسمت قليلا من أجله وقلت فى نفسى قول
من يخرج من مكان وهو غير آسف على أيامه : وداعا أيها الأنف الملتهب
.. وداعا يا عربة الترمس !! نعم وداعا فقد تعلمت فى حضنكم الضيق

الخشن القاسى أشياء كثيرة . وداعا .. لأنه يجب أن أخلى المجال لوليد
جديد انتما فيه مشتركان ، لتحنوا عليه دون أن يرقبكما محروم !!

- ٧ -

لم أشأ أن أستقر فى مكانى من القطار حتى أهدى إلى عزيزة خورشيد
نظرة أخيرة .

كان الوقت شتاء كما تعلم ، شمس السقيمة على مقربة من باب
خدرها ولكنها لم تكن بزغت . وكانت أنفاسى تتكاثف على الشباك وأنا
واقف إلى جواره أرى مرور تلك المعانى إلى الورا ، وهكذا تجد فى حياتنا
ظروف يدبر فيها المكان كما يدبر فيها الزمان . ورأيت معالمها من بعد
تجبرى إلى الورا نحو الشمال فأهديت إليها دمة !! قلت فى نفسى بعدها :
وهذا كل ماملك ثم ارتقيت متهافتا على الكرسي .

كانت رقعة الأرض واسعة جدا أوسع مما مسحها الجغرافيون بكثير .
فقد قستها بالبصر المجرد يومئذ فألفيتها تزيد آلاف الفراسخ ، وكانت فوق
ذلك كله خرابا يبابا لا يعمرها إنسان .

ثم استعرضت شريط الماضى سريعا فلم أجد فيه ما آسى عليه ولكنى
بكيت على الرغم من ذلك . !! تبا للدموع !! إننى لا أحبها لكنها لاحقتنى
على كره فجادت ببعضها عيناى وجادت ببعضها عينا امرأة أمامى . ولكن
ليس من أجلي .

كانت من أجل ابنها ، فهنيئا للذين سعدوا بالأمومة ، حتى ولو فى
الخيال يوم انتبهوا إلى الوجود فأروا أنفسهم بلا أمهات ثم حدثهم الناس عن
حنان الأم فخلعوه على قلوب أمهات لهم توسدن الثرى منذ أمد بعيد .
بكت من أجل ابنها الرضيع الذى لم تطأ قدماء الأرض فى خطوة واحدة

وكان واقدا فى حجرها عليه أغطية ثقيلة ولكنها تحتضنه لتهدى إليه من حرارة جسمها ما يدفئ جسمه الناحل . ويجنبها زوجها وهو فى الثلاثين يرتدى ملابس الشرطة ويترقق على وجهه الفقير ماء الشباب المخصب . كانا يتبادلان النظر فى يأس وسكون تتنهد بعده الزوجة كأنها تقول : لقد عيبت بالدعاء . يظهر أنه لافائدة . ومرت برهة حسرت بعدها الغطاء عن وجه الوليد فبدأ وقد عرقه المرض . وأيقنت حين رأيته أن أضواء الحياة فى سبيلها إلى أن تجمع آخر خيوطها عن وجهه ، لكنها على الرغم من هذا مالت عليه فقبلته ، ومال عليها قرطها الكبير لميلها حتى قبلها فى أسفل عينها . ثم أخرجت من صدرها لابنها رمانة الحب ، ونبع الحياة لكل طفل بعد أن سترته بطرحتها الخفيفة ، وألقت به إلى المريض فأعرض عنه لأنه لم تكن به حاجة إلى الدنيا ولا غذاء الدنيا فاسترجعته ندية العينين ثم ألقت بالغطاء على وجه الوليد ثم نظرت إلى زوجها من جديد فمال هذا عليه بود أن يفديه بأى شيء ، بل ويكل شيء حتى ببجاهه الذى تجلت شارته على ذراعه فى شريطين مكسورين على هيئة رقم سبعة يحتضن كل منهما الآخر . وفهمت بعد ذلك من إشارتهما المرتبكة أنه لم يبق لهما إلا أن يدعوا الله أن تصمد فى طفلهما حشاشة الروح حتى يصلا به إلى القرية .

كان هذا الحنان - ولو أنه متشع بالسواد - زغرودة ناعمة تحت نافذة حزينه ، انتفضت به جراح قلبى يظهر بعضها بعضا حتى لم أعد أحتمل . لكننى استسلمت للأقدار وأسلمت بصرى إلى النافذة وجعلت أعد أعمدة التليفون التى تتراكم إلى الخلف وأنا واضع رجلا على رجل وأوقع بالثابتة منهما على أرض العربة لحنا يوائم أفكارى ويتسق مع أحوالى .

لم أكن قد رأيت القاهرة قط قبل رحلتى هذه ولكننى عرفت بها بجلال منظرها حين وقف القطار فى محطها الكبير وتدافع الراكبون نزولا منه على

هيئة تذكرنا بسلوكنا على الأرض : فيهم من يمشى خفيفا نظيفا لا يشغل ذراعه إلا مظلة من الحرير يتوقى بها ما عسى أن يكون من مطر : وفيهم ذوو الأثقال الذين يجدون من يحمل عنهم أثقالهم فيمشون هم وراءهم يحسون زهوا بدريهمات يشترون بها أنفاس الناس : وفيهم ذوو الأثقال الذين لا يطيقون أن يحملوها لأن كواهلهم أضعف منها ولا يطيقون كذلك دفع الدريهمات التي تشتري بها أنفاس الناس ، وقد جلس هذا الفريق أو وقف فى سدور وحيرة على الرصيف ذى البلاط المربع فى انتظار حل الأقدار التي لا تستعصى عليها عقدة : وسرت أنا بين هذه الجموع حاملا حقيبتي الورقية التي جمعت بين دفتيها كل متاعى حتى أسلمتني الماشى والممرات إلى الأبواب الحديدية الكبرى التي ينصب منها الخارجون فى الميدان الرئيسى عند مدخل المدينة ، ولم أكن أفكر فى مكان بذاته جعلت وجهتى إليه بل جاءتني الفكرة عارضة حين توقفت قليلا أمام أحد رجال الشرطة لأسأله فى انكسار خوف من المجهول عن أقرب طريق يوصلنى إلى السيدة زينب ، فلما أجاهنى وإحدى يديه تستند الهندقية المركوزة على الأرض وبده الأخرى تعبث بشاربه الطويل ، ابتسمت خفيفا فى شيء من السخريه من سيطرة اسم زينب على أزمة حياتي أنا وأمي !!

وتبذلنى الترام فى قلب الميدان ، ميدان السيدة . وكان اليوم شديد البرد فلم يكن مزدحما بالناس وقد انزوى هنالك إلى جانب السور بعض أبناء السبيل الذين أخذت هيئتهم تناغينى وتبشرنى بأن لى مستقبلا باهرا فى التشرد . على حين كان هناك عند مدخل الشارع عربتان متقاربتان تشوى إحداهما ذرة وتشوى الأخرى بطاطة . ثم أخلط من الوجوه والأزياء والألوان كنفس الحقائق التي تركتها فى الإسكندرية ، نعم .. نفس الحقائق فلا تغير إلا فى الأسماء .

واستعرضت سريعا برنامج النصائح التى قدمها إلى أنور أمين وكانت أول حلقة فيها أن آوى إلى نزل رخيص الأجر فى أيامى الأولى . على أننى وددت أن آوى إليه طول حياتى أو أن يكون فى مقدورى أن أستأجر بيتا لأن الهيام على الوجه بدا لى عملا شديدا ارتجفت له أوصالى قبل أن أقع فيه . وفى « لوكاندة السيدة زينب » العتيقة التى ترى لكثرة ما احتضنت من نائمين كأن نوما يكاد يرتق بأجفانها وكأنها على وشك السقوط .. فى هذه اللوكاندة جلست أقدر الأيام التى تفصل بينى وبين الهاوية التى كان الجوع أهم ما يخيفنى فيها . حقيقة أن الطعام الذى كانت تقدمه إلى أمى لم يكن يكفينى لأننى سليم أكلول ولكننى لم أكن أحس عضة الجوع على أحشائى ، من أجل ذلك كانت معدتى أهم ما يشغل خاطرى وبشتت فكرى. قلت فى نفسى : إن الله قد من على بمنة كبرى هى هذه المعدة ولكنها كल्प الهاشوية يمنحه الفقير .. شىء يحتاج إلى نفقات ليست فى متناول اليد فهو لذلك مثار ألم لا منبع لذة ولا مصدر راحة .

ثم عدت فحسبت النقود واخططت فى حسابى خطة فكهة ، قلت بعد أن أحصيتها : حسن .. إذا أردت أن أحيا كما يحيا الأدميون مكفى المؤونة مقضى الحاجة أكل ثلاثا وآوى إلى مسكن فإن المبلغ يكفينى عشرين يوما . ثم سكت ، وفكرت ، ودهرت ، واستعنت بقانون « النسبة والتناسب » الذى درسته فى الأيام الخوالى ، فقلت : ... وإذن أستطيع أن أعيش به أربعين يوما كاملة إذا اقتنعت بأن أكون نصف آدمى ، وكثير من الناس أنصاف أو أرباع . ثم سكت وتنهدت . ثم فكرت ودهرت . ثم عدت فاستعنت بقانون النسبة والتناسب فقلت : إن العقلاء دائما يأخذون بالأحوط فلماذا لأجعل ثلثى آدمى وأهمل ثلثى الباقين فأعيش بهذا المبلغ ستين يوما ؟ .. أجل ستين ، فيها ملايين من الدقائق والثوانى التى لا نأبه لها فى حياتنا العادية،

ولكنها فى الملمات .. تدخل فى الحساب .

يا الله !! شهران !! وبعد الشهرين يارب !! جوع وتشريد ، وشعر طويل يطل من حافة الطربوش ، ووجه شاحب وعينان زائغتان وجسد تفوح منه رائحة العرق . وحولنا أناس نظاف لطاف ، لكنهم غير رحما . لأنهم يتقززون من أمثالى . إذن فما العمل . بعد أن تنتهى الهدنة ويهاجمنى الزمن بناره وحديده وأنا ضعيف أعزل ؟! وجعلت أقلب كفى وأهز معهما رأسى كأننى آلة حتى أفقت على نظرة حادة خائفة مستربة يرشقنى بها أحد النزلاء والشركاء معى فى الحجرة ، فكفت يدى عن الحركة لكن وثبات ذهنى كانت على أشد ما تكون وأنا أقول فى ضميرى : ما العمل ! ما العمل ؟! .. وذكرت الموت الذى يسعى إلى الناس أو يسعى إليه الناس فأحسست راحة اليأس ، فارقيت على فراشى .

وأظنك لست فى حاجة إلى معرفة حالى فى الأيام الأولى من إقامتى فى « القاهرة » ، لأنها كانت حال إنسان يأكل ثلاث مرات فى اليوم - على الرغم من جيبه - وهذه هى فى نظرى حال كل إنسان كامل !! ويخيل إلى أن الخوف من الجوع يغرى المعدة بالطعام ويذكرى شهوتها إليه كأنها تريد أن تفتنم الفرصة كلما تمكنت منه ، وقد كنت أكل وأنا ناغم على نفسى شدة الرغبة وأستبقى اللقمة فى فمى مدة طويلة بعد المضغ لكى أحس لذتها إلى مدى أبعد قبل زمان الجوع . وقد طالما ذكرت المعبودين والمبطينين وفتيت أن أكون واحدا منهم . حكمتك يا رب !! تخلق بطونا فى سعة البراميل ثم تملؤها بالقطارة ، وتخلق بطونا قدر حق العنبر ثم تملؤها بخراطيم الحريق .. حكمتك يارب !!

وكان على أن أدور لأبحث عن عمل ما ، وكان اللف والدوران مدعاة إلى هضم الطعام فى زمن أقل من المقرر ومدعاة بالتالى إلى تطلب المزيد منه

فى الأكلة التالية وذلك خطر يشغل الذهن لا يعرفه إلا من عانى الجوع لمد
طويلة فى فترة من حياته . على أن لفى ودوراني قد كانا كلف الخدروف ،
حركة وطنينا لاطائل تحتها ، وذلك لأننى كنت أقف على باب متجر أو
مصنع وقفة الخجلين المترددين أقدم رجلا وأؤخر رجلا قبل أن أسأل عن عمل
مناسب . فلما آن الأوان وحملنى القلب وأطاعنى اللسان سألت أول مرة عن
عمل ، وسألت بدالا فى الخمسين من عمره يجلس على مكتبه بهجة وقفطان
وطربوش وحوله عمال يجولون فى المتجر كما تنتقل النحل فى الخلية . دخلت
عليه بخطا مترددة وخاطبته بكلمات متعثرة أسأل عن عمل . فلم يزد على
أن هز رأسه بالنفى ولم يتكلم ، لكن عينيه قالتا كثيرا فى فترة قصيرة
وكانت تفيضان بالشك والحذر والريبة وكأنهما تقولان فى سمة سخرية : وجه
أبرار وفعل أشرار !! فخرجت أقلمل !!

وخلفت لى هذه التجربة عقدة كنت غنيا عنها . فقد جعلتنى لأجرؤ على
الإقدام نحو مخلوق آخر لأسأله عن وظيفة حتى استحال السؤال عن الأعمال
فى خاطرى إلى معنى من معانى التسول مقنع مستور . ثم جعلنى كذلك
أوجه نشاط فكرى إلى ناحية سلبية خالصة هى ضغط مصروفاتى وشد
الحزام على بطنى ، وعرقلة سير معدتى كما تحفر الخنادق فى طريق
الدبابات .

ويعر اليوم العشرون فيطوف بخاطرى طائف يهتف بى شديدا مذكرا بقوم
ومواطن : فذكرت « سكينه » وأهلها ، والأرض الطلقة البهيجة التى حنت
على بؤسى فترة من الزمن . وذكرت وداعهم لى ووعدى بأن سأكتب إليهم
حين تستقر بى الإقامة ، وأنه يجب أن أكون البادىء بالكتابة . وطلبت ورقة
وقلما وشرعت أكتب بعنوان الحاج « عبد المجيد الهدال بعزبة » خورشيد «
إلذى كانوا يشتررون منه حاجاتهم . وكان الخطاب باسم « عم خليل » والشوق

إليهم جميعا لكن الحب كله كان « لسكينة » وكنت واثقا أنها ستأخذ الخطاب وتختلى « بالبسطامى » فيقرؤه عليها علها تجد بين السطور شيئا أهديته إليها .

قلت لهم فيه : إننى لم أتسلم عملى حتى الآن وأن « القاهرة » جميلة غير أنه ليس بين ضواحيها مثل عزة « خورشيد »

وقر الأيام وأدخل اللوكاندة فيخبرنى صاحبها أن لى عنده رسالة حملها إلى البريد وارتعشت أنا ملئ حين عرفت خط « البسطامى » على الغلاف وجاشت نفسى بحب وشوق شديدين وأنا أقرأ عبارات متعثرة ضعيفة أراد كاتبوها أن يعبروا عن معان سامية .. ولعل أوضح ما استطاعوه أن قالوا : إن فئة جديدة من الدجاج قد بدأت تنقر الحب وأنهم أطلقوا اسمى على دجاجة بيضاء جميلة يبدو من حاضرها أنها ستكون فى المستقبل خير ما فى الدجاج كله .

وهكذا عشت على الفتات فى كل شيء ، أقدم لبطنى فتات الخبز وأطعم قلبى فتاتا من الذكري ، لأن الحياة شئت ذلك . شئت لى أن أعيش قطا شريدا يجثم تحت كل مائدة يوما ، لكنى رضيت بالمقسوم وعزوته إلى أننى أهل له : فأنا إنسان ناقص المواهب تغلى عنه أبوه - من غير قصد ولا حيلة - وأبنته فى أشد حاجة إلى رعايته . فلما أرادت المقادير أن تسخر منى ممعنة فى السخر ، حين أوهمتنى أن غربيا سيسهر على زرع غيره . لم أنخدع فيما أرادت فثرت عليهما معا ، على الغريب وعلى الأقدار . ثم عدت فاستسلمت لها وحدها .

ويجن الليل ويمعن ميدان « السيدة » فى السهر ثم يركن إلى الراحة فترة تسكن فيها الدنيا وترقد الحياة فتنتطق أفكارى وأنا فى سريرى فأذكر « الإسكندرية » ، وبيتنا على البحر ، وشقتنا التى ترتفع عن الأرض بأربع

درجات ، ووهيبة ، وعربة الترمس ، والأنف الملتهب » ، أذكر هذا كله لأمر يجد فى اللوكاندة ، وقد يتكرر كل ليلة حين أسمع فى حجرتى أنا ، أو فى حجرة أخرى شخير نائم . ويجنح الفكر ويلح الخيال ، فأحاول أن أتصور ما حدث « لأم مختار » عقب غيابى ، فأراها تارة كاسفة حزينة ، وأراها تارة تهز كتفيتها بلا مبالاة ، ثم أراها تارة ثالثة وقد تنفست تنفس الراحة ، فيحز هذا كله فى قلبى لأن حنو الأمهات علينا فى المعنة يهز القلب ، كصدود الأمهات عنا فى المعنة.

وإذا كانت الحاجة تفتق الحيلة كما يقولون ، فإننى تفننت بعد انقضاء الشهر الأول فى طرق الاحتيال على إسكات المعدة . ومن ذلك أننى كنت أجمع بين أشبات من الطعام . رخيصة متناقضة أو بعضها رخيص جدا وبعضها متوسط الثمن ، فأبعث بذلك خدرا فى معدتى العنيفة : شريت كويا من اللبن ذات صباح ، وأكلت بعده مطرين من الذرة ، ووطلا من البطاطا . فأحسست بعد قليل أن جلد بطنى مشدود كأنه دف يتطلب كف ناقر ، وتشاء المقادير أن أهتدى إلى عمل فى أحد المتاجر الكبرى فى اليوم نفسه ، لكنه لم يكن يوافق « مواهى 11 » فقد قيل لى ساعتئذ : إننا فى غير حاجة إلا إلى عامل مصعد فبدأت عملى على الفور فى صعود وهبوط بين طبقات أربع أوزع أشباتا من المخلوقات تنظر كلها إلى بعيون متكبرة عظيمة وأنوف شامخة ، حتى جعلونى أحس ذلة وضعة ، قسرتنى على أن أتذكر الماضى ، فأزعم بينى وبين نفسى أننى كنت سيذا فى يوم ما ، ألم تكن « وهيبة » تخلع لى هذا اللقب ١٢

واضطربت ، وخلت أن أحدى بدوائى فى طريقها إلى الظهور ، والبدوات كالدموع إن ذكرناها وجدناها . أولعها كالشياطين . وضاق ذرعى بالناس ، واشتد ألم بطنى فأحسست بالغثيان والدوران فى وقت واحد ، ولم

تكن هناك فرصة أقول فيها لأحد : أمهلنى من فضلك . واستقر المصعد بنا على الأرض . وأشارت إلى إحدى السيدات بأن أساعد بنتها فى لبس المعطف ، وكانت إشارتها قاسية جدا تحمل كل معانى السيادة فلما أعرضت عنها صرخت محتجة ، لكنه لم يعنى منها شىء ، أما الذى عنانى فهو أن المدير استدعانى بعد فترة وقال بلهجة قاسية :

- أيها المغفل .. لقد ارتكبت خطأين : خطأ المخالفة ، وخطأ طرد الهبة .. فحاذر أن تعاودهما مرة أخرى . فذكرت ساعتئذ أننا عبيد نسود عبيدا وكلنا أذلاء ، لكننى اليوم قد قضى على أن أكون فى الدرك الأسفل من العبودية .

وكان الدوار قد بلغ منتهاه ، حتى خيل إلى أننى أخطب الرجل من طبقات مختلفة : أقول الكلمة الأولى وأنا فى الدور الأول ، والثانية وأنا فى الثانى ، والثالثة وأنا فى الثالث ، ثم أهبط فأقول له الرابعة وأنا فى الثانى والخامسة وأنا فى الأول وهكذا . ثم لعل عيني برقتا بمعنى السيادة وأنا أقول ما أقول ، وإن كان جلد بطنى مشدودا بشبع مؤلم . ورأيت المدير كأنه يهم أن يطردنى ، فلم أشأ أن أستكمل المذلة ، فنظرت إليه من فوق كتفى وأنا خارج من المتجر وقلبي يهتف : ليحيى الجوع .



جعلت أوازن بعد أربعين يوما من إقامتى فى « القاهرة » بين حالين لاختار بينهما : حال رجل يبيت فى مأوى ولكنه جائع ، وحال رجل ينام جنب جدار لكنه شعبان - فلم أصل إلى نتيجة حاسمة .

على أننى عدت فاستعرضت ما قاله أنور أمين ، فقلت فى نفسى : فلأجرب . وجعلت أنقب فى المنطقة كلها عن مسجد تتوافر فى خادمه الشروط المطلوبة حتى آوى إليه ليلة من الليالى . فرأيت فى الأول خادما

عملاقا طويلا ناحلا ليس فيه شىء أقوى من عينيه . ووجدت فى الثانى شيخا كهلا مسنا لكنه يعتمد فى الخدمة على ولد له فهو يرى ببصره وذلك غير المطلوب . ثم قادنى شارع « درب الجمايز » المتلوى المعوج النكد الضيق ، الذى يذكرنى بدروب الحياة كلما عبرته - قادنى إلى مسجد صغير ، رأيت فى خادمه الرجل المطلوب : خيل إلى ساعة بصرت به أن عينيه لم تولدا معه بل قد ورثهما جارحتين مكدودتين عن أبيه الشيخ الذى مات ، غابت أحداقهما فى دمة لاجئ وماتت أجفانهما فى مياه الفيضان وأحدثت بهما الحمرة فهو يتلمس سبيله بكلتا يديه .

رأيت عصر يوم ، وعدت إليه فى مسائه ، قضيت صلاة العشاء وكنت فى المصلين وآثرت أن أكون بجوار المنبر . وخرج الناس وجعلت أتلکأ ، وكان آخر ما سمعته فى ذلك المسجد المتوسط المساحة صوت رجل من العامة استوقف الإمام وهو فى طريقه إلى الانصراف ليستفتيه فى يمين طلاق حلفها على امرأته فجعل الشيخ يرسل فتواه محرجة كريهة حتى أطبقت على عنق السائل كما يطبق حبل المشنقة ، وقد جعلتنى أحس أن قوانين السماء لم تنزل لإسعاد الناس وأن قوة نائمة خفية تعمد إلى أن تنفس ما بها فينا . ثم أخذ الصوتان يبتعدان حتى غابا عنى تماما بعد أن عبر صاحبهما الباب ، فلم أسمع إلا دق الخادم على خشب النوافذ ليتأكد من أن المصاريع مقفلة وكان على بعد منى فلجأت إلى جوف المنبر ، وكان ذا باهين على الجنين ، فرأيت فى داخله على إشعاع الأتوار فى السقف سقط متاع للخدمة ، فيه مكانس قديمة وخرق وقباقيب وكيزان . وتنحنح الرجل كأنما يريد أن يوهم من هناك بأنه يراه وأنه بانتظار أن ينصرف حتى يطفىء النور ولكنى جثمت فى مكمنى أغالب أنفاسى . وأخذت الأضواء تختفى واحدا فى أثر واحد فلم يبق إلا مصباح أخير قريب من الباب كان آخر ما أطفئ . ، وساد الظلام

وصر المصراع الكبير ليقفل وأدير فى غلقه مفتاح غليظ كان آخر ماسمعه فى هذه الليلة ثم أطبق سكونه كأنه سكون المقابر .

خرجت من جوف المنبر أستمع إلى دقات قلبى وأتحسس شعر رأسى الذى وقف جميعه . وتذكرت « أنور أمين » فدعوت عليه بكارثة ثم ندمت على أننى لم ألبأ إلى .. إلى ماذا ؟!.. مقبرة ؟ لا بل عمارة جديدة . ولم يظلل بى الفكر فخلعت سترتى ووضعتها إلى جوارى وأخرجت البطانية الحائلة من الجريدة القديمة التى كانت تحت إبطى وأنا داخل المسجد وتقدمت وألقيت الغطاء على جسدى . ولكن هل تظن أننى سأنام ؟! محال .

لم أكن أعلم حتى هذه الليلة أن للسكون صوتا يسمع . كان هناك أزيز خفيفا مبهم ينصب فى مسمعى كأن الليل يحدث نفسه ، ثم شاءت الطبيعة أن تقسو على . فأرسلت من تحتى شواظا باردا نفضه البلاط فنقذ من الحصر الذى نمت عليه للمرة الأولى . ثم سمعت خفق الرياح فى أحد المناور ، ولم ألث قليلا حتى اهتزت بزمجرة الرعد ، وخيل إلى أن مخلوقا ضخما هائلا لست أعلمه يجذ فى مطاردتى وأننى لاشك مهزوم ، فقممت أتلمس الطريق لأهتدى إلى زرار النور ، وماكدت أخطو خطوتين حتى تقلص جلدى بقشعريرة عظيمة وتوهمت أننى بعد قليل سأمسك بأنف شيطان وأنا أتحسس الطريق فى الظلام الدامس فاصطدمت بإحدى السوارى وأنا أترجع فزاد ارتباكى ورأيت من الأفضل أن أعود إلى مكائى قبل أن تفصلنى عنه مسافة طويلة ، ولكنى قطعت كيلو مترات حتى اهدتيت إليه . قلت فى نفسى وأنا ألفت جسدى من جديد بغطائى الحائل وأستمع إلى زمجرة الرعد : أهكذا تطول المسافات علينا فى الظلام ثم تتبدل الأماكن ؟! ثم ذكرت مراقدى المختلفة التى نبذتنى إلى هذا المرقد : ذكرت مرقدى فى ظلال أبى وأمى ، ثم مرقدى فى كنف أم مريضة لكن فيها أثاره من حنان ، ثم مرقدى بعد أن

زهدت فى صحبتى وفصلت مصيرها من مصيرى ، ثم مرقدى على السرير
 المأجور الذى أرهقنى أجره فأسلمنى إلى هذه الضجعة . وأخذت نفسا عميقا
 ولم أكن أعلم أن الدنيا تمطر فى الخارج إلا حين أخذت قطرات من المطر
 تتساقط على الحصى من بعض نواحي السقف فترن فى سكون الليل رنيننا
 أزعجنى أول ما وقع ، فدعوت على « أنور أمين » بكارثة !!
 وأغتننى هذه التجربة على أن أعاودها مرة أخرى كما أغتننى تجربة
 المصعد على أن أسأل عن عمل ولو إلى فترة : فاستسلمت للحرمان مدة
 أطول وبدأ جسمى يتغذى بجسمى : فاستسعت بنيقة قميصى وشحب لونى
 الناضر وكل بصرى فلم أعد أرى إلى مسافات طويلة فعرفت معنى
 الشيخوخة وأنا فى الشباب وأدركت أن الحياة لقمة تدخل الجوف .
 لكن ذلك لايعنى أن المشكلة قد حلت فإننى ما زلت فى موقف رجل
 يوازن بين المأوى والطعام ، ولعلك تدرك مشكلة المأوى يوما لأنك لم تتعرض
 لها .

وقفت بعد ليلة واحدة من تلك التى حدثتك عنها فى شارع درب
 الجماميز أسأل نفسى كيف أبيت ؟! لأن دراهم معدودة هى التى باتت فى
 كيسى . من خلفى سور مدرسة عال عتيق ، كالح حائل غسلت أمطار الأيام
 عنه بياض الجير ، وعن يمينى مصباح من المرافق العامة يضىء الطريق وكان
 يخبو وينتمش كأن فى جفنه سنة من نوم . وعن يسارى صندوق البريد الأحمر
 مثبتا فى الحائط . وعلى قيد أمتار من موقفى على الرصيف يأخذ الشارع
 فى الالتواء بحيث يغيب عنى كل سائر فيه . وقفت أفكر فى المبيت
 والدرهمات قليلة ، وكان كل مايقع عليه نظرى فى طريقه إلى « السكن »
 ويخب إلى « السكن » : فهذا بائع قصب يدفع أمامه عربة يد خاوية من
 البضاعة ليس عليها إلا الزعازيع التى تخشخش مع جعجعة العجلات ،

مشمرا أذيال جلبابه إلى ما فوق ركبته بمندبل ، وعليه شملة قديمة تدفع عنه رطوبة الليل ، ويمشى ملقيا ببعض خاطره إلى الطريق مستهلكا ما بقى منه فى أغنية خشنة لكنها تقيض بالسعادة يرددها لأنه « جبر » ثم هو فى طريقه إلى « سكن » .

وهذا « عربجى حنطور » يختفى فى منعرج الشارع . جلس على كرسية العالى بلباسه التقليدية التى ترى أهم مميزاتها سترة واسعة ومتديلا يلفه على الطربوش فيغطى أذنيه . وهو جالس فى تهالك المرتاح يسوق جواديه فى تسامح وفتور بعد كد النهار ، وهما متفاهمان معه تحت فرقة السوط الخفيفة على أنه لا داعى للعجلة فإنهما ساعده منذ الصباح على رزق أربع وعشرين ساعة . ثم هو بعد ذلك كله فى طريقه إلى « سكن » !

وتلك متسولة عجوز فى ميناها عصا وفى يسراها بنية شعشاء غرباء تقود خطأها عائدة بها وعلامات الرضا بادية على وجهيهما لأنهما وإن دارتا ولقنا طول النهار وجزءا من الليل - آخذتان طريقهما إلى « سكن » ! .
حتى الهرة والكلاب يبدو على وجوهها أنها تقصد إلى مكان بعينه معروف مألوف لأنها سائرة لا تتلفت !!

إلا أنا وحدى فقد كنت واقفا فى المنعرج أقلب وجهى فى السماء ثم أرمى بنظراتى على الأرض ثم أنظر صندوق البريد من ناحية ومصباح الشارع من ناحية أخرى ، حتى إذا ما بدا لى أن عيني ستأخذهما غفوة وأحسست للذعة البرد واستدرت ميمما « لوكاندة السيدة زينب » لأنام .. ثم يديرها من لاينام !!

فلما دخلت على صاحبها الشيخ المسن الساهر أومات بالتحية فأوما إلى بيده لأن نوبة حادة من سعال الربو كانت تجلده فى هذه اللحظة .
وأصبح الصباح فمن لى أن أفحص متاعى ، ولست أدري لماذا ؟ ولكن

لعل السبب هو أننى كنت وحدى فى الغرفة . فتحت الحقيبة وجعلت أعد قائلا : بذلتى الثانية .. قميص .. بذلة أبى رحمه الله .. معطفه !! ساعته!! ووقفت عند الساعة لأن معدتى أمرتنى بالوقوف ، ثم أبرقت إلى مخى لتسأله : لماذا لاتباع هذه الساعة ؟! الراقدة فى قاع الحقيبة كما يرقد الجثمان فى التابوت ولعلى كنت كمن يسأل : هل أبيهما ؟! وخيل إلى أن ملامح الرجل تقول : لست أدري يا بنى .. والله إننى حائر ! لكننى انتهت بفتة إلى منديل نسوى فى قاع الحقيبة ، نظرت إليه بذهول لأنه أحد مناديل أم مختار التى كنت أراها فى يدها فأى ريح رمت به فى هذا المكان المعادى ؟! ثم زال عجبى حين تذكرت أنها خلعت على وهيبة فى يوم ما ، لكننى عدت أسأل نفسى عن سر وجوده ، وأمسكت به فألقيته معقودا على شىء . فجعلت أحل العقدة بيد راجفة حتى رأيت ماجملنى أستغفر الله للمذنبين والقاسية قلوبهم على أديم الأرض ، كل ذلك من أجل وهيبة التى خلعت قرطها الذهبى وربطته فى المنديل وأودعته أحشاء الحقيبة حتى تعثر به يمينى فى ساعة العسر ؟!

جعلت أناقش الأصل مرة أخرى وأسأل نفسى عن أحجية بدعوها وأطلقوا عليها اسم الأصل والمحتد . ثم هتفت قائلا : تعالوا وازنوا .. هذه خادم ، وتلكم هى أم !!

واستبشرت بالهدنة التى جاد بها على الزمن فأجل زحفه بالنار والحديد، ومررت فى طريق خروجى بالحاج « مرسى » صاحب اللوكاندة فسألته عن حاله فشكر الله بلامح تشى بالألم فقلت له :

— صبرا يا عم الحاج فقد كتبت علينا الحياة .. نعم صبرا فإنها دنيا متاعب ، فلا تحزن .

وتبسم الرجل وهممت أن أسير لكنه استوقفنى فى تعطف ثم طلب إلى

الجلوس فى حنو وحذب أثلجا صدرى لأننى شعرت أنتى حيال قلب يرئى
لبلوى الناس .

كانت لحيته مرسله وبائع السواك خارجا من بين يديه منذ ثوان وعلى
المنصة أمامه عدة أعواد منه مختلفة الأطوال ، وتفوح من أردان ثوبه رائحة
عطرية ساذجة لكنها جميلة من تلك التى تفوح غالبا فى أضرحة الأولياء . وبين
رواد المساجد . ومال على عم « مرسى » يستوضحنى جلية أمرى قائلا لى :
— يخیل إلی یا بنی أنك مختلف مع أهلك لأن مثلك لا يزال مكفولا
وأن هوة الخلال بينكما لاتجد ساعيا بالإصلاح ، فهل أنا صادق الفراسة ؟
فهززت رأسى بالإيجاب ، فاستطرد يسأل :

— وهل تنوى العودة إليهم ؟ إنك فيما يبدو طالب انقطع عن الدراسة :
وجه طالب ، وزى طالب ، وهيئة شاب لم يصطرع قط مع العيش الخشن .
قلت موجزا :

— كل هذا صحيح .

فقال :

— وماذا تنوى أن تفعل ؟

فأجبته :

— سأهتدى إلى عمل ما ، فلن أعود .

فسألتنى بهتان وهو يتحسس لحيته :

— وأين أبوك ؟

فأجبته :

— مات من زمن !!

فأمسك شعر ذقنه بعنف كأنما خشى أن تسقط يمينه ثم التمتعت عيناه
بالحب .. حب الإنسانية كلها ، وعاد يحاور :

— وأمك ؟

فأطرقت نحو الأرض وتحركت شفتاى دون أن تقولاً شيئاً دارتاً على
« الفاضى » كأنهما آلة !! وأحسست سخونة تلهب صوانى أذنى وبقيت
هكذا إلى أن سمعته يهمس :

— تزوجت ؟

« وكان يسأل عن أخف ما يحدث » فأومأت برأسى أن نعم . فقال
مسلياً :

— حوادث عادية تقع لكثير ، لكن الإحساس المرهف يخرجها عن حقيقة
أمرها فيعتبرها منكراً .

فتنهدت ولم أجب وأحسست أننى بلغت قمة الراحة وكأن الأحمال
الثقيلة التى أنقضت ظهرى قد استحالت بفتة إلى ثوب من الحرير . ولم تطل
فترة الصمت فقال الحاج « مرسى » :

— عندى فكرة .

قلت :

— مرحباً بها .

فقال :

— تجلس مكانى على هذا الكرسي ككاتب للوكائنة حتى ييسرها الله
لك .

فنظرت إليه باسماء وقلبي يدق ، وزايلتنى آلام الجوع والنعمة فى لحظة
قصيرة وعجبت كيف يستطيع الزمن أن يدبر أمر الطعام والسكن فى نفس
واحد . لأن الحاج « مرسى » كان يشير إلى حجرة صغيرة ذات واجهة خشبية
أقيمت تحت منحنى السلم بعد « باب الوسط » الذى قسم مدخل المنزل إلى
قسمين أحدهما خارجى مباح والثانى داخلى مكنون . وكان فى الحجرة سرير

قديم صغير . لكنه سرير . وغطاء يصلح للصيف والشتاء . وتبع هذه
الحجرة مرتب ثلاثة جنيهاً لا يدخل فيها أجر المسكن . وقال لى الحاج
« مرسى » يوم سلمنى كرسى الإدارة :

— آن لى أن أستريح اليوم لأن نوبات الربو أقلقنت شيخوختى . دعنى
أعتبرك ابنا ، أبقاك الله ، لأن الموت كان يتربص لأولادى عند مدخل
السادسة عشرة من أعمارهم !!

— ٨ —

لم أعد بعد وظيفتى هذه أقتات بالحلبة الخضراء ، وأنا منزو عند
مدخل الحارة لأتوارى من الناس ، ولم تعد يدى تنازع فمى جذورها حتى
لا يلتهمها مع مايلتهم . ولم أعد أشد الحزام على بطنى ، ولم أكن دفا بعد
ذلك يأكل البطاطا مع اللبن ، بل أصبحت إنسانا يأكل ثلاث مرات فى
اليوم ، ويرسل من فوق كرسية نظرات فاحصة من عينيه الجميلتين إلى من
عسى أن يرتاب فى شأنه من رواد « اللوكاندة » ، وكثيرا ماكففت شرة
الإمارة وذكرت الماضى القريب الشمس ، وأنا أرشد الخادم إلى بعض واجبات
أغفلها .

إنها الحياة يا صاحبى ، إنها الحياة !! أشد مانكون تعلقا بها ، أشد
مانكون يؤسا فيها ، وإلا فلماذا نطلب اللقمة فيها بالعنف أو بالحيلة حين
يعضنا الجوع ؟ أليس ذلك راجعا إلى أننا نقبل الحياة وهى تركلنا ،
وتنضحها بالعطر وهى تقلدنا بماء النار ؟! أظن ذلك .

وحين أصبت أمنا من خوف وشبعا من جوع ومأوى من ضلال ، فكرت
هاذنا وفهمت فى تبصر . ثم اتخذت قرارا نهائيا ، فى الواقع مفروضا

على ، وهو أننى لن أعود إلى بيت أبقت منه ! على أنه كان ينبغي أن أسأل
نفسى : ومن ذا الذى كان يتطلب عودتى ؟ لكننى هربت من السؤال ومن
الإجابة فى وقت واحد . واستقرت فى موقفى كما تنقطع ذهبة الشىء ،
تلقيه على الأرض بعد فترة من الزمن . وبدأ لى أن أتطلع إلى آفاق الحياة
بعد بضعة شهور أقمتها فى العاصمة ، وتمنيت أن أحظى بشيئين اثنين
أقسم بعدهما للزمن أننى لن أستأنف مطالبتة مرة أخرى : عمل حكومى ،
وحجرة لها نافذة تطل على حارة ، أنقل إليها متاعا قديما وأنظر من شباكها
إلى الدنيا ، فأخلص من مقبرتى تحت السلم ، ثم أعلق على أحد جذرائها
صورة أبى ، ويهنىء كل منا صاحبه بالفرج بعد اليأس والحيرة بعد العبودية،
وهذه هى مأسى !

أما شئون قلبى فإنها توارت مؤقتا عن خشبة المسرح وجرت إلى
الداخل ، وإن كان حبنى « لسكينة » خلية كمنت فيها الحياة حتى تمر
العاصفة و « عجب الذنب » الذى ترقد فيه إلى يوم البعث . فلولا..
« سكينة » لكرهت النساء . ثم ما لى أنسى « وهيبة » التى لم تكن تتردد
فى أن تمنحنى يكل مايسعد !

واقترضت شئون قلبى على تبادل الرسائل بينى وبين أسرة عم « خليل »
وأعترف لك أن عدة منها جاءتنى فلم أرد عليها إلا بعد أن اشتغلت كاتبها فى
النزل . أعنى بعد أن صرت أنظر إلى خمسة المليمات على أنها ليست
كارثة .

وأخر أنباء هذه الأسرة أن « البسطامى » سينقطع عن الدراسة بعد هذا
الضيف ، وسيأخذ فى مساعدة أبيه فى أعمال الخقل ، وأن شابا من مركز
أبى المطامير طلب يد « سكرة 11 » قلت فى نفسى وكأننى فى حلم : ما لى
أنا « ولسكرة » فأنا لأعرف إلا « سكينة 1 » ثم تبسمت فى مرارة ووضعت

القضية فى الميزان أمام صنجات مختلفة قلت : لعلهم يثيرون فى رغبة الرجل فى احتجاز امرأة وهذا هو أقسى الفروض . ثم لعلك تذكر ما قد أعربت لك عنه فى أحجية المحتد ، ومعنى هذا أن حائلا اجتماعيا قد لا يقوم بينى وبينها . ولكن المسألة مسألة مستقبل !!

كانت سفينة حياتى فيما مضى مسيرة بدفتين اثنتين إحداهما فى يدى والأخرى فى يد « أم مختار » ، وكان من المستطاع فى سالف أيامى أن أتهمها - ولو بينى وبين نفسى - بأنها هى التى أغرقتنى . كما كان من المسبور عليها أن تنحو على باللائمة ومثل هذا الاتهام . أما الآن فالدفة فى يدى وحدى وأنا المسئول ، فعلى أن أنظر الأفق ، وأن أحاور الموج وأنزل الريح ، ثم لألوم أحدا . لذلك وجدت الزواج فكرة سخيفة ، بل والارتباط بأى وعد فيه : لأننى رحمت الناس : رحمت فتاة عادية كانت أو حبيبة ، أن أربطها بعربتى الهالكة أو بحظى العائر ، ولم أرض لها أن تقاسمنى حزام بطنى حين أشقه فيشد كل منا على بطنه نصفاً . ورحمت أطفالاً سألهم كثيراً ، من أن ينظروا إلى نظرات متوسلة فيها ضعف وبراءة .. ثم يطلبوا منى طعاماً أو لباساً وأنا عاجز !! أستغفر الله ، بل إنى رحمت نفسى فإن قلبى الذى ذاق الحرمان من حلوى الحنان ، لا يقوى على تعذب وليد ، ورحمت المجتمع كله أن أهدى إليه مرضى جسمهم أو مرضى قلوبهم فأمد السجون بتزليل أو أمد المستشفيات بمرضى ، ولم تلج على فكرة الزواج بعد ذلك لأننى أتهمتها بالسخف فضلاً على أننى كنت فاقداً لثقتى بنفسى فإن امرأة يعجز عن تدبير شأن واحد لهر أعجز عن تدبير شأن مجموع . وتدخل البعد بينى وبين التى أحببتها فى الموضوع فأحال أمرنا إلى ذكريات يسترجعها خاطرى كل عدة ليال حين أستلقى على فراشى فى الحجرة الصغيرة التى أقيمت تحت منحنى السلم ، وتأخذ الذكريات فى هدهدتى حتى

أنام بعد عمل يدوم حتى منتصف الليل .

لم أكن متذمرا لأننى وجدت كل شىء أخف من الجوع !! وكان الحاج « مرسى » بارعا فى معاملتى ، يدفعنى إلى العمل العنيف بالرفق الشديد ، ويدعونى « بابنه » فتفعل الكلمة فعلها فى قلبى فأبذل ما يبذله البهرة من البنين .

ودرجت الحياة تافهه عادية تجرى وقائعها بالنسبة إلى فى بضعة أمتار مربعة بين « باب الوسط » وأول درجة من درجات السلم المؤدى إلى غرف النوم فى نزلنا الصغير . لكن الأيام كانت تنزلق فلا أحسها . كنت أشبه بمن سكت عنه ألم طال حتى أطار نومه وبعثر أعصابه فاستسلم المسكين إلى سبات عميق . وقد كنت نائما بلا مبالغة وامتدت نومتى عشرة شهور أو يزيد ولم يوقظنى منها إلا يد حركتنى مصادفة واصطدمت بى بلا تدبير تلك هى يد « أبو الفتوح » وهو شاب من لداتى تعرفت به على المقهى القريب الصغير الذى يقع فى الميدان .

كنت أخطف ساعة للراحة فالوذ بالمقهى حيث أقتعد كرسيًا ألقى عليه بجسدى لألقى بهصرى إلى الميدان فأطالع وجوه الناس وأخمن ما يدور فى رأس كل منهم ، ثم أفترض لكل واحد مشكلة خاصة أرى ما يكون حلها ، وتمر الساعات فلا أكاد أشعر بوجودى حتى أبصر بالحضام يطلبننى لبعض الشئون ، وفى هذا المكان تعرفت « بأبى الفتوح »

عمله الحقيقى ساعى يريد لكنه لحرصه على كرامة خيالية لا تقوم إلا فى ذهنه يقول : إنه موظف محترم فى المصلحة ، حتى إذا جابهه أحد عارفه بأنه لقيه مصادفة وهو يوزع الخطابات على البيوت فى « الزمالك » ، استدرك بأنه يحدثه عن شأنه منذ اليوم قاصدا أنه كان ساعيا حتى أمس

فقط ، ولم تجر قاعدة القدم الأزلية على قصته هذه لأنها بقيت جديدة كأنها تولد كل يوم . على أنه كان ينسى المهموم همه ، ويسلى المحزون عن أحزانه ، دعه يتدفق بالحديث ثم لائحل بينه وبين الكلام تسمع أشياء عجيبة : يبني قصورا ثم ينسفها ، ويقيم حكاما ثم يعزلهم ، ويخطب ويتزوج ويطلق ، ويقيم ويسافر ، ويكاد يحيى ويميت ، كل هذا فى ربع ساعة . تلمع عيناه لك بالود والحب طالما هززت رأسك بأنك موافق ، أما إذا حدث العكس فإنك ترى منه زمجرة مضحكة واتهاما بالغفلة من سيد المغفلين .

غير أن التلذذ شئ نسبى ، كامن فينا لا فى الأشياء التى تصادفنا . فإذا كان « أبو الفتوح » لا يعجبك فإنه يروقنى إلى حد كبير . كان الملهاء الرخيصة والمسلاة الوحيدة القريبة فى نطاق حياتى وكنت أضحك منه كثيرا حين يتوقف عن إلقاء حبات النرد فى المستطيل الخشبي مدة أطول من الضرورة حتى يفرغ من قص حكاية . خياله أوسع من خيال طفل لكنه شخصية صادفتنى فى الجذب . وحركتنى يداها لأستيقظ من السبات يوم قال إنه موظف بالابتدائية ، فأجبت وأنا راسب فى الكفاءة . فرد على مسفها قولى : ولماذا لاتقول إنك من الحاصلين على الابتدائية مثلى تماما ؟ مامعنى التمسح بشرف لم تنله ؟ إن الغرق فى وسط النيل هو نفس الغرق على مقربة من شطه .. كله موت . لعب .. شيش بيش ، لكن قل لى : لماذا تشغل هذا العمل التافه ومعك مثل هذه الشهادة المحترمة ؟! دعنى أقترح عليك أن تقدم طلبا لمصلحة البريد . ثم سكت وقال بعد فترة : وستكون بعون الله ومساعدة أخيك مقبول الطلب . ففعلت وتقدمت إلى الوظيفة على أننى راسب كفاءة على الرغم من صديقى « أبو الفتوح » وتولى هو السؤال عن النتائج فى زمن كان لا يوظف فيه إلا ذوو الجاه والوجاهة . ويحدث مالم يكن فى الحسبان حين يدفع على « أبو الفتوح » باب الوسط فى اللوكاندة عصر يوم

والفرح يبعثر حركاته فى كل صوب ، ويئيل على أذنى ليهمس فيها : مبارك . فانتفضت فى مجلسى وقلت غير مصدق : أحق ماتقول ؟ فأجابنى بزهو شديد وهو يشير بكفه إلى صدره : أنتظنى ألهو ؟ .. اطمئن يا بنى فإن لك رصيذا من الرجولة الغذة فى (بلك) « أبو الفتوح » . ثم اندفع يقبلنى حتى إذا ماكف أبلغنى ضرورة مرورى غدا على الكاتب المختص بنفسى لعمل اللازم . ولم ينس أن يخبرنى أن مرورى بشخصى سيؤدى إلى اختصار الإجراءات . وقد تفضل كذلك ورافقنى إلى هناك لأن جهلى بهذه المواطن كان مطبقا جدا .

وتسلمت عملى كساعى بريد فى مكتب باب الخلق فى زمن عزت فيه الوظائف ، وقد كان هذا العمل على علاته مدعاة إلى انتباهى للحياة فرأيت لها سياسة مرسومة وإن خدعنا فظننا بها شيئا من الفوضى ، ولعل أذنى قوانينها الدائمة وأبسطها هى أنها تعطينا المعلن قبل أن ترمينا بالحجارة : فهى تكسو الطير ريشا لأن الطير لن تنسج صوفا ، وتحننا بشرة ناعمة ملساء لأننا سنسكن البيوت ونخيظ الملابس ، وتشقينا بمصادفة وتسعدنا بأخرى . وقد قبضت لى أما غير حنون وأبا قصير العمر وزوج أم استولى على بقية حنان كان يخفق به قلب امرأة فكان هذا جميعه مدعاة لهربى ، لكن مسلك صديق عارض عرض على شيئا مما كان قد ضاع !!

ودعت الحاج « مرسى » ودعوت له بالبركات وودعت هجرتى المحبوسة تحت منحنى السلم وذكرت البعث بخروجى منها كما ذكرت الدفن بدخولى فيها ، على أننى ما زلت أحتفظ لها بالذكر الطيب والجميل الباقي فقد كانت أرفق من مسجد درب الجمايز ومن مبيتى فى العراء أو إحدى المقابر . وبررت بوعدى للزمن فغفرت له كل ذنوبه بعد أن نلت ما اقترحته عليه، وكانت فرحتى عظيمة كبرى يوم دخلت سكنى الجديد ، تشبه فرحة الذين

استردوا أوطانهم بعد أن أجلوا عنها فعانوا مذلة التشريد ، وكان أول عمل أتيتته هو أننى علقت صورة أبى على أحد الجدران بأناقة وحرص وأناة .. ومهل ، لأننى كنت أتلذذ بما أعمل ، ثم تراجعت إلى الخلف حتى أرحت ظهري على الباب ووقفت أنظر إليه وأتأمل وأهز رأسى يئنة ويسرة وأممصص بشفتى فى عجب شديد ، حتى لكأننى بعثته قبل يوم القيامة ، ثم شرعت فى ترتيب متاعى وتنظيم مسكنى .

كانتا حجرتين متداخلتين على سطح بيت كبير ، تقع مرافقهما غير قريب منهما هنالك فى إحدى زوايا السطح . فى حارة « ش » القريبة من باب الخلق ذات الطابع الشخصى العجيب الذى يميزها عن بقية الحارات والأزقة التى قدر لى أن أراها .. سمة الضيق والانحدار فى مقدمة مشخصاتها ، ودعك من التعاريج لأنها لم تكن كثيرة . لكن الذى يجب أن أذكرك به هو بيوتها الموقوفة ، وقد كانت موقوفة حقاً لأنها لم تمس فى ركب الزمن . وبعض هذه البيوت يتبع وزارة الأوقاف وبعضها الآخر يتبع البطركخانة .. وكلها فى التهلك والتهدم سواء . أما المنزل الذى كنت أنا من سكانه فإنه يتبع صاحبه فلم يكن موقوفاً ، كنت فى طبقته السادسة التى يسرت لى أن أرى من نافذة مسكنى القمى . المنزل الكبير التابع لوزارة الأوقاف المؤلف من طبقتين ، أراه تحت بصرى وكأنه شيخ غير كريم الشيخوخة غريب بين أبناء الجيل . تحمل « خارجات » بنائه على كتل من الخشب قوسوها على هيئة ظهور محنية فلما أثرت فيها عوامل الجو وكستها لونا كاهيا كثيبا جعلت تلقى فى نفوس الناظرين شيئا من الانقباض والوجوم ، ولست أدرى - ولعله شعور شخصى - لماذا كنت أذكر الظلم كلما رأيت هذه الخشبات ؟ وأغرب من هذا وذاك ، تلك الشجرة العتيقة التى كأنما أذكركتها لعنة الواقف ، غرست فى الغناء الواسع وكانت من نوع دائم الخضرة لا يسقط ورقه طول

الفصول . ولكنها أخذت منظرا بين بين ، فأصاب الشلل شقها ، وسطا الضعف على شقها الآخر فقامت بين أشجار الأرض لا تنتمى إلى فصيلة حتى خيل إلى - وإن لم أكن رأيت - أن الأطفال الذين يأتينى صوتهم فى بعض الأحيان وهم يلعبون تحتها - ذوو سحن غريبة ، حتى يتسقى المنظر فى كل جزئياته .

لم أكن أشعر بانقباض حين ألقى نظرة على هاتيك المباني بقدر ما كنت أسبح فى تأمل ، وأذكر نعمة الله بشوى الوحيد حين أرى قوما عراة من الأثواب .

وقد يستوقف نظرك ساعة تعبر الباب الكبير للبيت الذى أسكنه ، فناؤه المسقوف المظلم الكبير الواسع الذى لا ينفذ إليه النور إلا من مسقط السلم وفتحة الباب ، ثم تأخذ أنفك رائحة عميقة تنبعث من الحجرة الأولى على اليسار لأن ساكنها سروجى انخذها مسكنا ومصنعا ، فعبقت بهرج الجلد التى تشمها إذا اقتربت من سرج نظف قريبا . أما الحجرة التى تليها فقد قبع على مقربة من بابها شاب ناهل يلبس منظارا تخين العدسة لأنه ضعيف البصر يحترف نجارة أدوات الموسيقى . كنت أراه فأطيل إليه النظر لأنه كثيرا ما كان يحتضن هيكل (عود) لما تركب عليه الأوتار بالطبع ، لكنه كان يدندن وهو يجرى على خشبه ورقة « الصنفرة » حتى تشك فى أنه يعزف .

وبعد هذا وذاك أسر وأطفال ونسوة وخدم . أخلاطا من الناس لا تؤاخذنى إن أثقلت عليك فى وصفه فإنه أول مسكن أظننى سقفه !!

وجعلت أبط كل يوم فى طريقى إلى عملى منحدرًا يصب فى باب الخلق عند مدخل أحد الشوارع ، أفعل ذلك فأذكر صديقى « أبا الفتوح » فأدعو له بالستر !! نعم . وقد اخترت هذا المعنى عمدا لاعتباطا ، لأننى كنت أشبه بالعورات التى يجد فى سترها الفاضلون !! وقد أحس صديقى

هذا بلاغة تقديرى لفعله فاستغل موقفى منه استغلالا جعلنى فى بعض الأحيان أذكر الذين يفسدون صدقاتهم بالمن والأذى .. لكننى مرت على الاحتمال حتى ظن فى طبعى بلادة فاحتملت الصديق على علاته وأصبحت تابعا لتابع ، كأنى اتخذت موقف « وهيبة » التى كانت تقول لى : ياسيدى وأنا أذل خلق الله ، فما أقسى قلوب الناس !؟

لم يكن يقول لى شيئا حين يبدر منى ما يعتبره هوتخلفا عن المعونة فى أشياء تافهة ولكنه كان ينظر بعينين تقولان لى : هل نسيت !؟ فكان الأمر لم يكن مد يد إلى ضعيف منكود بل كأن « أبا الفتوح » قد وقف منى على عورة أخفيتها عن جميع الناس .

وإمر عام آخر واندمج فى حياتى الوظيفية اندماجا كاملا شأن هذا القطيع العظيم من أولئك الناس الذين يصبون ذوب نفوسهم ونور أبصارهم على المكاتب . يمر العام فيجد لى شأن أرانى مضطرا معه أن أذهب إلى المصلحة لكى أسأل عنه وأظنه كان نقلا من مكان إلى مكان : واخترقت بهوا طويلا فى إدارة المستخدمين صفت على جانبيه أصونة نصف أبوابها خشب ونصفها زجاج رقدت فيها ملفات خلقت الله رقد عليها التراب ، لعلهم ماتوا ، أو لعلهم أحياء تخلت عنهم العناية فماتوا ولم يدفنوا ، وأدى بهى المر إلى حجرتين كان الكاتب المختص فى واحدة منهما .. ودلفت إليه فألفيته سمينا بدينا ينحشر فى كرسى ذى ذراعين ، وكان مكبا على ورق أمامه معملا قلمه فيه . وألقيت السلام فغمغم بنصف الرد ولم يرفع إلى وجهه ، فاستأنفت قولى هاتفا : من فضلك !! فقال بعدم اكتراث : قل يا سيدى ! ولم يجد على بنظرة . قلت : أنا « مختار على » الـ ... وهنا رفع إلى وجهها غليظا محملا جاحظ العينين ضيق الجبين تزحلق عنه طربوشه إلى الراء . ثم سأل باهتمام مزعج : تقول من !؟ قلت : « مختار على » الساعى بمكتب باب

الخلق . فتنفس طويلا حتى خلت أن صدره كان مزحوما بالبخار وقال : أهذا أنت يا سى « مختار على » ؟ ياسلام ؟ أى ريح خبيثة طوحت بك إلى هنا ؟! ففغرت فمى من الدهشة وبدا على ما لعله زاد فى غضبه لأنه صاح : ألا يعجبك هذا ؟ (الله يخرّب بيتك) كما عرضت بيتى فى يوم من الأيام لإعصار الخراب . فقلت له مصححا : أنا يا سيدى أدعى « مختار على » .. هل تسمعنى ؟ فقام عن مكتبه وخرج من الحجرة حتى يحسم الموقف ولم ينس أن يقول للموظفين من حوله وقد كانوا يكتمون الضحك : اشرحوا له الموضوع ، لأننى لن أطيق . ورحم أحد الموظفين أعصابى فأفهمنى الأمر ، وفحواه : أن تشابه أسماء وقع أيام تعيينى وأن شخصا آخر كان يدعى « مختار على » من غير سكان العاصمة أوصى عليه أحد النواب ثم سافر وكان طلبى بين يدى الموظف قبلها بيوم . وكان لمرورى الشخصى بدون مراسلات على العنوان فضل فى أننى جنيت ثمرة الغلطة . وعينت فى مكان « مختار على » دون قصد ولا نية . وكان « مختار على » الآخر لا يزال فى انتظار سفر النائب إلى « القاهرة » مرة أخرى . وقر الشهور وشار الموضوع وتراجع المسئولية شيئا فشيئا حتى تستقر فى أكثر الأماكن انخفاضاً عند هذا الموظف الذى ثار فى وجهى ، ودعا على بيتى بالخراب !! خرجت من مصلحة البريد وأنا نهب لشتى خواطر ، ذكرت المصادفات التى تسعدنا وتشقىنا . والغلطات التى ترفعنا وتخفضنا ، وابتسمت لحسن حظى فى هذه الموقعة وما كان مرجعه إلا أن هناك « مختار على » أسوأ حظا منى ، وذكرت الجميل الموهوم الذى خنقنى به « أبو الفتوح » فترة من الزمن . فرفعت إلى السماء عينيّين دامتين تشكران الله !!

وشاءت المصادفات ألا تكف لتستكمل المقادير شوطها المرسوم ، فمرت أسابيع قبل أن تسوقنى ظروفى إلى أحد الشوارع المأهولة فى العاصمة .

كنت سائرا لا أدري نيم أفكر لكن الذى أدريه هو أن أفكارى كانت متسابة انسيابا عاديا كتنقلة قدمى فى حركة المشى . والناس عن يمين وشمال تمر أشباحا لا تتوقف إلا إذا اصطدم إنسان بإنسان . لكن امرأة وقفت فى طريقى معرضة حتى لا أمر وهتفت بى وكأنها تحلم : آه .. سيدى .. سيدى « مختار » !! فتراجعت فى طريق الماضى وطفحت نفسى بذكريات كثيرة كان فيها أننى مدين لقى دائنة على غير انتظار وقد كانت « وهيبة » دائنا كريما . كانت تطوق عنقى بديون فيها الذهب ، وفيها ماهو أغلى من الذهب .. فيها حنان جادت به على فى زمن مجذب ودهر عاصف . قلت وأنا أهتف من كل قلبى . « وهيبة » !! وصافحتها كأننى التقيت بأخت ولم تستطع كلمة « سيدى » أن تحفر بينى وبينها هوة كما تفعل عند الناس .. خرافة ! ولم تكن فى ثياب الابتذال بل كانت فى زى آخر النهار ، وهو ثوب من الحرير الغالى ينادى صنفه بأنه كان من قبل يحلى جسدا ناعما وأنه يقضى الفترة الثانية من عمره على جسد لخادم ، ثم يمر فى الفترة الثالثة يوم تلبسه هى نفسها حين تزاول أعمال الكنس والمسح والفسيل . ورأيتها فى نظرة أقل من التى كانت تتمتع بها فى « الإسكندرية » فى ظلال عربة الترمس والأنف الملتهب ، وسر ذلك كما علمت بعد أنها تقوم الآن بخدمة أسرة كبيرة فى المكانة والعدد وأن ذلك يقتضيها جهدا أعلى وإن نالت كفاء أجرا أغلى . وانزلت بنا الحديث إلى الماضى وفتحت لها الباب بسرعة حتى أعلم منها ما قد يسوؤنى أن أعلمه . أعنى الحوادث التى وقعت بعد اكتشاف هروى .

وعلمت منها أن « أم مختار » لم تفقد غريزة الأم وإن فقدت حنان الأمهات فإن وسواسا ركبها مساء ذلك اليوم حتى بدت كأنها مهمومة ، كان من طبعى أن أتأخر عن مواعيد المدرسة فلم يكن تأخيرى حادثا جديدا ،

ولكنها دخلت حجرتى عند هبوط المساء فرأت من وضعها أن كل ما فيها ينادى بالفرقة . وجاءت « وهيبة » على صرختها وسألتها عن الخطب متظاهرة أنها لم تكتشف شيئا ، فما كان من « أم مختار » إلا أن قالت لها : أحتى هذه الساعة لم تدخلى لتنظيف الحجرة فترى أشياء غابت تدل على أن ساكنها رحل ؟ فبرهنت « وهيبة » على صدقها بأن آثار الغبار لاتزال فى كل مكان وأن مكنتة لم تعمل فى الحجرة ، ومدلول ذلك أنها لم تدخل ، وقد فضلت الفتاة أن تتحمل عقوبة الإهمال فهي أخف بكثير من عقوبة التستر . ودارت « أم مختار » فى أرجاء الشقة تصخب وتصب وتلعن وتبصق تحت قدميها بين فترة وفترة . على أن زمام الدمع غلبها بعد قليل فأجهشت بالبكاء ولكنها لم تقل فى أثنائه « آه يا بنى » ولو مرة واحدة . خيل إلى أن بكاءها كان أشبه بدمعة المهزومين فلقد كنت فى بيتهم أقرب فى وضعى إلى أسير هرب تحت جناح الظلام ، ثم كفت عن البكاء وعادت إلى الصخب ، فنصبت من نفسها دفاعا وإتاهما وقضاء فى وقت واحد . كانت تقول : إنه خطر .. إنه ذو بدوات ، لندعه للزمن فإنه كفى بتأديبه . ثم تسكت لتستأنف المناجاة من جديد : مسكين !! إن أمثاله يخلقون لأنفسهم المتاعب ، ثم يحكم فى القضية قائلة : إذن فليلق جزاءه العادل جوعا وتشريدا .

وتكف « عربة الترمس » عن الهذيان ساعة تعرف دقة « صاحبها » على الباب لتلقاه بوجه عليه قناع من البشاشة والبشر والراحة ثم يجلسان إلى العشاء فيتحدثان فى شئون عامة ثم تنهى الحادثة إليه آخر الأمر بطريقة من يخبر رجلا عن مأساة مخلوق لاترطبه به علاقة .

وتدرج الحوادث بعد ذلك فى كفن النسيان كأنما كانت الدموع التى بذلت ليلة هروبه من نوع تلك التى يذرفونها يوم وفاة مريض فقير شيخ

ثقيل ، عاش فى الحياة أمدا طويلا وأرهق كافليه بنفقات كثيرة .
ثم عرجت « وهيبة » بعد ذلك فذكرت أخى لأمى وقالت إنه الآن ابن
عامين . فجعلت أتصور الوليد الجديد الذى أجبرتنى تصرفات أمنا المشتركة
على أن أخلى له المكان كأنه لم يكن يسعنا معا ، وتركت « وهيبة » تفيض
فى أحاديث لم يكن يهمنى منها الكثير وأخذت فى تصور وجه هذا الغلام
الذى أنجبته امرأة جميلة ورجل دميم المنظر حتى ذا ما انتهيت من مهمتى
كما تنتهى الطفلة من صنع عروس من الورق أردت أن أسميه ففطنت إلى أن
اسمه الحقيقى أولى بهذه الصورة فلما سألت « وهيبة » عنه أخبرتنى بما
أزعجنى ، وبما جعلنى أحس نفورا خفيفا من مخلوق أضعف منى لم تتلنى
إساءة منه ، قالت الفتاة وهى تبتسم وتطرق نحو الأرض : اسمه .. ، اسمه
« عباس » يا سيدى !! فلم أستطع أن أكتم ضحكى فضحكى !! نعم
ضحكت كما نضحك من أنفسنا حين نزل قدمنا فنهوى إلى الأرض على
مشهد من المارة . ثم قلت بصوت مسموع وكأننى أناجى نفسى : هذا غريب
حقا .. ألم يكنها « عباس » واحد ؟! ثم جعلت أهرز رأسى فى تعجب
وأسف .

نفضت « لوهيبة » ملخص حالى وأنتى أصبحت موطقا فتنهدت تنهد
الراحة . لكأنما ذكرت لىالى الخوالى وأيامى السود وشعرت أكثرهما شعرت
أنى كنت واغلا على طعام هؤلاء الناس ، فحمدت الله الذى كفلنى وأطعمنى
وآوانى وحررنى من العبودية . ثم أخبرتها أننى أسكن حجرتين متداخلتين
فى حارة « ش » وأننى مدين لها بضمن قرطها الذهبى وإن كان مغزى عملها
لا يقوم بهال . فابتسمت إلى وأقبلت تنظر بأعينها الخولاء فى سعادة ورضا
وهى تقول : لقد قميت يومها ياسيدى لو أننى أملك ذهب الأرض ..
ياليت !! ثم سألت مثلا مشهورا « ليت لنا عند الكرام حسبة » ياسيدى

مختار . . وتنقضى بضعة أيام تزورنى بعدها « وهيبة » فى إجازة تأخذها من سادتها ، تزورنى فى بيتى لتنظفه وتنظمه وتغسل لى ماقدا اتسخ من ثياب . ولتطهولى طبخة بيديها اللتين لم آكل رزهما المفلفل من زمن بعيد . (هكذا قالت) ..

لعل خواطر غامضة يا صديقى تجول الآن فى نفسك ثم لعلك تستحى أن تستوضحنى تفاصيل وقت انفرادنا فيه تحت سقف واحد . ولكننى سأريحك من عناء التساؤل . إن الأعمال الفاضلة تخلع على أحط الناس قدسية وجلالا ترفعهم إلى طبقة أسمى ، لأن هذه التى أعطتنى « حليها » ومنحتنى « زينتها » عطاء خالصا لا يشوبه من ولا أذى ولا انتظار جميل ، ثم لحقت بى فمدت لى يدها مرة أخرى ترتب شئونى كما تفعل الخادومات - هذه الفتاة أكبرتها بينى وبين نفسى أن أراها فى وضع غير كريم . وقد طالما قنيت يومئذ أن أهدى إليها قبلة حب واعتراف بالفضل لكننى خشيت أن تفسدها يد الشيطان وخفت أيضا أن يغيب عن « وهيبة » طهارة مقصدى ، لذلك كله عمدت إلى أن أتعلل بالخروج بين فترة وفترة حتى أبعد استطالة الزمن وحتى لا أجعلها تشعر أننى أتهرب من خلوة مشتركة . لكننى ودعتها بعد المساء عند باب السطح وأول السلم والمصباح فى يسارى أضىء لها به الدرجات لأن مسقط السلم كان مستوقفا يشيع منظره فى الليل وخاصة عندما لا يكون هنالك قمر ينير السطح ، يشيع فى النفس شيئا من الرهبة ، كان المصباح فى يسارى وأنا أقول لها مع السلامة وكانت هى بطبيعة الحال قد لبست ثوبها النظيف الذى تظهره فى الشارع وغسلت عن يديها آثار الطبخ فردت تحيى وأبطأت من خطوها ونظرت إلى وهى عند أول درجة ثم قالت وكأنها تسألنى عما لا يعنى أحدا سواى قائلة وهى بتبسم : أرجو ألا تكون قد نسيت حاجتها تذكرها بعد انصرافى !! ففحق قلبى

لها بالحنان فأقبلت عليها والمصباح فى يدي ليكون صمام أمان فلا يحدث بيننا أكثر مما أريد . تركته يلقى النور على وجهينا ولففت ذراعى اليمنى حول عنقها ثم طبعت على فمها قبلة . ثم استرددت فمي لأنها فيما بدا كانت لا تريد أن أقطعها . كان نفسها جد طويل كنفس الظمآن الذى يترك القلة تهقه على شفتيه مدة طويلة ، فعلت هذا ثم عدت فكررت التحية قائلا لها : مع السلامة . وبقيت فى موقفى على رأس السلم تحت سقفه القريب الدانى الموحش القائم حتى غاب عنى وقع حذائها على الدرجات .

أرجو ألا أكون شغلتك بحوادث قد تراها تافهة لأن « وهيبة » ليست تافهة فى قياسى . على أن ترددها لم يطل ، كما كان أيضا فى فترات غير قريبة ثم أفضت إلى عصر يوم بنأ اعتبرته سعيدا ساعة قالت لى : عندي أخبار طيبة يا سيدى لكننى أحب أن أرى رأيك فيها بصراحة . ثم قصت على قصة رغبة « عبد العزيز » الطباخ الذى يعمل معها فى منزل واحد ، وقد تقدم طالبا يدها . فلما دخلنا فى التفاصيل عرفت المواطن التى تطلب فيها رأى ، لأنه كان فى الخامسة والأربعين وهى فى الخامسة والعشرين ولعل الأهم هو أنه تزوج مرة من قبل . فسألته فى جزع ظاهر : وأين زوجته ؟ فقالت : ماتت . فسألته فى لهفة : وهل هنالك أطفال ؟

فابتسمت فى حياء وقالت : لا يا سيدى ، ولو أن الأمر كان كذلك لترددت لأننى لا أحب أن أشقى طفلا . فخفق قلبى كأنما أصابته شظاة ثم عدت فاسترددت هدوئى وهفت قائلا : إذن فغيم التردد ا على بركة الله . هل تظنين أن فى الرجال بكرا وثيبا .. وضحكنا وكانت توارى وجهها بكفيها من الخجل . ثم كان هذا اللقاء بدء النهاية فى علاقتنا لأنها ما لبثت أن صارت زوجة .. ثم أما نحننا !! أسعدها الله !

حيأت لى مهنتى هذه أن أرى ألوانا من الناس وضروبا من الناس منه

من أذكره ساعة أراه ثم أعود أنساه حتى إذا ما رأيته ثانية ذكرته ، ومنها شخصيات ضخمة تقهر النسيان فتبقى عالقة بالذهن إلى ما شاء الله .

ولعل أضخم هذ الشخصيات جميعا شخصية السيدة « ف » تلك التى تثبت على باب مسكنها صندوق خطابات يكاد يكون الوحيد فى الحى كله أما بقية السكان فإنهم يتسلمون خطاباتهم بأيديهم . لم يكن فناء منزلها واسعا بل على العكس هو ضيق لا تتجاوز مساحته أربعة أمتار يشغل السلم جزءا منها . وباب شقتها هو الباب الوحيد فى هذا الفناء الضيق ، يقع على يسار الداخل على سطح الأرض مباشرة فلا يرتفع إلا بمقدار العتبة ، وهو من الخشب الخالص لاجديد فيه ولا بلور . دهن مصراعاه باللون الأحمر واتخذ منه صبيان البيت سبورة رسموا عليها شتى رسوم وحروف ..

ولست أدرى لم لم تعتن السيدة « ف » بازالتها عن الباب . خمنت من منظر الباب أنها تسكن وحدها لأن قفلا غليظا كان يعاون المفتاح الأصلى فى صيانة المسكن ، ولا أذكر أنى رأيت الباب عاريا من القفل إلا فى القليل حتى ألفتة هكذا . فأنا دائما حين أرى بين البريد كتابا لها أتقدم نحو الصندوق فأضع الرسالة فيه ثم ألقى نظرة على القفل الغليظ المتدلى ونظرة أخرى على الجزء الأسفل من الباب الذى حوله الأطفال إلى سبورة ثم ابتسم لهذا المنظر الذى لا يتغير وأغالب شوقا خفيا لا يكاد يتميز عن الفضول ينادى فى داخلى : ألا من فرصة واحدة أرى السيدة « ف » هذه ؟ لكانها تحمل سرا !

وقد سنحت هذه الفرصة فى ضحى يوم من الأيام حين رأيت بين بريد اليوم رسالة باسمها فطرقت الباب طرقا خفيفا أجبانى فى أثره صوت ناعم تشك فى بادى الأمر فى أن صاحبه تتصنع ثم سمعت خفق نعلها وهى فى طريقها لتفتح ، فلما رأتنى بهذلتى الرسمية وحقيبتى المدلاة والرسالة فى

يميني أقدمها باسم الوجه نجمت فى أعلى أنفها عقدة ماتت ساعة ولدت
لكنها دلت على عجبها من فعل رأته غير طبيعى ثم قالت برفق فى جد
خالص :

— ما بال صندوقنا اليوم لا يتقبل الرسالة ؟ .

فأجبتها بمثل لهجتها وقد زال عن وجهى ابتسامه :

— تستطيع السيدة أن تفحصه بنفسها .

فخطت نحو الخارج وهى تجمع بكلتا يديها ثوبا ضافيا من الحرير
حول قدها المشقوق فى حرص التى تخشى برد الهواء أو تراب الأرض .
وأوسعت لها الطريق متراجعا إلى الورا حتى تقف أمام الصندوق المعلق فى
المصراع الثابت . فرأته وقد حشاه الصبيان بورق كثير قديم ذى ألوان مختلفة
حتى لم يعد يقبل شيئا . فما كان منها إلا أن التفتت إلى وقد تورد وجهها
الصفى بحمرة خفيفة ثم قالت معذرة :

— آسفة لما بدر منى ..

فأردفت وقد عادت إلى البشاشة :

— لا داعى للأسف . بل أحب أن أنبهك إلى أن الصناديق الخصوصية

فى الأحياء الوطنية كثيرا ما تثير شيطنة كامنة فى نفوس الصبيان فيلقى
أصحابها عناء أظنهم فى غنى عنه .

فغالبت السيدة ضحكة عنيفة نبعت من أقصى صدرها لأننى رأيته
يضطرب لكنها أفلحت فى أن أخرجتها مؤدبة وقورا وإن فاضت بالسحر
والأنوثة . ثم قالت ببشاشة :

— أنت مخق فيما تقول ، فقد كان بعضهم يكتب لى رسائل مضحكة ..

أقصد الصبيان (ثم غضت من طرفها وهى تهمس) : أشكر .

وتأودت فى طريقها إلى الباب حيث شرعت تقفل المصراع برفق لطيف

وعيناها ناظرتان فى غير اتجاهى .

وجعلت بقية اليوم أفكر فى السيدة « ف » وأمنى نفسى بأن سأعرف يوما ما وراء بابها المصمت . وأتخيل أنه سيكون قصة طريفة . وأسرتنى الفكرة وأنا أوزع بريد اليوم حتى بدوت كأنى شارد فلم أداعب الست « أم سمك » كدأبى كل مرة وأنا أسلمها رسالة لزوجها ، فصرخت فى وجهى بصوتها العالى وجمالها الثائر :

— ما بالك اليوم مطفنا نورك .. أهو طبق من « البصارة » ؟ فقلت لها :

— لابل أكلت سمكا . « وهذه الكلمة علم على ابنها » .

فردت تدافع عن ابنها فى صخب شديد تجيده ساكنات تلك الأحياء ، وجعلت تهددنى بخفة ودلال بأنها ستشكونى لزوجها « عسكرى المطافى » الذى تفاخر به كل النساء لطوله المخيف الذى أفزع النار نفسها ، حتى لتبدو الخوذة النحاسية فوق رأسه إذا ما لبسها وكأنها علقت على ذؤابة نخلة .

ولما أويت إلى فراشى آخر النهار جعلت أقلب أمر قلبى لأرى ما جد فيه . ذكرت الأيام الخوالى بعد ثلاث سنوات فرأيت عماليقها وقد بدا بعضها يستحيل إلى أفزام . وأول هذه العماليق « أم مختار » و « عباس أفندى » ، « أما سكينه » فإننى لم أنسها ، نعم لا زلت أذكرها ولكن ماذا يفعل بنا البعد ؟ آه .. إن القرب نوع من السهر على الشئون . القرب ساهر على جنة الحب يدفع عنها اللصوص ويكافح الآفات . حقيقة أن البعد يذكى النار ولكن على أن يكون من قبيل التراجع إلى الخلف قبل الارتقاء فى الأحضان . أما إذا طال البعد أو استمر التراجع فإذا اللراعين المتهيبتين لاستلقاء الحبيب لاتلبشان أن ترتخيا من التعب حتى تعودا إلى وضعهما الأول .

وهكذا كان شأنى مع أسرة « عم خليل » فقد كانت الرسائل بيننا أول الأمر كثيرة سريعة التبادل كأنها الرياح فى أشواطها الأولى . ثم فعل الزمن فعله بها . فتطاوت الفترة بين الرسالة والرسالة كما تطول الفترة بين الهبة والهبة فى موسم الرياح ثم أخذت تخير شينا فشيئا حتى سيطر علينا السكون !! وتقلبت من جنب إلى جنب وتطلعت فى أفق حياتى فأحسست أن وحشة ترين عليه . أحسست الليلة موضع قلبى منى كما كنت أحس من قبل موضع معدتى زمن الجوع . فمصصت بشفتى وهمس فى الظلام : حكمتك يارب .. إننا لا نشبع !!

حقيقة أن نفوسنا لاتعرف الشبع : نجوع بالمعدة ، ثم نجوع بالقلب ، وقد نجوع بهما فى وقت واحد ، حتى إذا ماهيات لنا الظروف طعامهما عدنا فجعنا بجسمنا كله ، فنشعر وخصوصا بعد إطفاء النور أننا فى حاجة إلى شئ نأكله ، لا بالقم ولا بالأسنان ، بل بجوارحنا كلها الظاهر منها والخفى . فنبحث عن يقاسمنا الفراش . ثم نجوع بقلوبنا مرة أخرى فننشد من يقطع علينا نوم ليل طويل ، وتدعو الله أن يمن علينا بالجسم الصغير الذى يفصل فى الفراش بين جسدينا الكبيرين ، ثم نجوع بعد ذلك إلى المجد .. والخلود !!

عمر عجيب !! نبدو بالجوع حين نلتقم ثدى الأم فى لهفة وسرعة قبل أن نفتح أعيننا ، ونختمه بالجوع حين نقلب أحداقنا فى وجوه الأحباب نقول بالأنظار لأن الألسن قد جفت : إننا لم نشبع منكم .. أليس فى العمر بقية !!

« سكينه » !! ترى أين أنت الآن ؟! عرفت يوم هربت كيف تقطع العلاقات بين قلوب غير متحابة ثم عرفت اليوم كيف تقطع العلاقات بين قلوب أحب بعضها بعضا . آه .. إنها مدرسة الزمن ، حصصها الأيام والليالى ، وأسائدها التجارب ، وأجراسها الأحداث ، والامتحانات فيها .. إن شئت ..

عقبات تعترض المعدات والقلوب .. هنا النجاح والرسوب ، وهنا تعلن
النتائج !

لكن مالى أنا وللسيدة « ف » وما بال طيفها يطاردنى ؟! حتى يخیل
إلى أنها خارجة من حجرتى الأخرى وهى تجمع بكلتا يديها ثوبها الحريرى
حول قدها المشوق فى حرص التى تخشى برد الهواء أوتراب الأرض ! إن
طيفها يزحمنى فى كل مجال . ولكن لن أبه به .

وخيل إلى اليوم أنها مهتمة بى فقد رأيت ذلك فى عينيها الساجيتين
اللتين تنهض عنهما الأجفان فى رفق وتعود فى رفق يبعث فى الجسم خدرا
ونشوة . لكن أليس معنى هذا هو أننى مهتم بها أنا كذلك ؟! إنها غريبة
بين سكان هذه المنطقة ينظرون إليها جميعا على أنها من طينة غير طينتهم
فهى لذلك لم تصطف منهم صاحبة ولا صديقة ، وكانت فى عزلة عقلية لأن
مسابع فكرها ليست كمسابع أفكار هؤلاء الناس . وقد فهمت من تتبع
أحوالها أنها موظفة ورأيتها فى ميدان الجيزة تمشى إلى جوار رجل كبير
السن يبدو عليه أنه من رجال التعليم وكانا يتحادثان فى جد ووقار كأنهما
يتناقشان فى الدين ، ولما التقت وجوهنا يومئذ رقت على شفتيها ابتسامة
مرت كما يمر الطيف فلم يشعر بها غيرى .

لكن أمرا عجيبا وقع فى خاطرى بعد ذلك وجاهدت كثيرا لكى أخلص
منه ، خيل إلى أن الأقدار سهرت على أن تصل بينى وبين هذه النفس بما قد
يكون خيطا وبما قد يكون حبلا لا يقطعها إلا الموت . وبدأت أوصاك جسدها
تتحكم فى خيالى وتفتح أبواب أحلامى فأقول فى نفسى حين أخلو إلى
نفسى : إن أجمل العيون فى وجوه النساء عينان صاقدتان تجعلان اللسان
فى المكان الثانى ، وتقدمان إليك المعانى فى كأس من الخمر . وأجمل
الأبدان منها الطويل اللدن المرهف فيما تحت الحزام ، الذى يكاد ينقد فى

حركة التأرد ١ . أرأيت جسم « فينوس » فى مئزرها الحريرى ؟
 أما الشعر ، فالأسود الفاحم الكثيف الأثيث المداخل زمرا زمرا على
 هيئة خصل ، تجوس خلالها الأناامل كما تجوس العين فى تلافيف جنة .
 والوجه .. المستطيل الدانى إلى الشحوب الذى بدا كأن صاحبتة سهرت
 تقرأ وتفكر حتى أدركها الفجر السقيم ، تبدو عليه السهولة والرضا
 والتسامح ، تخيلت هذه الأوصاف فى خلواتى وطميت أن تكون منطبقة على
 زوجة لى ، ثم لج بى الخيال حتى ظننت أننى ابتكرتها وألفت بين شتيتها من
 نساء مختلفات فلما رأيت السيدة « ف » مرة أخرى وملأت منها ناظرى ،
 أدركت مدى غفلتى وغشى لنفسى ، لأنها كانت النموذج والتمثال والحقيقة
 والخيال فى وقت واحد ، وكانت أفكارى منها وإليها وكل هذه الأوصاف
 منطبقة عليها . فعضضت شفتى خوفا ودهشة .

خفت أن أحبها وقد رأيتها بعيدة المنال ما كان أجدرها أن تعيش فى
 أحد القصور !! إنها ولا شك تحيا حياة عقلية فقد بصرت بها عدة مرات وهى
 تهبط سلم دار الكتب ، وأنا فى طريقى إلى مكتب البريد . وحيا كل منا
 صاحبه فتعذر على أن أعرف من منا الذى بدأ بالتحية ثم درجت فى طريقى
 إلى عملى .

بدأ قلبى يعصر نفسه كلما رآها ويؤكد لى بخفقاته وخزات أحسست
 وقعها عليه أنها شق من حياتى . فقلت للقلب : وهل أخذت رأيها فيما هو
 من صميم شئوننا ؟ فسخر منى وعاد يؤكد أن الحب والكره لا يؤخذ فيهما
 رأى الطرف الآخر . وحملنى هذا الشعور العميق الذى تشرته نفسى كما
 يتشرب العود عصارته من الشرى الرطب . حملنى على أن أتساءل : هل
 السيدة « ف » مشغولة بإنسان ؟ وإذا فرضناها خلية القلب فهل تبيح لمثلنى
 أن يسكن قلبها الكبير ؟ لكننى عدت فحاورت نفسى مسليا عنيا وأنا

جالس إلى نافذنى فى هدأة الليل أنظر إلى الأضواء تحت بصرى فأرى بعضها ينطفئ فجأة وأرى غيرها يلتصع فجأة وأؤلف من الباقي صورا وأشكالا على هيئة الوجوه أو القبط أو الدجاج أو الحيات - حاورت نفسى فقلت لها : إن اختيارنا لا يخلدنا فى شغل أى مرفق .. إلا مرفق القلب . فمن الجائز إذن أن نتعقد صلة ما بينى وبين هذه السيدة . ثم هزئت رأسى غير مستبعد على المقادير أمرا فإنها تجمع فى سلك واحد بين لؤلؤتين ولدت كل منهما فى محيط .

رأيت بين يرد اليوم رسالة باسمها فمنيت نفسى أننى سأراها لكننى عدت فذكرت الصندوق . وما أن دلفت من الباب وانحرفت نحو اليسار خطوتين اثنتين لأضع الرسالة حتى رأيت ما أذهلنى ، لم يكن الصندوق مشبها فى الباب ، أعنى أنه لم يكن هنالك صندوق ، وعلى الخشب فى مكانه مستطيل صغير بدت حمرة دهـ زاهية نظيفة تخالف بقية اللون . وخفق قلبى وأنا أنقر بسبابتى نقرا يسمعه من عسى أن يكون فى الداخل ، وازداد خفق قلبى حتى اضطربت أنفاسى حين أجابنى صوتها المستميت الناعم وهى فى طريقها لفتح ، ولعلنى تمنيت ساعتئذ أن تعود فلا ترانى أو أن أنصرف قبل أن تخرج لأن دم جسدى تجمع فى وجهى فأحسست أنه فى تنور لكنه لم يكن هناك مناص وقد كنت أعمل عملا مشروعا وهو بعد من صميم مهنتى .

كأنها تجمع حول بدنها بكلتا يديها - كشأنها فى كل مرة رأيتها فيها - ثوبا حريرا وردى اللون كأنه لف على عود من الخيزران ، وشقت عليها عصا الطاعة إحدى غداثها فتقدمت شيئا ماعن بقية الشعر حتى استنامت على كتفها سوداء كثيفة ، ترقد فى ثقل نوعى كما تترامى ستائر القטיפه . ولم تنجم العقدة على أنفها كما حدث من قبل ولكن وجهها السهل السقيم

كان عليه قناع من البشاشة ، قلت وأنا أمد يدي إليها بالرسالة : وأين الصندوق ؟ فابتسمت وهي تحجب موجية أنه كان مصدر مضايقات وأنها اختارت بين شرين فرأت أن ضياع بعض الرسائل أهون عليها من قراءة رسائل هي أشد الناس بغضا في قراءتها ، فأجبتها وقد رفه عنى حديثها : ألم أقل لك ؟ ثم أخذت نفسا عميقا . ثم استطردت كأني لا أفهم ماترمى إليه : إن صناديق البريد في الأحياء الوطنية كثيرا ما تثير فضول الصبيان وتوقظ بهم أعاصير الشيطنة . فابتسمت وهي تكسر من أجفانها وكأنها تقول : إنك تفهم كل شيء . ثم مالبت أن أردفت : وهل لى أن أرجوك أن تستبقى رسائلى حتى تمر آخر النهار .. آسفة .. لست أقصد إرهابك ولا أن أكلفك شططا . أنا لاأكون هنا فى النصف الأول من اليوم وأريد أن أقول إن رسائلى ليست من النوع المستعجل ، فهي غالبا تحوى شئوننا عادية ، فإذا تفضلت بإبقائها حتى تسنح لك فرصة المرور من هنا ، كان شكرى مضاعفا .. ثم توجت هذا كله بابتسامة حلوة .

جعلت نفسى تستعيد حديثها فى لذة ونشوة كما تستعيد طعم فاكهة ذقتها للمرة الأولى ، وخيل إلى أن قلبى على باب تجربة حقيقية وأنه على وشك أن يخوض معركة تخفق فيها راية الحب وراية الأمل جنباً لجنب بعكس ما فات فإنه كان - على ما فيه من حلاوة - أشبه بالأشواط التى يجريها الفرس قبل شوط السباق . اتفاق فى اللون واختلاف فى الغاية .

وهكذا بدأت أترقب رسائلها كما أترقب رسائلى الشخصية ، وتشاء الأيام أن تخلف ظنى فلا يحمل إليها البريد شيئا لمدة أسابيع ثلاثة ، وقد ابتسمت حين تخيلتها تبتسم من سوء طالعى الذى نضح على بباض أيامها ، ولكن الأمور عادت فاستقت ورأيت بين بريد اليوم الرسائل المرموقة . وكانت أشعة الشمس تضطرم فى زجاج النوافذ قانية حمراء قبل أن تهبط للمغيب

ساعة كنت مكبا على مرآة صغيرة لألقى نظرة أخيرة على رباط عنقي ..
اخترت من كل شيء أحسنه فى أصيل ذلك اليوم حتى بدا مظهرى المتوسط
على هيئة تشكك الناظر فلا يستطيع أن يحكم على : هل أنا شاب من الطبقة
الدنيا سعدت به ظروف العيش إلى حيث تبوأ مكانه فى الطبقة المتوسطة ،
أم أنا شاب من الطبقة العليا هبطت به ظروف العيش إلى حيث استقر فى
مكانه من الطبقة الوسطى ؟! أجل كانت هيئتي مشكلة ولعل مرجع ذلك أولا
وقبل كل شيء إلى وسامتي ، فأنا ابن أبوين كاد كل منهما يكون أنوذا
فى نوعه ، فضلا على أننى الآن مرتاح راض عن موضعى فى المجتمع قادر
على أن أقدم لمعدتى كل ماتطلبه من وقود فأفأ هذا على جسمى خصبا
انبثق من عيني شهابا موقنا متدفقا حارا شهيا ، لو لبست أثوابه نفس واثقة
قوية لم يكتب عليها أن تكون جعرا لحشرات أنت أدري بأناها - لكان لى
فى كل يوم غرام مع من أشتهى من الفتيات . لكننى ضعيف النفس !!

ولم تكن السيدة « ف » رأتنى كثيرا فى حلتى العادية وملابسى التى
أستطيع أن أتألق فيها . وإنما رأتنى فى حلتى الرسمية التى يشد إلى كتفها
سير من الجلد عريض يحمل حقيبة مسترخية ضخمة كأنها تم أشبق . وأظلم
المساء وكنا فى الحريف ، وسيطر على القاهرة فى هذه الليلة جو أميل إلى
البرودة ، وازدحم فى سمائها سحب مسف . ولم تكن هناك نوافذ مفتوحة ،
وخيم على الأحياء الوطنية سكون باكر وكنت أنا أثقل خطواتى محافظا على
نظافة حذائى . لأننى فى طريقى إلى السيدة « ف » ، وأظن أن العرف
العادى بين الناس يبيح لها أن تدعونى إلى الدخول حيث تقدم إلى فئجانا من
القهوة ، أم تراها ستعتبرنى الليل كذلك مديا وظيفتى الرسمية ؟! وحجزت
نفسى عن أن تتدبر الموقف إذا ما حدث الفرض الثانى ، لأننى رأيت أن
حلاوة الخيال ستزول ، وستعقبها مرارة وفقر تشيع فى قلبى كثيرا من

الضيق ، فأثرت أن أسير وأنا مشبع بيقينى أنها ستدعونى للدخول ، وإلا كان ذلك سماجة منها !! لكننى أشرفت على الموقف من زاوية أخرى حين تساءلت : أليست امرأة تسكن وحدها ؟ فما بالى أسرف فى التفاوض ؟ ففرت من الإجابة لأنها لم تكن فى صالحى ، ولست أدرى ما انتابنى بعدها ، حتى رأيتنى أستاذن عليها بطرقات خفيفة ، وأنا محول وجهى إلى الظلام الجاثم تحت منحنى السلم على قيد خطوات ، لكن صوتها المستميت الناعم لم يستجب إلى طرقاتى . وهناك وقفت سادرا واجما كأنها قد أخلفت موعدى ، وجعلت عيني فى الباب المصمت الذى لم يكن يضيئه زجاج ولا بللور ، ورجعت بعد ذلك أن تكون غائبة وهممت بالمسير ، لكن المهمة كانت فى قياسى أعظم من أن أتخلى عنها بعد الجولة الأولى فعاودت الطرق ، ولكن الصوت الناعم لم يداعب مسمعى لاعن بعد ولاعن قرب فننهدت عميقا ، وبدأت أجر ساقى راجعا إلى الورا ، ولكننى فوجئت بالباب يفتح فى هدوء ورأيت السيدة « ف » واقفة فى فرجة متشبثة بالمصراع المفتوح متعلقة به كأنها تخاف أن تنهار ، وكان وجهها محتقنا حتى بدا أسمن من المألوف وعلى كتفها دثار من الصوف تجاهد به رعدة هزتها مرتين منذ قدمت فى موقفها عند العتبة . ولم أنتظر حتى تقول شيئا فقد هتفت فى جزع وتأثر : أرميضة أنت يا سيدتى .. هل تأذنين فى أن آتى بطبيب ؟ فغمغمت : أشكرك .. فقد كنت على وشك أن أطلب إليك ذلك . وتركتها تعالج إقفال الباب وحثت خطاى أنا إلى طبيب على مقربة من الحى يقطن فى الشارع الرئيسى وتدخل عيادته فى منطقة توزيعى ، ولم يكن فى زحمة من مرضاء ولا فى شغل يستدعى أن أنتظر مدة طويلة ، وعرفنى حين رأتى ، فلم ينقض وقت طويل حتى كنا نهبط الدرج فى طريقنا إلى منزل السيدة « ف » . وانتظرت فى حجرة أخرى حتى فرغ الطبيب من مهمته وأشار

بالدواء ثم تركنا وانصرف .

قلت للسيدة « ف » وأنا أضع على المنضدة الإضافية الصغيرة القريبة من فراشها زجاجتين من الدواء ورسالتين وصلتا باسمها : ليتنى أستطيع ياسيدتى أن أقدم أكثر مما قدمت من عمل تافه . لكن .. هل ترغبين فى أن أنه إحدى جاراتك إلى أنك قد محتاجين إلى سيدة تؤدى لك خدمة ؟ فتبسمت فى تجلد وأجابتنى وهى تحت دثرها الثقيلة : مطلقا .. وأشكرك . أوه .. أتظن هذا عبثا ؟ ! ذلك أخف ما نلقاه . طاب مساؤك ! فهتف قلبى قبل لسانى : طابت لياليك جميعا !

وصفقت بيدى بابها ورائى وأنا خارج فأقفل ، وكنت لأزال أردد فى ضميرى وخطواتى تتعثر على الطريق : نعم طابت لياليك .. وأيامك .. طاب دهرك كله .. ليتنى سهرت على جسمك المحموم !!

— ٩ —

كانت حرارتى أعلى من حرارتها فقد أصبت بحمى لا يسجل ناراها « الميزان » ولاتتراقص فى هذيانها الأشباح . حمى الحب . كلها أمن وسكينة ودفء ولذة نقلتني إلى أرض غريبة لا يعرف مسالكها إلا المحبون !! ولم أشأ أن أكون أنايا فأسرع إلى بيتها فى الصباح التالى لأسأل عنها لأنى خفت أن تعتبرنى « انتهازيا » يعرض عواطفه على امرأة فى حالة غير طبيعية كالذى يغازل المحتاجة أو يخدع السكرى أو يسطو على مستغرقة فى النوم . وهكذا رأيت الموقف فى الصباح التالى وإن كان من المحتمل أنها ارتقبت حضورى .

لكننى اختلطت بين الطريقين مسلكا بين بين فتركت بطاقة باسمى أمررتها من الفرجة المستطيلة الضيقة القائمة بين الباب والعتبة وقد كتبت لها

عبارة جعلت أنفها طول الليل وجعلتني أذكر « ناصف أفندى » مدرس الإنشاء في المدرسة الثانوية وأنا أعض أنامل الندم على أنى لم أنتصح بما نصح فأقرأ من كتب الأدب . ثم ذكرت شينا أهم من هذا كله وهو أن السيدة « ف » طلبت إلى بعد إجلائها صندوق البريد عن بابها أن أمر عليها بالرسائل فى أوقاتي الخصوصية دون أن أحمل نفسى عناء ولا مشقة . فلم لم تطلب منى أن أضع لها الرسائل تحت الباب أعنى بنفس الطريقة التى تركت بها بطاقتى اليوم ؟ قلت : الأمر واضح . إنها تريد أن تجرد لقاءنا من المعنى الوظيفى الجامد فتلتقى فى « بالرجل » لا « بساعى البريد » . نعم .. نعم .. الأمر واضح . لكن المسألة باخت فى نفسى وزايلتني حلاوة السكره حين نجم لى رد جديد وهو أنها لم تنتبه إلى هذه الطريقة ولو انتبهت إليها لأشارت على بأن أسلكها .

فانشققت على نفسى ونشب بينى وبينها خلاف . وركبت زورق الحيرة فتأرجح بى فى بحار من الشك . أما أننى أحببتها فذلك ما قد حكمنا فيه وأصبح الحكم غير قابل لأن يستأنف ، وأما أنها تحببني فذلك ما قد نشب بسببه العراك وتطلبت حكما يفصل بينى وبين نفسى ، وآثرت أن يكون من الحوادث حتى أقتنع فلا أعود إلى اللجاجة مرة أخرى .

وقر ثلاث ليال على حادث مرضها فأرى بين البريد رسالة باسمها فكدت أهتف بحياتى حين خطرت لى هذه الخاطرة فوجدت فيها الحكم المنشود ، سأم بهذه الرسالة آخر النهار فأقضى وطرين أحدهما من مطالب القلب وعلى أن أراقب عينيها لأرى ماذا تقولان . إنها ستشكرنى على البطاقات التى ألقيتها من تحت الباب سائلا عن حالها ، ثم تتكلم بنظراتها فى موضوع الرسائل فأرى حينئذ رغبته مطبوعة فى عينيها ، وقد تقول لى بإشارة أو عبارة : لاتعن نفسك بعد اليوم فتعود بالرسائل ، ضعها من تحت الباب كما

كنت تفعل بالبطاقة .

وأعجبتنى الفكرة وارتحت سلفا للحكم الذى سيصدر ، لكن قلبى خفق له . واستعجلت ساعات النهار حتى يحين الليل فجعلت أبعثر الوقت بطرق شتى هدتنى إلى القراءة ، ثم عرفت دار الكتب لأتنى رأيها تضى فى هذا الطريق ، فأحببت الوسيلة والغاية فى وقت واحد ، ودلفت ثانيا إلى ذلك العالم الذى كنت طلقته من ثلاث سنوات غير آسف على ما فيه فلم أمسك كتابا ولا قلما بل كنت أشعر كأن دفتى أى كتاب أنما تنطويان على صفحات ملأها كاتبوها بالسحر والاستخفاف بتفكيرى ، لكن طيف السيدة « ف » كان شعاعا انصب على الورق فدخلت دار الكتب لأنها تفعل ذلك ، ثم إننى مقدم على ميدان ليس من الممكن أن أستخدم فيه سلاح الوسامة كما يفعل النساء لأن الوسيم الجامد الغبى البليد لايزيد على أن يكون صنما مليحا يؤدى مهمة جسدية .

وطرقت الباب وقلبى يخفق ، وخيل إلى أن أبادئها أول ماتفتح قائلا لها : سيدتى : هل لك فى قلب سخرى فتى يقدر كل معنى حرمه منه الزمان ويتمنى أن يفيضه على الناس ؟ يطلب حنانا أخف من ظلال النخيل ثمنا لحنان أرفه من ظلال التوت ، وجها كعيون الصعراء ثمنا لحب كفيضان النيل ، ووفاء فى القرب وحده ثمنا لوفاء فى القرب والبعد .. ألا ترين يا سيدتى أنها صفقة من أندر الصفقات ؟

وعجبت لأفكارى المضحكة المبكية ، لكننى نحييتها عنى ساعة سمعت وقع أقدامها فى طريقها إلى الباب ثم لاحت السيدة « ف » من الفرجة بين المصراعين فحييتها تحية المساء وبحشت عن ريقى حتى وجدته فقلت لها : لك اليوم رسالة . فلم ترد على . وكان المصراع المتحرك فى طريقه إلى الحائط ليستقر عليه عند تمام الفتحة . فما كان منها إلا أن دفعته : لينفسح الطريق

وهى تشير بحركة فيها رشاقة تأودها أن تفضل بالدخول .. فسرت ، وكأننى فى منام !!

رأيت شبيها عجيبا بين مسكنى ومسكنها فقد كان حجرتين متداخلتين اتخذت من أولاهما غرفة للجلوس . وكان الأثاث فيها يدل على التمدن والفاقة : فهناك كرسيان من طراز أفرنجى يبدوان غريبين بين حيطان السكن . ثم منصدة فى وسط الغرفة من خشب لا يوائم خشب الكرسيين عليها مفرش طرزته يد صناع بأزهار البانسيه والورد ويخيط من الحرير تطريزا بارزا تخطىء النحل فتقع عليه . وعلى الأرض سجادة سطت يد القدم على نفوشها فتركبتها ناقصة . لكن المنظر فى مجموعته يوحى بأن الساكنة امرأة ذات مزاج فنى يتسم بالهدوء . فليس هناك شيء صارخ ، وقد سبق لى أن دخلت مخدع نومها ليلة مرضها فألفيته كذلك ، كل شيء فى الحقيقة صورة من ملامحها ، سهولة وبساطة وهدوء مع رقة ظهرت فى « المالك » سقما وحساسة . وظهرت فى « المملوك » ضيقا واقتصادا .

ثم غابت عنى حتى استبدلت بثوبها الذى لقيتنى به ثوبا آخر أشد اتساقا على جسمها وأكثر هدوءا وزينة . ثم اقتعدت أحد الكرسيين حيث كنت تجاهها : وقلبت نظريها فى السقف قبل أن تشكرنى على بطاقتى ، وعلى ماسبق أن تجشمتها فى سبيلها من متاعب ، وكانت فترة غيابها عنى لاستبدال الثوب فى صفى لأنها أتاحت لى أن أسترد أنفاسى وأن أهيبه ذهنى لمفاجآت الموقف . لم أتردد ولم أتلثم حين شرعت فى الرد قائلا : هل ترين حقيقة فى هذه التوافة مشقة حملتها فى سبيلك ؟ ورجوتها بعينى أن تقول لا ، فأطرقت تنظر فى كفيها وتراجعت أجفانها فى هودة لترمى ظلها على وجهها الشاحب ثم تنفست عميقا ثم ألقت إلى بنظرة سريعة ما لبثت أن استردتها وبدأت أشعر أننا رجل وامرأة رمت بهما عجلة دوار فستقا على

حاشية الدنيا وكأننا غريبان ؟ . وركبها انكماش الأنثى وخيل إلى أنها استشعرت ندما خفيفا لوضعنا فى هذا الموقف . وطالبتنى الرجولة أن ألقى شيئا من الحركة على خمود موقفنا فشرعت أتحدث عن الأزمة الاقتصادية الحادة التى أمسكت بتلابيب العالم ، وكنت لحسن الحظ قد قرأت عنها مقالا ضافيا عميقا فى مجلة وقعت فى يدى منذ أسبوع ففتحت أمامنا الأبواب ودرج بنا الحديث فى شئون شتى ولمسنا شئون التعليم فكانت مفتاحا أدير فى قفل خصوصياتها .

حدثتني أنها مدرسة فى إصلاحية البنات وأن مهنتها هذه تقفها كل يوم على ألوان من الشخصيات يلذ لها أن تراقبها وقد كانت على حد قولها - تفتح بين الحين والحين فتحا جديدا فى عالم النفس يؤكد ثققتها بأن التجارب التى يتركها الجيل للجيل ميراث صالح يدفع بالبشرية خطوة على طريق المعرفة . فهزرت رأسى كمن يتذوق لحنا ثم قلت فى شيء من الأسى والشوق واللهفة : ما أجمل ماتقولين ؟! فأجابت : أشكر على حسن الظن ، فأردفت : بل قلت الحقيقة . ثم استدركت : ولكن .. فهزت رأسها تحرضنى على الكلام ، فأكملت : يخيل لى أن الناس كمجموع ينتفعون بتجارب الناس كمجموع .. أعنى أن التجارب الفردية لا تكاد تترك أثرها فى الناس . فقالت : كلام جميل !! فأردفت : إن جيلنا الحاضر ينتفع بتجارب الجيل الذى سبقه فى نطاق التعليم والطب وغير هذا وذاك فى آفاق المعارف ، ولكن هل انتفع اللص الذى سرق فسجن بتجربة الذى سبقه حين سرق فسجن ؟ لا بالطبع ، فقالت وهى تتنهد : كلام جميل كذلك ، هل تقرأ كثيرا يا سيد « مختار » ؟ فأجبته : بل قليلا ، ومنذ وقت قريب ، فأردفت وعلى فمها ابتسامة : إذن فلا بد أنك كنت طالبا ممتاز !! فحركت أشجان قلبى بهذه الدعابة حتى حملتني على أن أرد بسرعة وبصوت فيه ارتفاع وأنا أشير نحوها بكف

كأننى أمتنع مركبة قمشى : لا ، لا ، لا بالعكس ، لا تسرفى فى التفاؤل فقد كنت من أبلد الطلاب !! وابتسمت على الرغم من أن هذه العبارة قد انسابت من فمى فى حماسة تحمل الصدق فحملتها على أن تضحك وشاركتها ضحككتها فى جهور لا أنساه ، قمنا بعده إلى أحد أركان الحجرة حيث ألقينا نظرة على كتب كان بعضها من الكتب الدينية وبعضها فى الأخلاق ، وفيها قصص ، كما فيها من الكتب الدينية ما يحمل أسماء علمائنا المجددين . وكان بعض هذه الأسفار يحمل خاتم دار الكتب وبعضها الآخر لا يحمل خاتم الدار . وقالت لى السيدة « ف » بعد أن فرغنا من قراءة « كشف » أسماء أصدقائها الأوفياء !! أتريد أن تستعير شيئا لم يسبق لك أن قرأته ؟ فوافقت شاكرا سعيد النفس لأننى رأيت العلاقة بيننا آخذة فى النمو السريع ، ثم ودعتنى إلى الباب وأقفلته ورأى برفق .

لم يتيسر لى سبيل النوم ، لكتابها وأفكارها ولقياها وحديثها وطيف خيالها الذى شبه لى مرارا أنه خارج من حجرتى الأخرى جامعا بكلتا يديه ثوبا حريريا على الجسد الناعم كأنه يخاف برد الليل أو تراب الطريق . قطعت الشطر الأول من الليل فى قراءة الشطر الأول من القصة ، وقطعت الشطر الثانى من الليل فى تدبر ما قرأت وفى استعادة الحوادث ، وفى فنجال الشاى الذى شربته عندها ، والذى قامت جهزته بيديها ، وكيف أن الطبق ارتفع مع الفنجال لاصقا فيه حين رفعته عنه لما تخلخل الهواء بينهما فتلاصقا فعلقت على هذا بغير كلام ، بل بنظرة وابتسامة ، فسمعت السيدة « ف » تقول لى بلهجة كانت خليطا بين الهزل والجد والعلم والخرافة : يقولون يا سيد « مختار » إن هذه الحادثة لا تقع إلا لمن كان كثرما بطبعه ، لا يلذع سر صديق . فعلقت مداعبا : لست أنفى صحتها ، ولكننى أظنها تخلفت فى هذه المرة . لكننى قرأت فى عينها ما يناقض أقوالى .

وعادت حوادث القصة فشغلت أفكارى من جديد . كان الذى قرأته منها يتناول امرأة ذابت إرادتها فى الحب المحرم ، كما تذوب قطعة الزيد فوق نار لينة .

ولعل الكاتب كان بارعا ، ولعلها حادثة شخصية تناولتها شبابة قلمه فى خلق ومهارة ، وبعد أن عثرت قدمه مصادفة بهذه المرأة على طريق الحياة .

اخترت هذه القصة بنفسى من بين كتبها ومحض إرادتى ، ولكنى أذكر أن نظراتها دفعتنى ، وتدخلت فى اختياري فلم تدعنى حرا، دفعتنى بنظرة ثم شجعتنى بإشارة ، وهذا فعل من التصريح .

وسمعت أذان الفجر وتبعته أنغام المؤذن حتى غاب آخر نغم منها فى ثنايا صياح ديك على أحد السطوح القريبة . ثم سيطر على النوم حتى انتبهت على أشعة الشمس التى تسفلت من إحدى النوافذ الشرقية .



أحسست فى يومى التالى كأننى مخلوق مجنح حواه الأثير ، وأن عيني هاتين قادرتان على أن تستشفا ما وراء القبة الزرقاء ، وأن أذنى هاتين قد تبدلتا فسمعتا نجوى الملائكة . وهبطت السلم العالى فلم أشعر بدوار ، ثم هبطت المنحدر الذى يؤدى إلى ميدان باب الخلق وأنا أسعد الخلق . وبدأ لى كأنما حاضرى ينفصل عن ماضى ، وكأن سدا عظيما قام بين الظلام والنور والشقاء والسعادة ، وكأن الأرض لم يعد فيها أنين مكوم ولا صراخ مظلوم ولا زفير محروم !! نسيهما حنان وأفقها أحضان ، يتمطى فى نعمتها كل خلق الله !!

قلت فى نفسى بعد فترة : وماذا بدل الدنيا ؟! فرأيت الجواب فى صورة ظلام ينسدل على « القاهرة » فى هدوء يحرك ساكن الخيال ، كما

تسدل ستائر العروس على النوافذ : ويعتقب ذلك لبس و « هندمة » ودروج على الطريق إلى مسكن السيدة « ف » ثم رجل وامرأة فى كرسيين متقابلين وأحاديث طابعها جد تشويه إشارات إلى حبنا المولود وهذا هو ما بدل الدنيا! دار حديثنا فى اللقاء التالى حول موضوع أوحى به حوادث القصة التى قرأناها . هيكلة الرئيسى هو الخطيئة والغفران . ولم تدافع السيدة « ف » عن خطيئة تلك التى تردت ، ولكنها عرضت حوادثها جزءا جزءا . قالت : إن الذين يلقون على المخطئة مسئولية خلقية قد حملوها هذه التبعية لأنهم فرضوها فى مقام وعيها حين بدرت لها بوادر الخطر . فالتقصة التى قرأتها ياسيدى قصة زوجة لم تثبت أمام الإغراء فزلت قدمها ويقولون :إنها مسئولة لأنها لم توصل فى وجه الهوى نوافذ قلبها منذ اللحظة الأولى . فبماذا يجيبون إذا اعترض عليهم معترض ، بأن هذه المرأة كانت ناقصة الإدراك وحكمها حكم النائمة تماما ، لأن حياتها الزوجية كانت مشار هموم ، فتحت فى حصنها ثغرة دخل منها المهاجم . إننا مسئولون عن الدفاع إذا هوجمنا ونحن فى حالة طبيعية . أما النائم والمريض والميت « وضحكت » فالمسئولية واقعة على من يهاجمه ، لأنه ليس أهلا للدفاع . قلت : وعلى أننى أوافق فى كل ما تقولين ، فإن لى وجهة نظر أخرى هى أن التطلع الكامن فى نفوسنا كثيرا ما يدفعنا إلى غير ما نريد . يلذ لنا فى سعادتنا أن نشرب بأعناقنا إلى السعداء أمثالنا لنرى كيف يسعدون ، وأينا أشد إحساسا فى نعيم السعادة . ويلذ لنا فى شقائنا أن نشرب بأعناقنا إلى الأشقياء أمثالنا لنرى كيف يشقون ، وأينا أشد ترديا فى جحيم الشقاء . ودعينا من تلذذ بعض السعداء بشقاء غيرهم ، وتلذذ بعض الأشقياء حين يشمون رائحة السعادة .. حتى الموت فإننا كثيرا ما نستطلع طريقه ثم نعود مذعورين !! أنا شخصا يحدث لى أن أكتم أنفاسى لأخذ فكرة عن خمود الرنتين وهبوط

القلب واضطراب الجوارح ، حتى إذا ما فرغت طاقتي استأنفت تنفسي وأنا أقول : أعوذ بالله .. إنه شيء فظيع !!

هذا التطلع كثيرا ما يشقى ناسا وهم لا يشعرون .

قالت السيدة « ف » : هذا صحيح . لكن المسئولية الكبرى بالنسبة لهذه الزوجة إنما تقع على المجتمع .

فتفتحت عيني في تعجب وبلاهة ، فابتسمت كأنها ترجوني أن أصبر ، ثم واصلت حديثها : من أبسط القواعد التي ننتجها في حياتنا قاعدة « الإبقاء على الفضيلة » .. وأخذت نفسا عميقا وكأنها أحست أنني عاجز عن تتبعها بأفكاري ثم استطرودت : أليس من الحكمة أن نترك دم المنتحر ينزف لأنه قطع شريانه بنفسه ، ولا أن نقذف في الشارع بالبقية القليلة التي تركها اللص من نقودنا المسروقة !! قلت لها : من ذا الذي يمارى في هذا يا سيدتي؟

فأجابت وقد تلهب وجهها بحمرة الحماسة : المجتمع !! ألا ترى ذلك واضحا في أفعاله ؟ هذه الزوجة التي أخطأت ، عرف المجتمع خطأها فثار عليه ولم يعطها الفرصة للتوبة ، بل قطع عليها الطريق ، فماذا تظنها فاعلة ؟ لا بد لها أن تسير ، إلى الوراء أو إلى الأمام ، وقال لها الناس : احذري أن ترجعي فلست منا في شيء . فلم يبق لها بعد ذلك إلا أن تمضى في طريق الخطيئة . هلا ترى بعد ذلك يا سيدى أننا كثيرا مانحيد عن هذه القاعدة البسيطة وهي « الإبقاء على الفضيلة » ؟ قلت : كلام مقنع ولكن .. « وقلبت كفى وزممت شفتي في يأس » فقالت في تخاذل : نعم ، « ولكن » .. أنا أعلم ما بعدها . تريد أن تقول : إن تطبيق هذا « المبدأ » على « مثال » الزوجة يعطى نتيجة كريهة . وما الذي يجبر زوجها على أن يتقبل امرأة زلت ، ولكن مرة أخرى لاتنس أننا حيال « نقص » لا يلبث أن

يستحيل « كمالا » إذا واجهناه وعالجناه ، وبذلك نضيف إلى « الوحدات » الكاملة على سطح الأرض « وحدات » جديدة ، أما إهلاكنا « الناقص » فورا وبمجرد نقصه ، فهذا إسراف قبيح يعرض عالم الكمال فى كل شىء للفقير والخواء .

وانفجرت ضاحكا وأنا أقول : مرحى ، مرحى !! لو أن كاتب القصة ساق حججك هذه فى الدفاع عن المخطئة لحظيت بغفرانى أنا شخصا . فابتسمت ثم سألت باعتزاز وخجل : فى العالمين معا ؟ عالم الكتب وعالم النفس ؟ فسكت ولم أجب !!

وهكذا خلقت منى السيدة « ف » إنسانا يفحص أسلحته فى كل شهر مرة . كان على أن أحدثها وأن أشاركها فى التفكير وأن أحظى باحترامها . أو كان على الأقل ألا أصغر فى نظرها ، لذى أن ألقى منها حنانا واحتراما فى وقت واحد . ثم عرضت عليها مرة أن نلتقى إذا شئت فى مكان غير البيت فاعتكرت على وجهها دلائل رغبة ورفض حتى خيل إلى أن هذه السيدة تمشى فى طريقى على الرغم منها وأنها لا ترسم حيالى خطة محددة وإن كنت أنا فى الواقع أراها النصف الذى لا يلائم أحدا سوى .

كان على ما دامت هذه هى رغبتي أن أعلم حقيقة وضعها من الناس لأننى عرفت فى نطاق الجمال والتفكير والوحدة والاستقامة ، امرأة تغذى عواطف فيلسوف ، لكنها على الرغم من كل هذا تسعى بجمال يفتن العباد ، ويبدو أنها تكبرنى بسنوات قد تكون خمسا إذا صح تقديرى .

ثم التقينا فى الخلاء . يجرى النيل على مقربة منا وعلى البعد بستانى يغنى وهو يشذب الأشجار . وجعلت السيدة « ف » تنظر إلى الماء وإلى مسافة طويلة كأنها كانت فى شروء . واتخذ وجهها طابعا عجبا كأنها فتاة أنصتت فيها الأنوثة إلى أولى همسات الحب . وقد كنت فى الحق أسائل

نفسى : أمن المعقول أن عيون الرجال غفلت عن هذه المرأة حتى يومنا هذا ؟
أعذراء هى ، أم أن يدا قوية غشوما ضربت بينها وبين زوجها فى الفراش
فشيعته إلى القبر أو شيعها إلى عالم النسيان ؟ وظللنا فترة من الصمت لم
ترفر على مجلس لنا من قبل فرجحت أن موضوعا جديدا يراود أفكارها
وهو مما لا يحسن الكلام فيه أو لعله مما تستحى أن تتحدث فيه . ورأيت
الطريقة المثلى لفض ختم الحديث أن أبدأ فأقص عليها قصتى الشخصية
فأكون بهذا قد أعلمت وأجيت ، وستشرح هى من فورها فتضع الموزون فى
الكفة الأخرى وتقص على قصتها ، وتنحن وتبلمت ريقى واستحضرت
صوتى كأننى سأغنى لأول مرة على خشبة المسرح . ثم قلت : اسمح لى
أن أنهى إليك أخبار نفس قد يهلك أن تعلم أخبارها . فاهتسمت وهى
ترمى ببصرها نحو زمرة أعشاب برية رقص بعضها الهواء . وقالت : بل
أخبار أعز نفس ، تكلم . وأعارتنى سمعها وطمعت ببصرها كأنها ترى شيئا
على الأفق . وبدأت أنا أقص ما غبر من ماضى فى صدق وإخلاص
وصراحة كأننى أعرض على طبيبى تاريخ علة قديمة ، ولم تقطع على حديثى
ولم تعلق على حادثة ، اللهم إلا سحائب مختلفة الألوان كانت تمر فى صفحة
وجهها كما تمر الظلال ، عبرت بها عما بداخلها تعبيرا عميقا لأنها كانت
فصيحة الملامح . وختمت مقالى يومئذ بأن همست : كنت عاهدت الزمن على
الأتلب منه شيئا بعد أن حقق لى بعض رغائب أراها الآن تافهة جدا .
وسخا الزمن - وهو البخيل - فنصب لى على طريق حياتى منارا عاليا يلقى
شعاعه إلى مدى بعيد ، هذا المنار هو أنت !!

قالت وعيناها تسقيانى خمرا : حرارة الصدق والإخلاص والحب فى
حديثك أحستها الأحجار وجذوع الأشجار هذه التى تراها حولنا . ولكننى ..
« وتنهدت » أليس من المستطاع أن تتخلى عن أفكارك ؟ أنا لن أتخلى

عنك بطبيعة الحال وسأبقى حيالك ماعشت أختا وصديقة أضن بالطاقة العذبة التى حملتها نفسى لك أن يبدها عارض يعرض . ثم سكتت ونظرت إلى النيل وقالت وكأنها تناجى غيرى : كنت زوجة . وفى هذا ما يكفى !! وأطرقت نحو الأرض حين اقتلعت بيدها عودا من النجيل جعلت ترسم به شخصا شتى ، وأحسست أنا - وإن توقعت ذلك من قبل - أن شيئا من الفجيعة ألقى ظلاله على نصاعة أحلامى ، ولكنى شخصت إليها فرأيت الجمال الذى يوقر ملامحه شبه حزن قديم ، والعينين الهادئتين اللتين تقسمان أنهما ماكذبتا قط ، والأهداب المشرعة التى تلقى ظلها على الورد ثم تسترد الظل . وتصورت فى لمحة قصيرة كيف أن هذا كله سيكون ملكى ، وأن ذلك الينبوع غير راجع ولا مدفوع ، ثم عدت فذكرت شيئا بعيدا . ذكرت أبى الذى كان يغفر لأم مختار بعض أخطائها لشفاعته الجمال للأخطاء ، ثم هتفت فى سرى : وكان معلورا ! وهذه السيدة لو كانت ذات ماض - وهذا غير معقول - لوقف سحرها فى طريق حياتها فلا تنهار . لكنها البراءة !!

ومرت على وجهها فى هذه السكتة لمحات مختلفات الألوان كما قر ألوان الطيف فى البللورة ، حتى استطعت أن أسترد انتباهها بقولى لها : كنت زوجة ؟ .. ولو !! فأهدت إلى نظرة غامضة وقالت : ولو !! .. هذا بديع ، ولكن .. لكن يخيّل إلى أن فى فطرتنا عنصر الإلحاح الذى يدفعنا فنطلب « النهاية الكبرى » فى كل شئ ، قلت فى دعاية رفع الحب عنها القيود فلم أعد أستشعر خجلا إذا عجزت عن مجاراتها فى الفكر : بلبلت أفكارى !! فرفه عنها قولى حتى أحسست زهوا واستطردت تتحدث : نمسك بحبل المطاط ونحن صفار فلانفتر عن شدة حتى ننال « النهاية الكبرى » فإذا به ينقطع بين أيدينا ، وتعطينا كرة الحظ على المائدة الخضراء ماقد نستكثره فى ضامرنا ولكننا تلح حتى نعرف « النهاية الكبرى » وأنى لنا

أن نعرفها إلا إذا بدأ حظنا يتراجع فبدأنا نخسر ؛ ثم لانكف !! ويعطينا يوم الأرباء هذا الذى نتملاه من السعادة فنجد أنفسنا مدفوعين لننال « النهاية الكبرى » فإذا بالتقدم يقص من أطراف سعادتنا شيئا ، دعنا نعيش فى الحاضر فترة من الوقت ولا تدفع الزمن بكلتا يديك فإنه يمضى على الرغم من كل شيء !! نظرت إليها نظرة المفتون ثم وددت أن أقبل ثغرها وحديثها لو كانت الأحاديث تقبل . إن هذا الجمال الذى يوقر ملامحه شبه حزن قديم تملك صاحبه عقلا يعقلها عن كل منقصة ، يا الهى !! أهكذا تفعل الكتب؟! تبا لى !! لم كرهت المدرسة؟! ثم ذكرت الماضى فوجدت فيه بعض ما يخفف على مرارة الندم ، ثم نظرت إلى السيدة « ف » وأنا أبتسم وأقول : لك ما تشائين يا سيدتى ولكن ينهى أن تعلمى أننى أسد عليك الطريق . لن أدعك تعرفين إلا إلى الغاية المشتركة التى تجمع كل ذكر وأنثى ..فاعلمى أنه لامحيص !! أجل لامحيص !!



لم أعد أذهب إلى القهوة ولا أرى « أبا الفتوح » ولا أذكر عزبة « خورشيد » !! امتدت يدها إلى الماضى فطمست معالمه قبل أن تبني الحاضر بأيد وقوة .. وجعلتنى أعيش معها بقلبي وأفكارى . أعمل ، وأقرأ ثم أناقش ما أقرأ فأجعل من نفسى طرفا أصيلا وطرفا يمثلها لتصارع الأفكار.

ولم يرق لنا أن نلتقى فى مسكنها كثيرا حتى لا تتوشنا الألسن على أن التقائنا فى المسكن كان مدعاة إلى أن أفكر فى وجهها أكثر مما أفكر فى معانيها الباقية ، وقد لحظت هى ذلك ففتحتنى بنظرة ناطقة عاتبة يشوب عتبها قليل من خيبة ظننا فى . والحق أننى آمنت بكل ما يبدو منها لأننى رأيت خصالها . كلها معانى ضخمة من المحال أن يتقلدها المتكلف إلى آما

طويلة .

أخذت يد الليالى تدفعها شيئا فشيئا حتى نتقارب ونقص ما بيننا من التباعد نقصا لا يحس ولا يرى ، كان أشبه شيء باستهلاكنا أعمارنا فلا نلفظن إليه إلا وقد بلغنا الذروة . وقد حدث لنا هذا :

— كنا فى ليلة من ليالى الشتاء وفى حجرتها المعهودة على كرسيين متقاربين نحتسى الشاي وتدفعنا بأنفاسها جمرات خبت فى موقد نحاسى على شكل زهرة اللوتس ، وقد علقت بجو الحجرة بقية قليلة من عبير « عود » أحرق منذ المساء ، وسكن الحى الوطنى بعد المغرب مباشرة ولم يعد أحد يجول فى الحارة إلا الذين هم آييون إلى مساكنهم .

كانت السيدة « ف » فى ثوب من « الكستور » داكن الرقعة تظهر فيها دوائر بيض على هيئة الأحقاق . فصل على جسدها المفصل على طريقة « الروب » فاستقت فتحتة على صدرها كما تتسق فتحة « الجاكت » . ويسر لى ثوبها هذا أن أرى الأضداد جنباً لجنب : رأيت البياض بجانب السواد ورأيت جزءاً من صدرها تحت ثغرة النحر ثم طول عنقها الذى يذكرنى بجيد « إيزيس » وشعرها الغزير المتراكب فى ثقل نوعى — كما قلت لك — ما تتراعى ستائر القטיפه .

كان مجلسنا يومئذ إلى أننا فى سعادة هادئة أشبه أن تكون سكرة لا عريدة لكن فيها انتشاء وإشراقاً وتحليفاً . وكأننا اتفقنا بهدوئنا على أن نترك الأيام تمضى فى سبيلها بطريقتها وأن نأخذ من الشر ما يوجد به الشجر يوماً بيوم ، لكن عنصر الطمأنينة كان متميزاً فى علاقتنا كأننا زوجان حبيبان قطعاً فى حياتهما مراحل الجلبة وآلاً إلى الاستقرار . كانت تقرأ وأنا أسمع ، ولطالما كلفتنى من الأعمال أشياء جعلتنى اليوم أكبر من سنى ١١

وعرضت لنا مسألة التضحية وما تعقبه من سعادة يتمتع بها فريق دون

فريق . ثم عرض لنا بعد ذلك لون من ألوانها هو التضحية فى الحب .
فأمسكت عن القراءة وتوقفت بغتة كمن يمسك أقدامه لئلا يتردى فى بئر
وجد نفسه فجأة على حافتها . ثم وضعت الكتاب مقلوبا على المنضدة
القريبة حتى لاتضل الصفحة . ثم عقدت ذراعيها على صدرها كما يفعل
صغار التلاميذ فى الفصول وقالت بنبرة تنم عن شعورها بخطر قريب « آه ..
دخلنا فى الجد » ويدا على وجهها أنها لن تستأنف القراءة فما كان منى إلا
أن تناولت الكتاب وأنا أقول بصوت جاهدت أن أخفى اضطراب نبراته :
فلاقرأ أنا .. فلا تعنى نفسك يا سيددى ، ثم بدأت :

— « أما التضحية فى الحب فقد تسعد طرفا واحدا ككل تضحية كما
يموت بعض أبناء الوطن ليسعد الباقون . ولكنها فى بعض الأحيان تتيح
للرجل أن ينال كل ما يشتهى وتتيح للمرأة تبعا لذلك أن تنال بعض المتاع ،
أو تنال كل المتاع كما ينال الرجل سواء بسواء . لكن مرارة الندم هى التى
تجعل السعادة منقوصة .

على أن هناك نوعا من الأحباب يعطى وهو يريد ، ويدرك كل مايفعل،
وهذا ضرب من النفوس قوى حتى فى ساعة الضعف ، تقع نفسه فى القمة
دائما وفى مكان حصين لا يستطيع الندم أن يرقى إليه . »

كان هذا تعليقا على حادثة فتاة فر صاحبها بعد ما خدعها ورنق ماءها
فلا يشربه إنسان . وجلست هذه الفتاة تقول لإحدى صاحباتها فى طيبة تظن
بلاهة : لست أدرى لم غاب عن أفقى وصد عن طريقي ؟ اهل يظن أنه بما
عمل قد أحالنى إلى شريرة ؟ وإذا كان هذا هو ظنه فما باله عمل ذلك ؟
إننى لست شريرة ولاسيئة إلا فى ناظره هو ، لأننى أحس أننى لم أتغير ..
بالنسبة إليه على الأقل . « أقسم لك أننى لا زلت أحبه !! ليته يلقانى !! »
وتوقفت عن القراءة ووضعت الكتاب أنا الآخر مقلوبا على المنضدة

القريبة لأتفرغ للتعليق . لكننى بصرت السيدة « ف » وقد استحال لونها إلى شحوب الموتى . كانت ناظرة إلى حجرها لاتتحول عنه حتى لا تلتقى الأعين ولكن ذلك لم يحل بينى وبين أن أقول شيئا عما أريد فهمست : عشاق ضروب .. أشكال وألوان . وكل يفعل ما يظن أنه يسعد ..

وخيل إلى أن الليل يتحدث معى وأن مخدرا عظيما سرى فى حواسها فلم تعد أهلا لأن تفعل ما تؤمر به . وكانت لاتزال ملقبة ببصرها إلى حجرها حتى تقدمت خصلات شعرها فانسدلت على أسفل جيدها كمانسدل ستائر المخمل الأسود . وألفيتنى مدفوعا نحوها حتى وقفت إلى جانبها ووضعت يدى على رأسها للمرة الأولى فى حركة تلقائية لاتشوبها إرادة . ثم قلت وأنا أضغط رأسها إلى الوراء حتى رفع إلى وجهها : أليس كذلك ياسيدتى : أسنا فى الحب أشكالا وألوانا ؟

وتوقعت - كما تتوقع أنت الآن - أن تنقطع السدود فورا وأن تغيب فى هذه اللحظة قوانين السماء والأرض ، وأن نستمع إلى نداء قد استمع إليه من قبلنا أحباب كثير . ولكن .. ولكنها أخفت وجهها بين كفيها وانخرطت فى بكاء عنيف .

قالت لى السيدة « ف » بعد فترة عميقة وبصوت تقطعه الشهقات : هل تحببى ؟ فأجبتها وقد تراجعت إلى مجلسى الأول : ألا زلت تطلبين الدليل ؟ قالت : إنه آخر ما سأكلفك به من متاعب . أصغ إلى . أطلب إليك باسم حبنا أن تصرف عنى حتى أخلو بنفسى . هل ترى فى ذلك عناء تحمله من أجلي فإنى فى حالة لاتصلحها إلا الوحدة ، وإذا كان اسم التضحية يروك فلا تعد إلى حتى أستدعيك .. أرجوك !!

كانت قواها جميعا متعاونة فيما فعلته كما تتعاون قوة الجيش العظيم فى المعركة الفاصلة : دموعها الكبار تنبثق من عينيها فى حدة تنم عن

اضطرابها الجائش وشهقاتها تقطع نبرات صوتها المستميت الوانى بطبعه، فانظر ماذا عسى أن يفعله مثل هذا الحديث !! وغاب عنها الوقار وحل محله انكسار ظاهره جمالها فأمسى جديرا بأن يحرك الصخر . وعجبت فى مجلسى من أن السيدة « ف » التى تحتل من نفسى منزلة لم تتناول إليها امرأة ، كيف استحالت هكذا إلى أنثى .. امرأة .. وامرأة بكل ما فى الكلمة من معان ، تريد خشونة تحوطها كما نقيم حول البستان سورا من الثبات الشائك .

كانت حاجتها الحقيقية فى هذه اللحظة احتضانا وضما وتقبيلا لأنها كانت نهبا لآلام ومخاوف . لكن السيدة « ف » وقد عرفت أنت من هى - فاض حديثها بالصدق وهى ترجونى أن أخرج . فلم يسعنى إلا أن أمتثل . وخرجت أتعثر تعثر نسمات الخريف فى منعرجات الحارة وذهبت من فورى إلى بيتى ، وخيل إلى أن وقع الحوادث كان عميقا فلم يفتح على أبواب الأرق فلم أثبت أن استسلمت لنوم عميق .

خرج حيها منذ قريب من منطقة توزيعى فلم أر بابها فى اليوم التالى . لكن يوما آخر لم يكدهم حتى رأيت بين يدى رسالة عرفت فيها خطها قالت فيها شيئا لم أتوقعه قط :

٢٠ أكتوبر ..

« ليتنى أستطيع أن أشكر على الليالى السعيدة التى أقمتها بهبك فى نطاق حياتى الكثيرة .. أجل ليتنى أستطيع !! كنت أناثية معك إلى حد كبير فما هو ذا حبنا قد ولد منذ عام وأنا لم أمنحك شيئا .. آه ! ماذا أقول ؟ ليت عندي ما أستطيع أن أقدمه إليك . إن الأوان قد آن لتعلم كل شىء وسأقوله بنفسى :

كنت بالنسبة إليك امرأة قاسية تأخذ ولا تعطى ، وقد يكون ذلك غير

واضح فى ذهنك ولكنه عين الحقيقة ، فأنت بما أحببتنى قد منحتنى كل ما
أقناه لكنى بما أحببتك لأظن أنى منحتك إلا التافة القليل ، وأحلام المحبين
عريضة .

ذلك هو ما أفاض دمعى وزلزل قلبى مساء كنا نقرأ . ألا ترى هذه الفتاة
الطيبة التى قالت لصاحبها بعد أن سلبها حبيبها أعز ما تعتز به العذراء :
« أقسم لك أننى ما زلت أحبه !! ليته يلقانى !! » إن هذه الفتاة التى
أهكتنى . وأننى على الرغم من رضاك بحبنا المحروم قنيت أن أكون بالنسبة
إليك هذه الفتاة ووددت أن لو كان الزمن ساقنى إلى طريقك أيام كنت أملك
« الدرة » فبذلتها لك لأبرهن على أننى فانية فيك لا أرى لشخصى كيانا
مستقلا ولا أحسه إلا قائما فى كيائك . لكن .. كل شيء جاء متأخرا وغير
مطابق لأحوالنا ، فأنت لست كحبيبها الغادر وأنا لأملك ما أقدمه إليك !!
كل شيء . فى قديم مر « بتجربة » فلا أرى فى منزلى شيئا أقدمه
لضيفى الغالى ، فماذا أعمل ؟!

حرام على أن أستغل طبيبتك وأن أحرم شبابك متع الحياة وأن ألوح فى
حياتك سراها وفى الدنيا ماء وجنات وظل وفاكهة .

وبحسبى ماقد حققته لى من سعادة ويكفى أننى التقيت - ولو عرضا -
بمثل من مثلى حلمت به أيام كانت تسدل على سريرى كلة العذراء ، وحلمت
به بعد أن أسدلت على فراشى كلة الزوجية ، وظللت أحلم به بعد أن
أسدلت على مخدعى كلة امرأة لاهى زوجة ولا عذراء .

اغفر لى حبيبى لنفسى فقد أضأت بك كهف حياتى سنة كان من الممكن
جدا أن تنتفع بها فى نطاق آخر ، فلاتلمنى ، فإننى محرومة !!
٢٢ أكتوبر .

ماذا أصنع ؟! لا بد أن أقول لك كل شيء وإلا هلكت هما وحسرة .

ألم أقل لك : إنه ليس عندي ما أقدمه إليك ؟ وقد تتساءل عن معنى هذا .
أما معناه يا صديقي فهو شيء فظيع ، أفظع مما تتصور . لأنك عبت لمدة
عام صنما ليس أهلا للعبادة بالطبع ثم هو بعد ليس أهلا لأن يوضع في بيت
الأصنام .. فقد أحببت امرأة لها ماض سيء .

كنت منذ أعوام أعيش في بيت زوج كريم ، كان كريما حتى في أخرج
الساعات ، وكنت في إحدى عواصم الوجه البحري ، تحت رجل يسلك في
الحياة مسلكا عجيبا : يؤدي واجباته في الخارج كما تؤديها الآلة الحاسبة
ويؤدي واجباته في البيت كما يؤديها عداد الكهرباء ، فهو في السوق
صاحب أكبر مطعم والمستقل بالقدر الأعظم من العملاء . كثير المال يعيش
في بحبوحة . لم أطلب منه شيئا إلا قضاء . ولم أقترح عليه رأيا إلا صوبه .
يسارع إلى ما أشير به قبل أن تنتهي اشارتي . حريص على إسعادى بطريقته
التي كنت أراها بيني وبين نفسي غير منطبعة على ما أريد .

ودرجت حياتنا على هذا النمط حتى آلت إلى حال قميت معها أن
يخالفني مرة أو أن يقسو على مرة فأشعر بحلاوة الصلح وطعم السلام وتطرح
الإراحة وأذوق تطلع الأعضاء إلى الاستلقاء بعد وعشاء السفر وامتداد
الطريق لكن ذلك لم يحدث قط . لم يكن هناك خصام فأذوق طعم الصلح
ولا حرب فأعرف معنى السلام ولا تعب ولا وعشاء طريق فأرى تطلع الأعضاء
إلى الاستلقاء .. بل تحية صباح ثم انصراف إلى العمل وتحية المساء ثم رقاد
في فراش مشترك . وبين هذه وتلك مطالب مقضية ونفقة ميسورة ومعاملة
من إنسان لا يعرف إلا ما أريد .

وكنت منذ شبابي الباكر خيالية انطوائية وهاتان خصلتان ما اجتمعتا
في نفس إلا رعتاها في صمت كما ترعى النار في مخزن التبن .. ولم يكن
هناك في بيتنا بنون يبعثرون أوقاتنا ولا مشاكل عامة تلهيني عن

الخصوصيات . لأن الذين يمنحون أنفسهم للمجتمع بما يعملون لن تستطيع مشاكلهم الخاصة أن تستحوذ عليهم ، ومعنى ذلك أنهم لن يعيشوا أنانيين ما عاشوا . أما أنا فقد كنت أنانية من قبل كما كنت معك . أعطتني الظروف فرصة فسيحة فكرت فيها فى نفسى وحدها حتى حاق ما حاق ثم أجبرتني بعد ذلك على أن أكون أنانية بشكل آخر حين حرمت من يجب ألا يحرم لحرص على نفسى ، ولأنه قد سبق أن أطعمت من لا يحب أن يطعم فساء ظنى بالناس . ولم أسوء الظن بك أستغفر الله . لكننى طبقت عليك مبادئى حياتى ويؤلمنى أنك قبلتها .

ليتك فُجعت يوما فاستدرجتني من حيث لا أشعر حتى نلت منى ما يخفف عنك نار الحرمان . لاتعجب فإننى أحبك : وما أشبهنى الآن بالفلس الذى ألتف ماله فيما لافائدة منه ثم عاد فتمنى بعد فوات الأوان أن لو كانت العناية رافقته فاشتري التحفة التى تفتنه اليوم فظفر بها قبل وقت الإفلاس !! أجل ما أشبه هذا بذاك . ليتنى قدمت إليك شيئا من مرافقى الهالكة ، إذن لدخل اليوم فى حساب الماضى وهو جيل فكيف تثقله حصة جديدة ؟

٢٤ أكتوبر ..

ترفق قليلا فى احتقارى يا صديقى فقد عودتنى فى معاملتك لونا آخر والتمس الأعذار لامرأة ماكذبت عليك قط .

كان بيت الأحزان الذى أقمت فيه الشطر الأخير من حياتى الزوجية متصلا بالبيت الذى يلاصقه ويبدو أنهما كانا بيتا واحدا كبيرا ذا جناحين متشابهين أمامه حديقة واسعة ثم قسمه الوارثون بسور أسسوه بالحجر وأكملوه بقضبان من الحديد نمت عليها نباتات تسور بها الحداثق فأصبح المنزل اثنين متشابهين فى كل شئ . ثم تداولتهما الأيدي كشأن كل موروث

حتى أصبح المالكون غرباء كالمستأجرين سواء بسواء . وفى أحد هذين المنزلين وقعت لى حادثة لا أنساها وإن عمرت ألف عام :

امرأة منطوية على نفسها خيالية كثيرة الأحلام شديدة الحساسية كل شىء يلمس قلبها بعنف ، ليس هناك أبدا مايمسه برفق يا صديقى العزيز . كان ذلك فيما مضى .. أما اليوم ، فإن لى شأنا آخر .

وفى منزلنا خادمة تقوم بأعمال الطبخ والغسل والتنظيف . ويستأنى ير على حديقتنا . وحدائق المنازل المجاورة فى هذا الحى المنعزل الهادىء البعيد عن كل ضوضاء فى المدينة الصغيرة . ويقوم هذا البستاني العام بما تطلبه الأشجار والأزهار . وكانت حديقة مسكننا ملاذى ما دام الجو يسمح بذلك . وعلى مقربة من السور الذى يفصل البيتين المتجاورين عريشة خشبية صغيرة ألبيست جلبابا من الخضرة وفتحت فيها نوافذ عدة وحفت بها أحواض الزهر وتلاقت عندها طرقات ضيقة لا تكاد تطوُّها أقدام إلا إذا سرت عليها . جعلت هذه العريشة كنى ومسكنى ألجا إليها بكتاب أو ألجا إليها وفى يدى ما أخيطه أو أطرزه ثم أنكب على عمل كأننى أطلب به أجرا .. أستغرق فيه لأن قلبى طاقة محبوسة لأجد لها متنفسا ، فقد كنت زوجة لـ « جهاز » من الأجهزة لالرجل من الرجال .

لم أكن أحبه ولم أكن أكرهه وكان قليلا ما يسأل عن عواطفى بعبارة فيها جفاف التصريح خالية حتى من التمثيل ، كان يسألنى فى إحدى الليالى قائلا لى : « هل تحببىنى » يلقيها بنفس الطريقة التى يسأل بها المسافر أحد موظفى المحطة عن موعد وصول القطار . وكان يعز على أن أكذب كما يعز على أن أصدم إنسانا فى خدمتى . فأحتال على الموقف قائلة وأنا أنظر إلى شىء بعيد أو أرخى من أجفانى فلا يرى فى عينى ما يخالف أقوالى : « ألا زلت تطلب الدليل ؟ » ثم أقول بينى وبين نفسى ثم يفعلون هكذا ؟ لم

يسأل الرجال نساهم مثل هذا السؤال ؟ ما كان أحراهم أن يلتمسوا الإجابة
فى أفعالهن لا فى أقوالهن .

وهكذا أحسست أن فى حياتى ثغرة لأنى أعاشر رجلا من العجيين يلين
فى أى مكان أغمره فيه . وكثيرا ما يلذ لنا أن نكون مملوكات حتى لو ثرنا
على ذلك الوضع . فما أشبهنا بالبطل الذى يكبل يديه بالحديد ليذوق لذة فك
أغلاله !! هكذا نحن .. أو هكذا كنت فيما مضى . ولذلك كنت كثيرا ما
أخلق من الخلاف ما يحرك حياتنا الراكدة كما تلقى بالحصى على وجه الغدير
الساكن . لكن زوجى كان يسارع إلى التسليم بمجرد إعلان الحرب فلم تسول
له نفسه أن يخوض المعركة الأولى ، فكنت آوى إلى فراشى مهمومة ضائقة
الصدر فريسة للملل والسامة .

ثم بدأت حياتى تتغير يوم رأيت جارنا الشاب الوسيم يدلف إلى باب
مسكنه المصالحق لمسكننا وأنا راجعة من السوق ، وأحسست أنه يرشقتنى
بنظرة وأن عينيه الواسعتين تفيضان غزلا ورقة فسألت نفسى ثم أسفت بعد
هذا السؤال : ماذا عسى أن يكون إذن لو ظاهر اللسان عينيه هاتين فى
حديث طلى للذيد ؟ ثم نسيت هذا كله بعد دقائق .

وأظننا يوم من أيام الربيع ضحكت فيه الحداثق بشتى ثغور ، وكانت
حركة « التفتح » مسيطرة على الأرض جمعاء فشملت الزهر والورق
والينابيع والقلوب . وكثرت أحلام اليقظة فظهرت فى أصحاب الحساسة
« عصبية » وضيقا لا يعرف سببه . وكنت أنا منهم !! وكنت فى عريشة
الحديقة أطرز ، واليوم جمعة وخادمتنا فى الداخل تقضى بعض شئون
وجلست أنا شاردة اللب لأعلم أين كانت أفكارى حتى انتهت على حركة
خلف السور الفاصل فإذا به ألمح الشاب يتحرك ويدوس بعض الغصون
الجافة كأنه يريد أن يحدث صوتا .

كنا فى شبه معزل لأن البيوت المواجهة كانت جميعا ذات طبقة واحدة .
 وكنت أنا وحدى ، وكان هو وحده لأنه موظف عازب ، خادمه الفتى فى
 الخارج أو فى الداخل لا يعنى . وهناك عدة شجرات عند مدخل كل بيت
 تؤلف خميلة تحجبنا عن الناظرين . وجعل الشاب يأتى بأعمال أظنها لم
 تكن ضرورية ، وقد رأيته من فرجة صغيرة لحجت فى السور النباتى حديثا
 حتى شككت أنها فتحت عمدا . وكان يعمل وهو يبتسم ، وكانت بسمته
 توددا وإغراء . ثم أخذ يغدو ويروح بين الظلام كما يغدو الشبح الجميل ثم
 عاد فسامت الفرجة حتى أض البعد بيننا لا يزيد على أمتار ثلاثة ، أراه من
 خلف السور عبر النافذة المفتوحة فى عريشة النبات ويرانى هو كذلك ، ثم
 وقف وبدت على ملامحه أمارات الكلام فألقيت عليه نظرة استرجعتها
 بسرعة لكننى مالبت أن سمعته يقول : « صباح الخير » .. فلم أرد بل
 انكبت على طرزي أرشق فيه الإبرة بعنف وأنزعها بعنف ، وكان من الممكن
 أن أقوم أو أن أرده إلى صوابه بكلمة قبيحة لكننى أشفقت عليه وعلى نفسى
 أن أضعها فى موضع الخطأ . وقر ثوان يستأنف بعدها قوله : إن كثيرا من
 أزهار حديقتنا بدأت تموت .. هى الآن فى التزع ، فى الاحتضار .. لأنها
 محرومة « فخلت أنه يعينى » حتى استطرده : أقصد أن أسأل ياسيدتى عن
 « حسن الجنائنى » . هل مر بحديقكم قريبا أم أن أهماله مشترك عام ؟
 واسترقت النظر فرأيت يبتسم وهذا كأنه ساحر برىء أو لص جميل
 كما يقولون . فلم أملك أن أجيبه باختصار : إنه مر بنا . فانصرف مترددا
 وهو ينظر نظرة بعد أن يخطو خطوة ويومئ برأسه شاكرا فضلى .
 ٢٦ أكتوبر ..

لا بد من الشكوى يا صديقى . نعم لا بد منها !! لأن قوله « اه »
 موجودة فى جميع اللغات ومدلولها واحد !! او هأنذا أشكو إليك مالم أبته من

قبل لسواك ، فلا تكن قاسيا فيما تحكم !!

لم أنم ليلتئذ ودخل على زوجي بعد هزيع من الليل ، فخیل إلى أنه متغير الملامح . كان كبير البطن بطبعه من طول الجلوس وأكل الدسم ، فرأيتـه بعد هذا الشيطان الجمیل إنسانا ليس ذا كرش فحسب ، بل يحمل على بطنه الكرة الأرضية ، وضائق أنفاسی وهو یلقى فی مسمعی بكلماته المألوفة التي یقولها عند عودته : هیه .. كيف الحال والصحة . هل ثمت منذ وقت طویل ؟

وضقت ذرعا بما یقول لأن أنفاسی كانت فی انبهار أنفاس من یشارکه حمل الأرض ، لكن الأيام توالى ولم أغير عادتی ، كنت أرى كل يوم شیئا جدیدا بالنسبة للفرجة التي لجمت فی السور ، كانت تتسع قليلا قليلا فتتسع معها ثغرة قلبی . وأؤكد لك أننى لم أكن أتمنى أن تربطنی به علاقة ولكنه التطلع . التطلع المقنن الذى یدوی بكثير من أصحابه . ألا تذكر قولك ذات مساء : إننا كثيرا ما نستطلع طریق الموت وأنت نفسك تكتم أنفاسك لتأخذ فكرة عن معنى الفناء وهو معنى كلنا نخشاه . فضلا على هذا فإننى كنت واثقة من نفسی . وذكرت ناهليون الذى كان ینام على ظهر جواده فی الميدان لعدة دقائق أو ثوان یدؤها بإرادته وينهيها بإرادته فحاولت - وهذا حق - أن أحاكیه فأغفى وأنا على جواد الحب لعدة دقائق أو ثوان أهدؤها بإرادتی وأنهاها بإدادتی ، ولن یكون هناك خطر.

ووافقت الفكرة فصممت على الاستطلاع ، ویا سوء ما استطلعت .

أرخیت زمام الأمور يوم بادلتـه الشحیة فتدفق بالحديث یهمس به كأنه أحد « الرقاة » وعن لى أن أجعل أوقات نزولی إلى الحديقة بعد الظهر، وأن أبعثر أوقات الصباح فی شىء آخر ، فانقسم اليوم إلى قسمین متضادين أولهما كثيب باسر والثانى جمیل باسم . فلما تساءلت عن السبب أیقنت أنه

« هو » فقلت لنفسى : إذن فلنرجع ، وكفى استطلاعاً . لكن حجة قوية
مالبت أن صدمتنى وفحواها : « حقيقة أنك عرفت المكاره فى الحب ، لكن
.. هل عرفت شطره الأخضر ؟ » فارتجفت أوصالى !!

واقترب يوما من السور ووضع جبهته على الحديد : ثم همس فى دعاية
عذبة : أنا سعيد .. الرضا يلون وجهك الناضر .. ياسلام !! لقد ملئت غرورا
بنفسى لأننى أراك تتفتحين تفتح الأزهار ، منذ انفتحت فى سورنا هذه
الثغرة . فابتسمت وقلت وأنا أكنم ضحكة عميقة : حقيقة إنك مغرور !!
» لكننى كنت مرتاحة ».

ولم يلبث الشيطان أن سألنى عن التاريخ فأجبت ببساطة : إننا فى
العشرين من شهر أبريل فضحك عميقا ثم قال : ليس هذا ما أعنى ..
ولأتذكرى أبريل من فضلك فى معرض حديثنا لأنه شهر الكذب .. أرجوك !!
أنا أسألك عن الشهر العربى !! فتحيرت حتى لأدري ما أقول . وأرتج على
فلم أنبس بحرف ، لكنه فسر ما عنى قائلا : إن القمر مولود جديد ، فهد
لا يرسل إلا شعاعا خابيا يلمس الزهر والشجر لمسا خفيفا لكنه ساحر .

فنظرت إليه ملتبهة الوجه مختوفة النفس لا أستطيع أن أنطق . وبدا
على ذعر شديد ، لكنه قال وكأنه فجع فى أمله فى : لماذا تصنعين هكذا
بنفسك . أتظنين أن هناك فرقا بين لقائنا فى الليل ولقائنا فى النهار ؟ الأمر
بالعكس . فإن جلوس الناس فى حدائق بيوتهم مساء أجمل وأستر وطبيعى
كذلك . لاتنزلى . لكننى سأفعل . ثم سار كأنه عاتب !!

وهبط المساء وسكن حيناً الراقى ، وظهر على الأفق الغربى قمر ولید ،
ألقي شعاعه على ذوائب الشجر وأحواض الزرع والعريشة الخضراء هادئا
خفيفا ، يوحى بمعان كثيرة مثيرة خصوصا للذين منوا بلقاء . ووقفت فى
مخدعى أرقب السماء وأنظر المساء وأغوص فى سريرة الليل لأرى ما يمكنه

لمثلنى . ودرت فى الشقة كأنتى ملسوعة لا أدرى ماذا أصنع ، حتى أكملت أشواطى خمسة وعشرين على الأقل ، فأخذنى الدوار وأحسست بحاجة إلى الهواء الطلق فعدت حيث ارتفتت النافذة لكنها كانت بخيلة فلم تجد على بنسمة ، فلم أر بدا من النزول ، وقلت : ماذا فى هذا وماذا يعنينى ما دمت سأصد عن الثغرة ؟ وقد فعلت . وجلت فى أرجاء الحديقة حتى مررت بكل ركن ، فلم يبق إلا الملعون . ثم اندفعت إليه كما اندفع آدم نحو الشجرة التى أخرجته من الجنة ، وهناك رأيت وجهه المستدير يرف تحت الشعاع الخابى . وهمس : مساء الخير . فلم أجد أنفاسى ، قال : ليس من المستحسن أن نرفع أصواتنا بالتجوى فإنه ليل . اقتربى من السور . إن أحجارا وحديدا وزرعا وخشبا وأشياء كثيرة تفصل كل منا عن صاحبه ، فما بالك تخافين ؟ .. ألا تسمعين نجوى .. آه .. أحبك . اقتربى ولا تخشى شيئا .. إن أحجار السور أحنى على القلوب منك أيتها القاسية .. ما بالك حائرة هكذا كأنك فراشة بيضاء بين خضرة الحديقة !! أنا لا أطلب منك إلا شيئا واحدا فأجيبينى إليه ثم عودى ، قولى : لماذا لم نلتق قبل ذلك بسنوات ؟ وماذا كان يحدث لو أنا تلاقينا ؟ وظل يكرر السؤال وفمه خارج الحدود لأنه فى سماء حديقتنا ، وإن كان جسمه فى أرضهم ، ولا أعرف كيف اقتربت منه ولا كيف أخذنى الدوار . فإبنى أسندت رأسى إلى حديد السور، ثم أفقت وكان شيئا حادا يسرى فى خياشيمى كأنه النوشادر ، فإذا بقبلة جديدة تقع على فمى المزموم !

٢٨ أكتوبر ..

لن أخدع الناس مرتين ، ولن أستطلع طريقا عبرته من قبل !! أنا نقد زائف يا صديقى فلا يغرك حسن الصنعة . فإذا أعجبك أن تحتفظ به بعد معرفة الحقيقة فذاك من خصوصياتك . هل كان يجدر بى أن

أتستر على الماضى !! حتى تقع فى جبالى ، ثم أقصه عليك أوتقصه عليك المصادفات ؟! لست أرضى لأتنى آليت على نفسى أن أكفر ، ولأن فى القلب شيئا أقوى من القسم ، وذلك هو الحب . وقد تقول بينك وبين نفسك : تعسا لهذا الحب !! لكننى سأظل أنانية ، بإبقائى على حبنى فيك . هل يروك أن تعرف بقية المأساة ؟ إذن قاسم :

قررت بعد هذه الحوادث أن أغير مكانى ، وأن أفر من الذى يترصدنى . وقد فعلت . ثم غرست عدة شجيرات تحت الفرجة حتى تنمو فتسدها ، وجعلت أسقيها وأرعها غير معتمدة على البستانى فيما يعمل . وثمت الشجرات واخضرت فسدت أوراقها السور ، وخيل إلى أنا أن الصدع الذى كان فى قلبى قد انصلح ، لكننى كنت أعد الأيام من حيث لا أشعر ، وأقف وراء الشبش فى إحدى النوافذ لأراه من حيث لا يرانى ، فأيقنت أن رسيس الهوى لا يزال فى خلایا قلبى ، لكننى لم أعره اهتماما ، وتركت حبل الزمان يمتد فى طريقه المعتاد ، وإن أحسست ضيقا فى حياتى الزوجية .

ثم غاب عنى فلم أعد أراه من بعد ولا قرب ، فأدركت أنه فى إجازة الصيف . وكأننا كانت هذه الأيام التى غابها ضرورة من ضرورات هذه القضية، فقد أفرخت فيها الفتنة ، أقصد فتنة نفسى .

كنت إخال - وأنا على يقين أنه غائب - كأن شبعه يتخايل وراء السور، وبلغ به الأمر فى إحدى الأماسى ، وكان قمر وليد جديد يزجى شعاعه على خضرة الحدائق فى سكون الليل ، بلغ به الأمر حد أننى خلته يهمس وأتنى أسمع نجواه : « ما بالك هكذا حائرة كأنك فراشة بيضاء بين خضرة الحديقة ؟! فانتفضت فى مجلسى مدعورة فلم أر بجوارى سوى أوهامى .

ثم أخذت الشجرة تنفتح فى السور مرة أخرى ، لأن ثغرة قلبى انفتحت بذاتها ليلة أحسست حينئذ إليه. كان غائبا عن المدينة فجعلت كل يوم أحز

بمقصي الصغير عدة أغصان من الشجيرات التي أمرت بغرسها ، كأنني أتسلى حتى حادت خضرتها عن منافذ السور ، ولم يكن على الناحية الأخرى فى حديقتهم شىء يعترض الفتحة ، لأنه جردها من كل غصن . فانفتح الشباك ولكن وجهه كان غائبا !

وغلث القدر قبل زمنها الموقوت بفترة طويلة . فقد كنت مقدرة أن الحوادث لن تجرى بمثل ما جرت به سرعة وانطلاقا . وجعلت أسائل نفسى عن الغاية التى أسمى إليها ثم أفر من الجواب .

حتى كان مساء كنت فى الحديقة قريبة من الشجرة ولم يكن هناك قمر ، لا ، ولا حس ولا حركة . إنانقيق الضفادع فى سمر ليلها الصائف ، و إلا أحاديث تلقيها نفسى على نفسى ، وإلا قلبى المكدود الذى فقد الحصانة فأضحى عرضة للإصابة الأولى . فى هذا المساء سمعت تكسر الأغصان الجافة تحت قدم تسير فدى قلبى كما يدق فؤاد الطالب لصلصلة ناقوس يؤذن بامتحان يحبه ويخشاه . وحاولت أن أفر من بين الحديد فهمست بالرد . ثم جعلت « رقاءه » تنساب فى السكون والظلمة التى تؤنسها من فوقنا لنجوم تتغامز وأنا فى مكانى لأأريم ، حتى انتهت على عبارة يدعونى بها أن أقف إلى تجاهه لكنى خالفتها فما راعنى إلا أن رأيت يثب إلى السور فى خفة اللئب ورشاقة الفارس حتى صار فى أرضنا ..

اسمع يا صديقى : إن عنصر الاختيار مسيطر على اعترافاتي هذه سيطرة حقيقية ولست أريد بما أقول أن ترثى لى ولا أن تدافع عنى أمام الناس فإن الدفاع خاسر خاسر ، ولكنى أريك السيدة « ف » كما خلقها الله ، فإذا طابقت صورتها « مواصفات » امرأة فى خيالك - وهذا محال - فأحبها ، وإن كان حبك أو كرهك خارجا تماما عن مقومات حبنى فيك !!

ثم دخلنا إلى العريشة الخضراء فوجدنا نفسنا فى ظلام أشد حلوكه من

ظلام الخارج ولم يكن هذا الشيطان الجميل معنى وحده بل كنا .. وثالثنا إبليس ..!!

قلت له بعد فترة كانت قصيرة جدا لكنها بدت فى استطالة الأبدية : هذا محال !! هذا محال !! وكدت أصرخ بعد أن فقدت معنى لا يستطيع إنسان ما أن يشبث أننى فرطت فيه لأنه لم يترك أثرا ماديا . لكننى كفت عن الصراخ فكل شئ قد انقضى . ثم تشبثت به تشبث الغريق بطوق من الفللين وطفقت أقول له : هذا محال !! هذا محال !! كأننى أنفى ما وقع وكأنه حلم . لكن بشاعة الحقيقة أسالت دموعى . فقال لى ونحن فى الظلام : لماذا تبكين ؟ قلت : لن أعاشر الرجل الأول ، فأجبنى : وهذا كل ما أرجوه ، إذن فانفصلى عنه ولنتزوج !!

كانت عواطفى فى هذه الليلة غير ذات لون كأنها عدة أصباغ أراقت بغضها على بعض يد غلام عابث . وقضيت الليل لأعرف طعم النوم . وجاء زوجى من الخارج فألقى على كلامه المعهود . ثم نام . وحمدت الله على أنه لم يسامرنى ، وإن قل أن يفعل لأننى كنت لصا سرق للمرة الأولى فهو يرقب عيون الناس .

وأصبح الصبح فلم أنزل إلى الحديقة بل آثرت أن يكون ذلك فى المساء . وتكررت الحادثة .. أستغفر الله - أريد أن أقول : إنه تسور السور وجلس إلى جوارى . وكنت متوقعة أن يبدأ من فوره فنحدث فى برنامج الخراب حتى تنتهى من الموقف . ، لكنه - وا أسفاه - لم يبدأ من البداية بل بدأ من النهاية ففهمت من حركاته - وأنا زوجة - أنه يطلب منى فورا ذروة مابلغناه بأعمالنا ليلة أمس فلم يسعنى إلا أن أنخرط فى الهكاء . وقال الشيطان : وفيهم الهكاء ؟ قلت : جئنا لنفحص الموقف لأنه أصبح شائنا ، فسكت ولم يرد ، وخيل إلى أن ظلام العريشة يستحيل شيئا فشيئا إلى ظلمة قبر وددت

لو أنه أقفل على بابه . كنت فى هذا الموقف أنظف القذرات لأننى أفقت بعد اللطمة الأولى وانتصبت أمامه مخاصمة محاسبة مستكملة الأهلية لأفهمه معنى القضية . لكنه سألنى بوقاحة : وهل تظنين أن تصرفك هكذا يجبر رجلا على تغيير خطته ؟ فسألته عما يعنى ، فأجاب : دعينا نسعد فترة من الزمن .

قلت : بل إنه شقاء . فتسلل فى الظلام واثبا كما تفعل اللذئاب بعد أن همس يقول : حسن .. إذن فلا بد من دراسة الموضوع ١٢
٣٠ أكتوبر ..

هى ترى فما قصصته عليك شيئا ينسى ١٢ لا ، مطلقا . أم هل ترى بعد الذى حدثتك به أمرا أنقطع وأعنف ، قد تقول : لا . ولكن استمع إلى :
كنت أحمل معنى « جسم الجريمة » كما يقول أهل القانون . وما « جسم الجريمة » إلا جوارحى . ومن طبيعة الجرائم أن يود الجانى فيها بكل ما يستطيع أن يتخلص من « جسم الجريمة » ولم تتخلف هذه القاعدة معي فقد وددت وحاولت أن أتخلص من نفسى لكن .. إنها الحياة ، وما بالها تمسكنا ١٢

أويت إلى مخدعى ناضبة الدموع ، ومر الهزيع الأخير من الليل ودخل زوجى ثم جعل يهمس بكلمته المعهودة ، وأنا متظاهرة بأن النوم يشغلنى وأنه من الأخرى ألا يقلق راحتى ، لكنه ثرثر وهو يستبدل بشيا به العادية ملابس النوم ، ثم امتدت ثرثرته فأدركت بإحساس الزوجة ماذا يريد . وأوقد مصباحا أحمر فأحسست النار ترعى فى أوصالى . قمت من السرير كمن يغادر فراشا من الشوك جاعلة من إحدى كفى مروحة أحرك بها نسيم الحجره وأنا أنفخ ثم وقفت بهجوار النافذة وجلس هو على حافة الفراش وجعلت أدمن النظر فى أرجاء الحديقة وأنا مسلوية اللب تالفة النفس هالكة الأعصاب أتمنى

أن تدركنى المنية أو أن تواتينى الشجاعة فأقتل نفسى . وكنت أسمع تنهدياته من خلفى حقيقة واقعة وأسمع تنهديات الشيطان الجميل فى العريشة الخضراء بأذنى خيالى وتختلط هذه بتلك فتفعل فى نفسى فعلا بشعا زريا لا تستسيغه امرأة - دحك من الشرف - بل امرأة تشعر بشخصيتها فحسب ، ثم منحت ظهرى للنافذة وجعلت وجهى إليه فإذا به يخاطبنى بانكسار وذلة تركب الرجال فى بعض أوقات الليل . قائلا لى : « ألا تحبيننى ؟ » ولم تكن للإجابة بالإيجاب إلا مغزى واحد هو أننى سأستعمل « خرقة المومس » بعد لحظات قليلة فاقشعر بدنى لهذا وسرت فى أوصالى موجة حارة أعقبتهها موجة مثلوجة فارتعشت وأصطكت أسنانى . فعاد زوجى المسكين يسأل : « ألا تحبيننى ؟ » فهتفت صارخة بكل ما فى : « ألا زلت تسأل ؟ » إذن فأنا لأحبك .. لأحبك .. دغنى لشأنى ، ثم أرقيت على الفراش أنتحب كأنى مجنونة فمارعنى إلا أنه أخذ يمسح شعرى ووجهى بيد رفيقة وهو يقول : مسكينة . مسكينة . إن أدمانك فى القراءة والتفكير فى الذرية ، أحوالك مخلوقة عصبية تريد أن تنام !! نامى يا سيدتى وليرعك الله !!

« ثم أسلم أجفانه للنعاس !! »

لم أنم بطبيعة الحال بل جعلت أفكر فى الاستقامة التى ترقد إلى جوارى والعوج الذى أنطوى عليه ، وفى البساطة التى يمثلها هو والعقد الذى أمثله أنا . وعما سيثول إليه حالى إذا أصبحت زوجة وخليفة .
ما أقبح هذا !! كرب تتداوله شفاء ملوثة بالزيت لا يرى نقيا ولا شافا إلى أن يتحطم !

وعزمت فى الصباح التالى على أن أقابل الشيطان فأقفه على مغزى الخطب ، وآثرت أن أقابله فى الخارج فأرسلت إليه فى ديوان عمله من يبلغه

أن امرأة فى انتظاره فى مكان معين فأسرع مليبا دعوتى فقلت له : إنه ليس فى مقدورى أن أكون ذلك الكوب الذى تتداوله شفاء ملوثة بالزيت !! فضحك من التشبيه ، فأردفت كأننى أوضح : أعنى أننى لن أكون إلا زوجة لرجل واحد ، فتلقت كأنما لا يجد مفرا ، ووقع فى حرج لم يجد منه مخرجا إلا أن يقول : كان ذلك يسعدنى جدا يا سيدتى لو أن الزواج داخل برنامجى القريب لكن .. هل تنتظرين ؟ .. وعلى أى وضع سيكون الانتظار ؟ .. أعنى على أى صورة ستقوم العلاقة بيننا كل هذه المدة الطويلة ؟ !! فرأيت من العبت أن أحاور أو أجادل ، فجمعت أحشائى على النصل المغمد وسرت دموعى تجارى خطواتى !!

جلست إلى نافذة مخدعى حين جن الليل أقلب أمر نفسى على ضوء الحوادث . فراودتنى فكرة أن أعترف لزوجى بمأحدث مخفية عنه اسم الشيطان والأمل كبير فى طيبته لأحظى بغفرانه ، ولكن كيف أعيش بعد ذلك ؟ إنه عيش كتيب . ثم استولت على فكرة أقوى : هى فكرة التكفير . وسرعان ما اقتنعت بها ، فذكرت أننى كنت مدرسة وأننى تركت المهنة لأجل الزواج ، إذن فلا مانع من أن أترك الزواج وأعود إلى المهنة فذلك أكرم وخير من أن أكل فى بيت زوجى طعام صدقة ، ومر الهزيع الأول من الليل وعاد ، ثم دخل وثرثر ، ثم استطالت ثرثرته ، فقلت بسرعة قبل أن تضعف إرادتى كأننى مقدمة على الانتحار اسمع ياسيدى : إننا اجتمعنا تحت هذا السقف باسم المصلحة المشتركة . ففغر فاه وهتف بصوت مخنوق : نعم . فقلت : واليوم يجب أن نفرق مادامت المصلحة المشتركة تتطلب ذلك . فوجم ولم يجد مايقول ، قلت : من مصلحتك أن تكون أبا ومن مصلحتى أن أكون أما وقد تعذر علينا هذا ، فليطلب كل منا زرع فى أرض جديدة . فقال وهو يتحسس شعرى وجهى بيد رفيقة كما فعل من قبل : مسكينة .. مسكينة

. إن القراءة والـ ..

فلم أدمه يكمل كلامه ، بل صددت يده بعيدا عنى وخرجت من الحجرة.
وأصبح الصباح فراجعتنى فى قرارى فلم أوضح ولم أغير شيئا فيه ، بل
شرعت فى التنفيذ . فجمعت ثيابى وحلبى فى حقائب ثم غبت عن المدينة
حتى تشربت نفسه بالكارثة قليلا قليلا فافتنع بوقوعها كما نفتنع بموت
الأعزاء علينا بعد فترة من الزمن .

كان من الجائز أنه يغفر لى لكننى لم أشأ أن أستغل طيبته إلى هذا
الحد . وها أنت ذا ترانى أنظف القافورات .: امرأة يعرف ماضيها أناس
قليلون وأؤكد لك أن زوجى محرى بعد غيابى فعلم ما تهاست به الألسن .
لأن وثيقة قطع الحبل ما لبثت أن جاءت بالبريد بعد أسبوعين أو ثلاثة .
مساء ٣٠ أكتوبر ..

يخيل إلى أن كل شيء بيننا قد انهار فترفق به إذا اعترضت طريق
أفكارك . إن الأقدار تناوئنى بما لا تحتمله امرأة مثلى فلماذا جعلتنا نلتقى ؟
ستبقى فى قلبى ذكرا طيبا وطعما لذيذا ما بقيت أنا فى قلبك ذكرا خبيثا
وطعما غير محبوب .. آه .. الزمان بخيل وليس من طبعه أن يحاى
التعساء .

لم أطق أن أغش من كنت لا أحبه فكيف أطيع أن أغش من لا أرى لى
وجودا إلا فى وجوده ؟ لا أظن أننى أقلق .. فوداعا . واعلم ياسيدى أننى
بانتظار أحد شيئين : فإما أن ترد إلى رسائلى وأما أن تعود أنت إلى ، فإذا
ما طرقت بابى أيقنت أنك غفرت وهذا بعيد !!
ومنتظرة طول الحياة !!

- ١٠ -

عشت بعد ذلك فترة من الوقت خلقتها مقصورة من عمري ، انقطع فيها الإحساس بكل شيء فلم أعد أن أكون شبحا يسعى بين الناس .

أحسست أن الكون شجرة عظيمة كل ثمارها تالفة . وددت بينى وبين نفسى لو أنها خدعتنى . إننا خلق ضعيف ، نتطلب السعادة ولو فى الخديعة . لكن ما بالى أقول هذا ونحن نتولى خداع أنفسنا بأنفسنا لنلمس السعادة الموقوتة لمسا كما نغيب عن آلامنا بكأس الخمر ؟

ووقفت من رسائلها موقفا عجباً فأعدت قراءة القديم منها لعلى أحظى بما يريحنى فيه كما كنت أفعل بأسماء الناجحين أيام الدراسة ، وكنت أضع الرسالة الجديدة بين يدى محاولاً أن أعرض عنها فلا أنفض غلافها قائلاً : بحسبى ما فات . وكثيراً ما فكرت فى أن أردّها بالبريد مختومة غير مفضوضة لتعلم مدى عزوفى من تتبع قصتها ولتشعر أنها من المهانة فى مكان جعلنى لا أعنى بأخبارها .

وانتفضت على جراحي القديمة فذكرت كل ما يسوء وفاضت نفسى بنقمة عظمى على النساء وعرضت لى « سكينه » فى وعشاء هذا السفر ومتاعب ذاك التفكير فندمت على ما فات وتجنيت أن الزمان يتراجع حتى أعود فأختارها زوجة .

ثم جعلت ليالى الماضية تعرض نفسها على خيالى ليلة ليلة ، حتى

ذكرت السيدة « ف » ثم تذكرت كتبها وقصصها وحديثها وأفكارها فضحكت ساخرا حين استنبطت بعد الأوان أنها امرأة صهرتها التجارب حتى أحوالها فيلسوفة لكن تجاربها كانت على هيئة جراح شوهدت جسدها الباهر فلندعها تزعم أن روحها خرجت من هذه المآسى وهى أنقى من البللور، لنندعها تزعم ذلك فإنها لا تملك عليه دليلا .

ثم ما بالها دفعت إلى فى الماضى قصة الخيانة الزوجية .. إننى أذكر هذا جيدا كأننى أعيش فيه حتى اليوم ، وأذكر أنها دافعت عن الهوى المحرم وأنها سألتنى رأى فى الغفران بعد دفاعها عنه ثم قالت : هل كانت هذه الخاطئة تحظى بعفوك فى العالمين معا ، عالم الكتب وعالم النفس ؟ وقد سكت ليلتها فلم أجب بشئ ، ثم قلت فى نفسى بعد ذلك : ثم من هذا الذى يضمن لى صدق ما قالت من أن الشيطان الجميل لقيها مرة واحدة .. واحدة ولم تتكرر .. من يضمن هذا ؟

ثم عدت فسخرت من نفسى حين ذكرت أن العدد فى مثل هذه الفجائع لا يدخل فى حساب أحد إلا المجانين لأن المسألة مسألة مبدأ .

إن فقدان شخصية فى عالم النفس أفدح بكثير من فقدانها فى عالم الأحياء ، أعنى أن موت العزيز أهون على القلب وأخف على النفس من خديعتنا فيه . وقد تمنيت بعد أن جدت بنا الحوادث أن لو كانت هذه السيدة قد ماتت قبل أن تخط بيدها ما خطته لى ، إذن لعشت على ذكرها فترة أخرى تمتزج فيها السعادة بالشقاء امتزاجا أروح من طعم الشقاء الخالص .

وضاقت على الأرض بما رحبت ، وضائق على نفسى ، فرأيت أنه من الخير أن أغير المكان فأخذت إجازة . ثم نفضت عنى أغطية النوم فى ساعة مبكرة من ساعات الصباح بعد ليل طويل قطعتة على جواد الأرض البليد ، ثم ارتديت ملابسى وأخذت سمى إلى محط سكة الحديد مخترقا شوارع لم

تدب فيها إلا أرجل المضطربين . وسرت أقلب وجهي في السماء تارة وأرمى
بنظراتي على الأرض تارة وقد أنظر إلى النوافذ المغلقة التي تتحسس
مصاريعها رطوبة الخريف وأنا أقول بيني وبين نفسي : إن وراء سجنها
جميعا سعاد كاملة .. إلا نافذتي فإن صاحبها كتب عليه الحرمان !

لست أدري كيف وصلت إلى الإسكندرية ، ولا كم من الزمن مر ،
ولأذكر شيئا مما حدث في طريقي ، كأنني نمت فاستيقظت وأنا هناك .
كان في يدي حقيبة صغيرة خفيفة فيها جلاباب نوم ومنشفة وشبشب
ومطالب شخص لا يفترب أكثر من يومين أو ثلاثة .

جعلت أنقلها وأنا في ظلال المحطة من يمين إلى شمال ومن شمال إلى
يمين وأسائل نفسي إلى أين المصير ؟ ولم ألث أن اتخذت قرارا ، وأنت
تعلم بالطبع أن هناك مكانين اثنين يتنازعاني في موقفى هذا ، أحدهما عزبة
خورشيد حيث « سكينه » وأهلها وثانيهما بيتنا على البحر حيث عربة
الترمس ، والأنف الملتهب و « عباس الصغير » ، وبعد ساعة من الزمن كنت
في عزبة خورشيد .

لاحت مبانيها لعيني كابية دكناء لون حيطانها كلون التربة ، إلا قليلا
من منازل بيض أصحابها واجهاتها بالجير ، ورسمت أمطار الموسم الماضى
على بياضها رسوما شتى لاتدل على شيء كأنها آثار عبث الأطفال على
الرمال . وسرت على الطريق الرئيسى حيث المباني على جانب وترعة
المحمودية على جانب آخر وكنت قاصدا دكان الحاج عبد المجيد البدال الذى
كانت « سكينه » تشتري منه حاجاتهم وكنت أبعث برسائلى إليهم على
عنوان دكانه ، وقد كان يوسعى أن أنحدر نحو الشرق على الترعة الصغيرة
إلى مدى كيلومترات لأذهب إلى جنة « عم خليل » ولكن لهفتى على الأخبار

حولت وجهتى إلى الدكان ؛ لأنال تصبيرة من الأخبار أقوى بها على المسير
عدة كيلومترات .

ولم يكن « الحاج عبد المجيد » يعرفنى ولذلك حلق إلى النظر جيدا
حين ألقىت إليه التحية ثم دعانى للدخول عندما أخبرته بأننى صاحب الرسائل
التي كانت تصل إليه قديما باسم « عم خليل » ، فرجع الرجل برأسه إلي
الوراء يتذكر ثم قال : « آه .. ذكرت .. تفضل يا بنى » وتشاغل عني
بالبيع وأنا جالس على صندوق شاى فارغ وحقيبتي عند قدمي . واستسمجت
« الحاج عبد المجيد » ووددت لو أننى لطمته وبدا لى أنه رجل سىء الإدراك
لأنه لم يقدم الأهم على المهم وقد كان الأهم فى ميزانى هو أخبار « عم
خليل » و « سكيئة » وإن كانت الحلاوة الطحينية فى ميزانه أهم من كل
شئ . « وحبكت الزباين » فلم تنفض سوقهم إلا بعد أن انفضت طاقتى ،
وآن للبدال أن يقول لى أخيرا : لا مؤاخلة ياسيدنا الأفندى .. حكم العيش
ألهانا عن الترحيب ، هل لك فى كوب من الشاى يا سيدى ؟ فشكرته
وكلمته بلهجة من يتعجل أمرا قبل السفرسائلا عن الشئ الوحيد الذى
يعنينى فى كل هذه البقعة فأخذ الرجل نفسا طويلا أطرق بعده إلى الأرض ثم
رفع رأسه إلى وقال لى : آه .. سألتنى ياسيدى .. أما عمك « خليل » ..
فعليه رحمة الله .. تعيش أنت !! فركبني التشاؤم عند اللفظة الأولى ،
وقلت بينى وبين نفسى : وماذا ينتظر لبقية الحبات وقد انقطع سلك العقد ؟!
ودق قلبى عنيقا وهممت أن أعين اتجاه الكلام بما ألقىه عليه من أسئلة فذلك
أخصر لى وأنفع ، ولكن عجوزا ثرثرة جاءت تشتري شايا واشتبهكت مع
البدال فى مزاح يمثل الزمان الخالى فعرضت عليه أن يتزوجها . ثم جعلنا
يتناقشان فى الجهاز بحدة تقطعها الضحكات حين اشترطت عليه الحيزيون
ضرورة أن يكون فى جهازها سرير كهرائس اليوم فإنهن لسن خيرا منها فى

شئ ١١ كانا يتضحاحكان وقلبي يبكى ، وكنت أعجب من ضحكهما عجا
جعلنى فيما بعد أتبن « نسبة الأشياء » وانفضت الدعابة وخلا لى وجه
الحاج « عبد المجيد » ، فلم أمهله حتى يتكلم بل سألته : كيف حال
أولاده؟ فأجاب : « أيوه ياسيدى » . سألتنى . إن عمك « خليل » مات
منذ .. منذ . تذكرت ، عندما يجرى رمضان المقبل يكمل - عليه رحمة الله -
عامين فى قبره . وبدا لى أنه سيحيد عن السؤال ويجيب بغير المطلوب . ثم
رأيت على مقربة من الباب رجلين وقفا يتحدثان وفهمت مما تطاير إلى
سمعى من كلامهما أن أحدهما سيشتري شيئا فأثرت أن أعيد سؤالى على
الرجل فأجاب : إنها حكاية طويلة ولكن الأمر باختصار يتلخص فى أن «
سكينة» تزوجت بعد وفاة أبيها بعام كامل ، شابا من « أبى المطامير » وأن
خلاقا دب بين « البسطامى » ومالك الأرض رأت الأسرة فى أعقابه أن من
الخير لها أن ترحل . وهناك فى مركز « أبى المطامير » أرض بكر لا تجد من
يزرعها فرحلوا جميعا مع صهرهم .. ثم انقطعت عنى أخبارهم .. وسبحان
من يغير ولا يتغير .. « أعمل لك شاي ؟ » .. نعم يا « أم زكى » .. ماذا
تريدن .. أيوه يا ستى . عندى أحسن أصناف العسل ١١

وأحسست طعم المر فى حلقى وإن كان هناك أناس يطلبون عسلا ،
وخيل إلى أن « الحاج عبد المجيد » هذا سيخرج من دكانه بعد وهلة قصيرة
مستقلا جناحين أسودين ليقف على نخلة قريبة . ثم ينعق ١١ ورجوته بعد
قليل أن يحتفظ بحقيبتى حتى أعود إليه ، وخرجت أتعثر تحت شمس الخريف
متلمسا طريقى إلى اللجنة المفقودة . وكان آخر ما اجتزته قبل هبوطى إلى
الترعة الصغيرة باحة واسعة تتخذ منها العزبة مكانا لسوقها كل أسبوع ،
وقد كان سوقها الباردة ، فجعلت أنسام الخريف تدور فيها مدومة بمدة
فضلات ، منها ورق ملوث بالزيت ، ومنها ورق ملوث بالدم ، ومنها ورق

بصل وثوم ، وهناك أيضا بقايا تخلفت عن الذبائح ، وقفت الغريبان تنقر فيها ، أما الحقول فقد رأيت عندها هدهدا يجول فذكرت قولاً قديماً : ذكرت قول « سكينه » ذات صباح : سأحبك .. مادامت الغريبان فى ملابس الرهبان والهدهد يبحث عن كنز سليمان !! وها هما لازالا كما هما .. أما أمرنا قد تغير !! وسالت على الخد دمعة على قلة ماتسيل دموعى ، لكننى عدت فذكرت قول « الحاج عبد المجيد » منذ ساعة قصيرة : « سبحان من يغير ولا يتغير » .

ووقفت عند رأس الطريق القديم أسأل نفسى : وفيم المسير ؟ لكننى عدت فأجبت : إننا نزور المقابر !؟ لأقل من أن تلقى على هذه المعاهد نظرة دامعة أوغير دامعة ففيها غذاء القلب . وجذبنى الماضى إلى تياره فسرت ، وكأننى طالب فى المدرسة الثانوية أقصد المصلى لأجلس ، أو مضارب العزل لأرى « البسطامى » وهو مريض ، أو المصارف البعيدة لأجول جولة فى الحقول ، واستحال النسيم إلى شفاء انكبت على أذنى وجعلت تقول :

قف . كان هنا فيما مضى جنة . هذا هو موقعها بالضبط .. ألا ترى شريط الخلفاء على التربة؟ إنه هو وإن عبثت به يد الصبيان من المارة فأثقلت فى مواضع . وهذه هى المصلى لا تزال كما هى لم يغب منها حجر ولا مدر بيد أن الرياح أطارت فرشها ، وقد كان من جفيف العشب .

وهذه هى الصنفاة لا تزال تحنو عليها ، لم يتغير شيء فى المصلى لأنها « ملك الله » . أما حقل عم « خليل » فإنه قد تغير ومن العسير أن تعرفه إلا بإشارة من هذه الكائنات . ليس هنا كوخ ولا موز ولا شجيرات فاكهة ولا حظيرة دجاج وماشية ، كأنما اكتسحها الزمن بالنار والحديد ، ولا شيء إلا أشجار السنط والتوت وشجرة الجميز العتيقة ، رقعة عادية بين الحقول زرعت ذرة أخذت ثمراته من أعواده وهى قائمة فى الأرض ، ثم تركت حطبها جافاً

ليدفىء نبات البرسيم الصغير تحت أقدامها يظلمه سحاب الخريف ١١
 اه .. لشد ما يتغير كل شيء .. لكن ، هنا كنا نشرب الشاي .. وهنا
 كانت تربط البقرة ، وهناك كانت تقوم شجيرات البرتقال ، وهناك كانت
 النجوى ، وهنا كان اللقاء الأخير .. آه .. سبحان من يغير ولا يتغير .
 ولم أطق صبرا بعد ذلك واشتدت على وطأة الموقف وخيل إلى أن
 الكائنات ينظر بعضها إلى بعض ويتساءل في حزن مكظوم : لماذا لانبكي ؟
 ولم ندخر الدموع ؟ فحثت خطاي كأنما لأخرج من مقبرة ، وهبت زوبعة من
 الزوابع فاتخذت من أوراق الخريف الجافة على شجرها دفا « شخللت به »
 فألقى في القلب بمعنى حزين . وحملتني قدمي إلى مواطن عدة رأيت كل
 حقل رأيت من قبل ثم ودعت هذا كله إلى غير رجعة في حياتي ، ورجعت
 حانى الرأس كأننى إحدى شجيرات البرنوف المطرقة فى أحضان المصارف ١١
 ورأيتنى مرة أخرى بلاتدبير اجتاز حيا تفتحت عيناي على الدنيا
 فرأيتنى فيه . ولم يكن هنالك ذكريات حسنة لكننا نستعرض ماضيها بخيره
 وشره ، ولذا لنا أن نراه بالأبصار والقلوب كما يعرج شخص على سجن قضى
 فيه بضعة سنوات ثم يقف بعيدا عن بنائه الخشن ليتفقد بين نوافذه العالية
 نافذة رقد خلفها سليل الحرية . وبهذه النفسية نقلت خطواتي على الشاطئ .
 ووقفت أقرب نافذة منزلنا من بعيد واثقا أنني لن أعرف بسهولة ، لأن أربع
 سنوات مضت على حوادث الإسكندرية قد نما فيها جسمي ، وتغيرت
 ملامحي وأصبحت في حدود الرجولة وكنت قد تركت شاربي قطال وغزر كأنما
 كنت متعجلا ذروة الشباب .

كان الزجاج مغلقا وليس وراءه إنسان فوقفت أتلهى بالنظر إلى البحر
 وإلى بعض شباب من الفارغين يزجون أوقاتهم بصيد « أبو جلمبو » فجعلوا
 ينقلون خطواتهم بحذر ورفق على الصخور المطحلبة تحت سطح الماء ولم يفتتح

شباك ولم يطل وجهه وكأنما عز على ألا أرى وجه أُمى طول تلك السنوات وأحسست شوقا إليها حتى كدت أطرق عليها الباب . لكننى ذكرت أن ضلال أحد الكلاب من بيت من البيوت كان من المحتمل جدا أن يحرك ساكنيه بأكثرهما حرك غيايى سكون بيت « أم مختار » فتسمرت فى مكانى ثم أخذت أغدو وأروح على الشاطئ المفقّر الخالى حتى وجدت نافذة فى بيتنا مفتوحة ورأيت امرأة تطل منها وهى تتسلى « بقزقة اللب » ووقفت بعيدا أنتش فى ملامحها عن الملامح التى ولدتنى فلم أجد الإبدانة أحالت هدوءها الظاهر إلى لون من الشراسة يلوح على قسما بعض ساكنات أحيائنا الوطنية . فلم أجد ما أعلق به على الموقف بينى وبين نفسى أبلغ مما قاله الحاج « عبد المجيد » فى عزية خورشيد : « سبحان من يغير ولايتغير » فهززت رأسى ومصمصت بشفتى وأنا فى مكانى لأرسم . ومضت برهة رأيت بعدها صبيا يسير إلى جوار خادمة ثم يقف تحت نافذة « أم مختار » فإذا بها تضحك له وتقول : سرىعا يا عباس . لاتغيب كثيرا « ياروح ماما » فكأنما رمتنى السيدة بحجر لأزايىل مكانى . وجف حلقى وذكرت حوادث الماضى وقلت : كان من المستطاع أن أكون كذلك « روح ماما » لو أن أبى لم يتعجل رحيله ، أو لو أن « أم مختار » من طراز آخر من غير اللاتى يطان قلوبهن بأقدامهن فى سبيل رجل يضىء لهن المخادع !!

وماذا بقى لى فى الإسكندرية؟ يجب أن أسير . بل يجب أن أرحل فلن أقضى بها يوما ولا بعض يوم . إنها مازالت كعهدى بها قاسية على ليس فيها قلب يخفق بالحنان . أجل يجب أن أرحل !!

وركبت إحدى السيارات العامة التى تسافر نحو الجنوب ولما سألنى « الكمسارى » عن وجهتى أجبت فى شرود : « كفر الدوار » . ثم جعلت أمعن النظر إلى التذكرة بعد أن قدمها إلى واقرا ما كتب عليها بالعربية

والأفرنجية كأنما لأقطع الوقت ، ثم عدت فسألت نفسى ولماذا كان الطلب
« كفر الدوار » لماذا ؟ فأجابتنى : هكذا اتفق !

على أن هذه المدينة الصغيرة قدمت لى يدا لا أنساها حين سألت أحد
تجارها عن نزل هادىء أستطيع أن آوى إليه ليلة أو ليلتين فجعل يصف لى
موقع « فندق السعادة » بأسلوب شهى طلى جعلنى أقصد إليه من فورى
وقد كان صاحبه اغريقيا وكان فى الوقت نفسه جميلا ممتازا وإن كان أجره
غاليا شيئا ما . لكننى كنت فى الحقيقة فى عداد الذين يحتاجون إلى الترفيه
 فلم أبخل على نفسى ، كما أننى رأيت سفرى إلى القاهرة وأنا فى هذه
الحالة النفسية لونا من العبث ينطوى على سوء المعاملة ، فأخذت سمتى إلى
نزل السعادة وأنا ألقى شفتى سخرى وتقززا من أسماء لاقمت إلى المسميات
بسبب فى كثير من الظروف .

وهناك خلعت ملابسى وابتعدت بشىء من الماء ثم اضطجعت فى سرير
مفرد يشغل حجرة صغيرة فى الطبقة الثانية من البناء ، ذات شرفة غربية
تطل على الحقول وترى الطريق الرئيسى بين « كفر الدوار » و « الإسكندرية »
من بعد ، تقوم على جانبيه أشجار الكافور . وماكدت أستلقى فى فراشى
حتى اختطفنى النوم من متاعبى وأفكارى فلم أتحرك ذات اليمين ولا ذات
الشمال ولم أستيقظ إلا والنهار مائل الميزان والشمس فى شوطها الأخير من
رحلتها اليومية . ولشد ما عجبت حين رأيتنى أحسن حالا وأهدأ حالا حتى
بدت لعينى الكوارث أقل ضخامة مما كانت عليه وقت الضحى ، فجرت
كرسىا بيمينى وخرجت إلى الشرفة وجلست أرمى ببصرى فى كل جانب فلا
أرى إلا زجرجة الحقول تحت شمس الحريف المائلة الأشعة ، السقيمة الصفراء .
وكان النسيم أشد نشاطا وأكثر بلولة وأقوى على الإنعاش فأسلمت صدرى
إليه ثم شرعت أستعرض الحوادث الأخيرة جزءا جزءا وأنا أنقل بصرى من

الحقول إلى الشجر إلى بعض بيوت جديدة زحفت على المزارع ، ومن ذلك جميعه إلى شجرة لبخ تقع إلى أقصى اليسار حيث بقية المباني وحيث يستظل بظلها ضريح صغير لأحد أولياء الله أكبت على كنس أعتابه امرأة شعشاء غرباء يسيطر اليقين على أعمالها ، فأدمنت إليها النظر طويلا طويلا وأنا أذكر اليقين .

وجعلنى اليقين أتذكر الثقة ثم جعلتنى الثقة أتذكر السيدة « ف » وأتفحص خديعتى فيها ، لكننى لم ألث طويلا حتى رأيت الشمس تهوى إلى مستقرها وراء الأفق مخلفة بعدها بقايا من شفق مستطيلة على هيئة زنارين أحدهما وردى والثانى رمادى . ثم أحسست بعد ذلك رطوبة الليل ، فأوصدت الباب وأشعلت النور .

وجاءنى الخادم بعشاء خفيف جلست بعده أشرب الشاي وأقلب رسائل السيدة « ف » بين يدى لأننى لم أكن رددت إليها شيئا منها قلت : فلتنتظر ، أجل لتنتظر حتى يوم القيامة فإن العناء الذى ستلقاه بانتظارها دهرًا لن يساوى عناء يوم واحد بالنسبة لقلبى المنفجوع . جعلت أقلب الرسائل وأقرأها بهدوء القاضى المتأثم الحرج ، وأقف على كثير من كلامها فأدير معناه بعقلى كما نتمصص الشراب لنعرف طعمه ، قرأت « ووددت لو كان الزمن ساقنى إلى طريقك أيام كنت أملك هذه الدرة فبذلتها لك لأبرهن على أننى فانية فيك ! »

« كل شىء فى (قديم) مر (بتجربة) فلا أرى فى منزلى شيئا أقدمه لضيئى الغالى ، فماذا أعمل ؟ » .

وكففت عن القراءة ونظرت نحو السقف وجعلت أفكر : كان فى استطاعة امرأة مثلها أن تغش رجلين ، إما زوجها الهادى ، وإما حبيبها الطارىء ، أعنى أنا ، فلماذا خلقت لنفسها كل هذه المتاعب !!

ثم أعرضت عن المشكلة بذهنى وأسلمت عينى لصورة زيتية معلقة على أحد الجدران تمثل معبدا مصرية قديما ، ودفعنى التأمل فيها إلى تدبر معنى العبادة وما يلتقى تحت معناها من حب وخوف قد يكونان بالتساوى وقد يزيد فيه الحب على الخوف أو يزيد فيه الخوف على الحب . ثم قلت فى نفسى : لكن .. أليس فى حب الإنسان للإنسان روائع من العبادة ؟! ألسنا فى حبنا نخاف ونرجو ونطلق البخور ونرتل الأدعية كما فعل الوثنيون قديما فى هياكل الأصنام ؟! .. ثم أليس اعتراف السيدة « ف » بأخطائها القديمة التى كنت أجهلها من قبيل اعتراف الوثنى لصنمه حين يدفعه لذلك الخوف أو الحب ، أوهما معا ؟! وحين يظن أن إلهه الصخرى يعرف دخيلة أمره ؟! الحب على كل حال هو الذى حملها على أن فعلت ما فعلت ، والحب جزء من العبادة !

وإذا فرضنا أن السيدة « ف » كانت ذات ولد فهل كان الوضع يتغير؟.. ربما .. ربما أقامت حياتها الزوجية على شىء من الدخل من أجل هؤلاء الأطفال ، ثم أيهما أفضل ؟! .. لكن لماذا أوازن وقد أشقتنى سيدة قبلها باسم « الحلال » وشردتنى باسم « الكفالة » وعملت جاهدة على أن تمنح المجتمع ثمرة جديدة فأهلكك باسمها ثمرة قد وجدت فعلا تريد الظل والماء ومكافحة الآفات . ثم أيهن أكرم الرذلات : هذه التى تغش رجلها ولتحول بين أطفاله وبين التشريد أم تلك التى لاتغشه فتبعثر نحل خليته ؟

ثم عدت إلى نفسى فقلت : وفيه هذا كله ؟! ما بالى أجاهد فى تبرئتها أو تخفيف ذنبها كأننى مكلف أن ألتقط الزهرة من عطن المستنقع فأمسحها وأضحمها وأشمها وفى الحقائق أزهار لم يمسسها إلا الندى ولم يقبلها إلا الطل ولم يرقصها إلا النسيم ؟! ما بالى أفعل هذا ؟! ثم خيل إلى بعد قليل أن السيدة « ف » تفتح على الباب وأنها داخلة وهى تجمع على جسدها بكلتا يديها ثوبا طويلا من الحرير كأنها تخاف برودة الليل أو تراب

الطريق .. لقد كانت تطاردنى فى كل فج !! رأيت الدنيا من نافذتها فتعذر على بعد ذلك أن أراها من نافذة سواها . على أن مقامى فى « كفر الدوار » لمدة ليلتين خفف من حدة همى فرجعت إلى القاهرة وجرى ملتئم قد وقف نزفه وإن كان يؤلمنى .

وكان أول ما أحسسته بعد عودتى إلى عملى واستئنافى حياتى العادية هو أننى أخذت أتصفح وجوه النساء اللاتى يصادفنى فى الطريق وجها وجها ، حدث ذلك كأننى كنت أتفقدھا ، فأصبحت أراها فى كل مرة تلقانى بعد أن كنت لا أراها إلا فى شخصها وحده ، صرت أقول عن التى فى قدها: إنها طولها ، وعن التى تقصر عنها أو تطول : إن الفرق بين قامتيهما كذا بوصة . ثم أنسب كل شعر إلى شعرها وكل لون إلى لونها فأصبحت أعين قسماتها وملامحها فى أشباهها وأضدادها على السواء . حتى عنيت قلبى !!

وانخرطت فى العمل والقراءة والضرب على قدمى فى أرض الله مدة شهر كامل . ثم سألت نفسى قائلا : أليس من الأكرم أن أنهى هذا الموقف فأرد إليها رسائلها بالبريد أو بأية طريقة حتى لا أدعها تظن بى الظنون ؟ ونشبت فى باطنى معركة استمرت وقتا آخر كانت سببا فى أننى أتهمتها بالحبث : لأنها حملتنى بمطلبته منى على أن أحكم فى قضيتها حكما فاصلا وعلى أن أبلغها نص حكى ، فإما الرسائل وإما العودة ، ومعنى هذا أيضا أنه إذا لم يكن هناك رسائل ولاعودة فإن أملا - ولو ضعيفا - سيظل يداعب أحلامها حتى يقع أحد الأمرين .

وصممت فجأة على أن أقدم لامتحان الكفاءة ففتحت بهذا فى حرب الحياة جبهة جديدة عقدت عليها كل آمالى فى أن أنسى السيدة « ف » وأن أغير وجه مستقبلى ، فإننى لن أكون ساعى بريد يسمى بشهادة الكفاءة .

وكنا فى نوفمبر فبدأت العمل واشترت كتباً وشرعت أذاكر فأطبقت على الظلمة ، وكنت كثيراً ما أقطن إلى نفسى وأنا وحدى والليل ساكن فأجبنى حاملاً رأسى بين كفى ، ومرفقتاى مستقران على المنضدة وبصرى شاخص وفكرى مشتت ، لأن سطرا من السطور فى كتاب من الكتب ذكرنى بحادث قديم ألهانى فانتزعنى من العمل ، كأنما شرع يقص على التفاصيل . وهكذا أتحت لنفسى أن أعيش فى الماضى مرة أخرى وأن أعود فأذوق طعم أحداثه، وأكثرها مر ١

ثم رأيتنى أمام السيدة « ف » وجها لوجه بعد فترة أخرى من الزمن . لم يكن هناك مجال ولا متحول فكان لابد أن نترأى ، كنت داخلا دار الكتب وكانت خارجة منها ، وكنت أنقل خطواتى على أرض المر الضيق بغتة لأننى أحسست أنى على وشك أن أصطدم بإنسان ، وهكذا رأيتها أمامى ، ولعلها كانت تفعل مثل فعلى فلم تنتبه إلى الطريق ، أولعلها كانت عامدة ، كل الذى أدريه هو أننى بصرت بها فجأة فلمعت فى نطاقى كما تعود الكهرية إلى أسلاك المصباح المنطفىء . وانتصب كلانا أمام صاحبه ينظر مبهورا مبغوتا كأنه يعتذر بصمته عما فرط من الأقدار . ومرت لحظات قصيرة فى العد طويلة فى ميدان الشعور التهمت فيها عيناي ملامحها التهاما كأنما أكلتها وشربتها ، وكان أول ما رأيته منها جيدها الطويل العاطل من كل حلية إلا من الفتنة !! ورأيت اضطرابها فى جيدها حين اختلجت من تحت بشرته العاجية البيضاء قصبة زورها فعرفت أنها تفتش عن ريقها . ثم ارتفعت عيناي إلى أعلى فرأيت شحوبها وقد زاد عن قبل وخيل إلى أن عينيها كسبتا فصاحة جديدة لأنهما ألقتا إلى بسرعة مطلع قصيدة حزينة . ثم أطرقتا نحو رخام المشى كأنما تقولان لى : وأنت تعرف الباقي . واستتبع إطرافها هذا تهدل شعرها المخملى الأسود ثم أطبق علينا سكون

محرج خيل إلى فى إبانة أن عين الرواد تنوشنا من كل جانب وأنهم جميعا يعرفون تفاصيل الحادث . فأخليت لها الطريق بحركة عصبية عنيفة فإذا بها تمشى دون أن تلتقى على نظرة وظللت أنا عاقدا ذراعى إلى خلفى مستندا إلى الجدار مدمنا إليها النظر حتى غابت فى آخر الممر .. لكنها لم ترفع رأسها . وأظلم المساء فجعلتنى حادثة النهار أستأنف النظر فى قضية السيدة « ف » بشكل عاجل ، وكان على قبل كل شيء أن أسترجع هيئتها إلى خاطرى . فرأيت فى عينيها حزنا وبأسا وكل معنى من معانى الانكسار والذل التى يعرفها الناس ، ما خلا معنى واحد فإنه لم يكن فى عينيها .. أجل .. ما خلا اللوم ، أحسبها غير نادمة قط على أنها انتمتنى على سر ، وكان الرضا بما فعلت ظاهرا عليها كذلك كأنها تقول لى : أحبك على الرغم من كل شيء !! ولا زلت أحبك !! وأحسست أن فى موقفى شيئا من القسوة . وخيل إلى أننى أجلدتها وهى تتأوه من حبى لامن وقع سياطى ، ففحق من أجلها قلبى لكننى عدت فرأيت الرجوع إليها شيئا محالا ، ثم عدت فتمنيت لو أنها خدعتنى ، ثم استصغرت نفسى على مناهها تلك ، ثم أخرجت حزمة رسائلها لأهيتها لردّها ، واستتبع ذلك أنى ألقيت عليها نظرة وما إن فعلت حتى نحيثها بأطراف أصابعى واستسلمت للأفكار .

ما الذى يحدث لو أننى غفرت لها ؟! ليست خطيئتها أول خطيئة وليس غفرانى أول غفران . وبعض الناس يعاشرون مومسا فى الحياتين : حياة الدعارة وحياة الطهارة ، وهؤلاء من غير شك واثقون من قوة سواعدهم التى أدلوا بها إلى اليم فانتشلوا هؤلاء الغريقات .

ما بالنا نجعل التكفير عن الزلات عملا يجب أن يستغرق أعصار الثائبين ؟ ألسنا بهذا ندعو المخطئين إلى اليأس ؟! فإن الذى يقدم على التكفير يفضل التمدادى فى الخطيئة يوم يعلم أنه سيحيا مكفرا ماعاش . ثم

ما بالنا مرة أخرى نقيس حرارة مرضانا « بالترمومتر » ونقيس حرارة من لا يعنيننا أمرهم « بالمتري » نفسه فنصطنع بذلك لكل مشكلة مقياسا حتى ضلت بين مقاييسنا الحقائق !! ثم ما بالنا مرة ثالثة نرى الهلالي ضاخما عظاما كلما قربت من نطاقنا البلايا واتصلت بكياننا نحن . ونراها حقيرة صغيرة كلما تباعدت عنا واتصلت بكيان آخر !! وما الذى كان يحدث لو أن صديقى « أبا الفتوح » مثلا قص على قصة السيدة « ف » على أنها من واقع حياته ، ثم قال لى وهو يرمى بحبات النرد فى المستطيل الخشبي أمامه : « ولكننى على الرغم من كل هذا غفرت لها . وتزوجتها .. لقد كفرت وعاشت كريمة » . لو أن هذا حدث منه لصفقت له ، ولملت عليه فقبلته قائلا : إنك كريم !

ولج بى الفكر واستبدت بى الهواجس وخيل إلى أن السيدة « ف » دارت فى مسكنها بائسة بائسة تدبر لنفسها مخرجا من مشكل مر عليه شهران فلما لم تجد حلا له سكبت على نفسها البترول وهمت أن تشعل النار . خيل إلى هذا فجعلت أتصور كيف أن تمثال « فينوس » المصرى سيعيث فيه الحريق . فإذا بى أنتفض من مجلسى وأقوم إلى حيث أرتدى ملابسى ثم أخذت حزمة الرسائل ودسستها فى جيبى وأوصدت الباب وتلمست طريقي فى ظلام السلم .

سألت نفسى بعد أن هبطت المنحدر المؤدى إلى باب الخلق عن وجهتى فى هذه الساعة فإذا بفكرة رد الرسائل تنبت فجأة فى ذهنى ، ثم إذا بها تلقى موافقة وتصميما ، ولما اتجهت إلى بيتها أحسست من فورى أن هواء الليل منعش للغاية وأنتى ظمآن إليه كأننى لم أأذوقه منذ أعوام عدة . ولعلنى كنت فى نشوة من قصد الحانة بعد توبة نقضها وإن أوهمت نفسى أن سبب نشوتى وراحتى إنما هو إنهاء موقفى إزاء هذه السيدة ، ودخلت

الحى فألفيته هادئا يظلمه مساء خريفى رطب تخالطه بعض أنفاس الشتاء .
وخفق له قلبى كأننى هبطت مسقط رأسى ، وأحسست أن بينى وبين كل شىء
فيه علاقة قديمة . ودرت فى منعرجات الحارات التى لا يبدد ظلامها إلا
مصابيح واهنة متفرقة قديمة ثبتت فى الجدران . والا ما يند من شعاع داخلى
يتسرب من مصاريع النوافذ الخشبية فيسقط على الأرض أو على الحيطان
فى هيئة خطوط متوازية من النور .

وأدى بى السير إلى بيت السيدة « ف » فتلاحقت أنفاسى وهيات لى
لهفتى عليها استحالة وجودها هذا المساء فى البيت ، لكننى دلفت إلى
الدهلز كما يدلف اللص ووقفت أمام بابها المصمت الذى لا يضيئه زجاج ولا
بلور فخيّل إلى أنه يرحب بى ، وأنه يضحك لى بشعر ثم يبكى بعين ، وأن
مثله فى احتمال التجنى منى كمثّل الصبى « عبده » الخادم الصغير الذى
عقره الكلب والذى كانت تنفس فيه « أم مختار » غضبها فيضحك ويبكى
فى آن واحد . وكنت أشم رائحة البخور وهى تسترق خطاها من تحت الباب
ومن خصاصه ، ووجدت صندوق البريد مثبتا فى المصراع كما كان قبل أن
نتعارف كأنما رجعت لأصلها الأيام ١١ ووضعت يدى فى جيب سترتى لأخرج
الرسائل فأضعها فى الصندوق ثم أعود أدراجى فخيّل إلى أننى أسمع حفيف
ثوبها وخشخشة كتابها ، فجمدت يدى فى جيبى على ما فيه ووقفت أتلفت
لا أدرى ماذا أصنع حتى وقعت عينائى على الظلام تحت منحنى السلم فذكرت
الحجرة المحبوسة التى رقدت فيها فترة من حياتى فى لوكاندة السيدة زينب
وكيف أن القلب كان خامدا لا أثر فيه حتى لمستته أنامل هذه المرأة . فأخرجت
يدى من جيبى لأضع الرسائل فى الصندوق ولكنها خرجت خالية وطرقت على
الباب بعنف ١ ورن الصدى فى أذنى كما يرن الجرس فى الصحراء ، أو هكذا
سمعتة على الأقل ، فندمت وتمنيت أن لم أكن فعلت أو ألا تكون هى هناك

حتى لا نتلاقى ، لكننى مالبثت حتى سمعت صوتها المستميت الناعم يقول :
 من ؟ ثم امتلأ سمعى بوقع خطواتها وامتلات خياشيمى برائحة « العود »
 ولم أجب عن قولها : من ؟ بل جمدت فى مكانى فإذا بها تفتح الباب ، وما
 إن سمعنى أ همس ناطقا باسمى حتى تسانددت لثلا تنهار وتعلقت بالمصراع
 المفتوح تاركة كتابها يسقط على الأرض ، ولم تزد بعد ذلك على أن لفظت
 فى أنين قولها « آه » بما سبق أن ترجمتها به أيام قالت فى رسالتها عنها :
 « إن قوله (آه) موجودة فى جميع اللغات ومدلولها واحد » ..

ولم تعد لغة الكلام بالنسبة لموقفنا قادرة على شىء بل أصبحت فى
 قدمها وعدم صلاحيتها للمقام أشبه بآلة (المنجنيق) إذا استخدمت فى
 حروب . وإن هناك شعاع يرمى على أرض الصالة متسللا من الداخل حتى
 وصل واهنا ضعيفا لأن طريقه لم يكن مستقيما وكانت هى فى « الروب »
 الداكن ذى الأحقاق البيضاء الفصل على جسدها المفصل الذى شهد آخر
 ليالينا مساء نحتنى عن طريقها برفق ، وفى هذا الثوب نفسه ارتقت على
 الليلة وجعلت قرغ وجهها فى صدرى وذراعاها ملفوفتان حول عنقى وهى
 تبكى بعنف . وتركتها تفعل ما بدا لها حتى تنفك ثم تدافعنا إلى الداخل
 حيث نظرت فى عينيها ونظرت فى عيني ، وحيث سمعتها تهمس فى إجلال
 ووله وشوق : أستطيع الآن أن أقول مطمئنة : حبيبى . إنك غفرت !!

وكان جوابى فى التقاء شفتينا للمرة الأولى يوم أتاح لنا الزمان لحظة
 من التى لا يستطيع أحد أن يتأمل مايجرى فيها ، حتى إذا ما انقضت
 استعادها بالذكرى وأدرك أن الخلود إنما هو امتداد لأمثالها من اللحظات
 وأن المشكل الذى أدى بأصحابه إليها كان طبيعيا جاءت نتيجة طبيعية
 كذلك . ثم انقضت فترة أخرى فأخرجت من جيبى شيئا كنت مصمما من قبل
 على وضعه فى الصندوق وانتحيت به ناحية من الحجرة لا يغطيها فرش ثم

وضعته على الأرض وأشعلت فيه النار . ووقفنا ننظر إلى الصغيرة وهي تحرق وورقات أحرقت نفسى ثم قلت لها : وهذا هو الماضى .. لقد أمسى رمادا . اشتبكنا فى قبلة ونحن واقفان ، ظهرها إلى النار ووجهى رليها إليها ونظراتى تضطرب بين لهب على الأرض ولهب على الحد . ثم سكنا معا . نحن والنار !!

وإن أنسى فلن أنسى أنها خرجت وراءى ليلئذ لتودعنى إلى الباب فإذا بقدمى تعثر بشيء تفحصانها فألفيناه كتابا .. وهو ذلك الذى كان تقرأ فيه ساعة سمعت طرقتى . وكنا قد غفلنا عنه فى ظلام الصالة فتركناه ودخلنا نتدافع .

وقد ضحكنا من هذا كأنه صديق ثالث !!

- ١١ -

ماذا كنت تظننى فاعلا يا صديقى ؟

كان لابد لى من الغفران وقد التمسيت السبيل إليه شهرين أويـزيد !!
 رأيت الدنيا من نافذتها فلما تباعدنا ضللت عن الدنيا وأنا فيها ،
 وناهيك بحيرة رجل يضل رشده حتى يتطلب الشيء وهو منغمس فيه .
 لقد ضمدت جراح قلبى فرأيتها ضرورة جميلة ، ثم اختبرت فيها معانى
 جديدة لم تسمح لى فيما مضى أن أعاين شيئا منها فرأيت قبلتها فى بلاغة
 منطقها وعذوبتها فى حلاوة ماتقول . وقالت لى عيناها النديتان : إن حياتى
 معك ستكون امتدادا للتكفير فلا تظن أنى سأقرء على النعمة ، إن الحياة
 قدمتك « تعويضا » لما أنزلته بى من أضرار لمست جميع جوارحى !! ثم
 أحسست لأول مرة بمعنى « التملك » فازدهانى ذلك . وأحببت السيدة « ف »

أكثر من قبل حين ألفتها ملك قلبى وىدى ، كنت من قبل أملك الحكمة وحدها ولا صلة لى برعاء الحكمة فأصبحت اليوم أملك الحكم والوعاء فى وقت واحد .

ما أجعلها وهى ترسم طريق المستقبل وتنظم شئون بيت ستسدل علينا ستائره وتوصد علينا أبوابه ، وما أبرع حياءها الصادق المغرى وهى تهدى رأيها فى فراش النوم !! وما أحلى دعابتها وهى تقول : حذار أن تنسى أننى سأظل مدرسة !! فأعترض بعدم قبولى بل وبعدم موافقة الوزارة على زواج المدرسات أو تدريس الزوجات ، فتوضح قولها وهى تضحك : لا .. بل قصدت أننى سأسهر على دروسك أنت يا « شاطر » أم هل تريد أن تنكص عن تقدمك لامتحان الكفاءة ؟ ثم دفعتنى إلى الأمام بنظرة ملأتنى بالثقة .

ولم نلبث طويلا حتى حددنا ليلة لقائنا ، كأننا خشينا أن يعود الزمن فينقض غزلا صنعناه من عصب ودموع . وهناك فى حارة « ش » فى الطبقة السادسة حيث ترقد المنازل تحت أبصارنا كانت أولى الليالى الحقيقية فى حياتنا المشتركة !!

واسمح لى أن أحدثك عنها بشئ . لأن معانى مبهمة قد رفرقت على فراشنا فيها : جعلنا نتسامر حتى نامت المدينة وكانت السيدة « ف » (وسأظل أدعوها بذلك وإن أصبحت زوجتى لأنى أحب هذا الاسم) كانت تتكلم وهى مغضية وترسم على الملامة البيضاء بسسبائها رسوما غامضة ، فأدركت بغريزة الرجل ما أدركته هى بغريزة المرأة من أنه يجب أن تكون الليلة الأولى فى حياة الزوجين متميزة « بشئ » ما « عن بقية الليالى والا ضاعت فى غمار الزمن . وقد كانت هى تجهد نفسها لتقدم « العوض » عن شئ غير موجود فغابت عنها لذلك شخصية القارئة المنطقية الجدلية وحضرت فى الفراش نيابة عنها امرأة غاية فى الرقة ونهاية فى الأنوثة ومثل فى

البذل . وكان ذروة مابلغته أفكارها فى هذه الليلة أن توسلت إلى وهى تطرقنى وشخصى لا يزال غريبا حتى هذه اللحظة ثم جعلت تقول :

— ماذا يجرى فى الدنيا لو أن حياتى انتهت فى هذه الساعة ، أتدرى ماذا كنت أشبه لو تحققت لى هذه الأمنية ؟ سيكون شأنى شأن السياسى الذى مات فى أوج رفعة بعد أن حقق لوطنه ظفرا لم تقلل من أبعته المعارضة . ثم ابتسمت فى انكسار كأنها رأت على وجهى دلائل الإنكار ثم استأنفت كلامها : ألا ليتك تصدق !! فابتسمت وأنا أنحى عن وجهها خصلة عبرت الحدود ، لكننى أبصرت عينيها سابحتين فى الدمع ورأيت بوادر انفعال حاد على شفتها السفلى ثم سمعتها تهمس بصوتها المستعيت الوانى همسات امرأة أصبحت فى فراش زوج وكان همسا جميلا صوته فى سمعى سحرا وفتنة :

— أريد أن أتزوج علاقتنا بما تعتبره أنت عملا عظيما .. لأأريد أن أظل منك هكذا فى موقف الممنوحة فدعنى أشعر أننى منحتك شيئا !
فى مثل هذه الليلة فى كل عرس يقدم النساء لأزواجهن ما يملوهن الغرور بعد تقديمه كأنهن يقلن لهم : انظروا .. لقد ظللنا كل هذه السنوات محتفظات به من أجلكم أنتم !! فمرنى بشيء أفعله من أجلك يا أخى : مرنى أن أصعد إلى السماء فأعود لك بنجم ، أن أنزل إلى النيل فأنشله بأحد الغرابيل ، أو أن أسهر الليل واقفة إلى جوارك وأنت نائم فأعد أنفاسك وأحصى خفقات قلبك حتى إذا ما أصبح الصبح جلت فى بيتنا أفضى مايتطلب لأستأنف عند المساء عمل البارحة . أو مرنى أثب من النافذة وأنا ألوح لك بالمنديل ، أو مرنى بأى شيء تراه محالا وثق أننى سأقدر عليه . آه .. ألا تريد أن أمنحك شيئا ما ؟! إذن فامنحنى هذه الأمنية .

» ليتك تكتم أنفاسى بشفتيك حتى أسلم الروح بين ذراعيك . أيها

الحبيب ا

وخيل إلى أنها صادقة فيما تتمنى لأنها بكت بحرقة فرأيت من الحتم على أن أمسح عن وجهها الدموع !! كانت هذه هى « العلامة المميزة » ليلتنا الأولى ولا بد من علامة مميزة لهذه الليلة والا ضلت بين الليالى !! ثم ركبنا بعد ذلك متن الزمن كما يركبه كل زوجين وجرت بنا الأيام تعدو نحو الغاية التى يجرى إليها الناس . ولم تتخلف السيدة « ف » فى يوم من الأيام عما اختطه لنفسها من تحقيق السعادة لى بكل ماتطيق ، وأن تجعل حياتها معى امتدادا لفترة التكفير حتى ضقت فى بعض الظروف ذرعا بحنانها وحبها وكدت أشرق به كما تشرق بالماء الزلال .

فكثيرا ما كتمت عنها أننى مريض لأن لهفتها على صحتى كانت تزيد فى أوصابى . وكتمت عنها أننى اختلفت مع رئيسى لأنها لاتستطيع أن ترى فى الرجال من هو أكمل منى . أما آمالنا فى المستقبل فقد طالما سهرنا فرسمناها بريشة واقعية جميلة تجعل فى كل ركن من أركان الصحراء واحة وبثرا وفى كل فج من فجاج الجبل صخرة يتفجر منها الماء ، وفى كل متاهة فى نواحي المحيط منارا بعيد المدى طويل الشعاع .

غير أننا كنا نعانى شيئا من شطف العيش فلم نكن نحيا فى بهجوة خصوصا بعد الأشهر الأولى من حياتنا المشتركة أعنى بعد أن نضب معين جنيتها كنا ادخرناها لليالى السكرية التى لاينبغى أن نفكر فيها إلا فى الكنوس . وقد اعتمدت السيدة « ف » بعد ذلك على قلبها كما يعتمد الجمل على سنامه أيام سفره الجائع . وقد جعلتنى أأتم بالحنان .. أجل جعلتنى أغمس الخبز فيه فهل تتصور ذلك ؟! إن بعض قطع البطاطس المقلية بالزيت أو شيئا من الخضر والجبن القريش أو طبقا من « الطعمية » البيتى تضعه سيدة بيتى على مائدة غداتنا ثم تنثر حوله بضع كلمات كما تنثر

المشهيات حول الحمل المشوى ، لجديرة بأن تفتح أبواب شهية المرضى بل وأبواب النفس كلها للحياة .

ماكان أجملها حين توازن بين شرائح اللحم الذى يجثم حول مائدتها النكد وطبق الفول الذى يؤكل صباحا بالزيت وظهرها بالطماطم لكن الحب يبسط من حوله جناحين !!

على أن معظم ذلك قد كان على حسابها لأنها كثيرا مادست جزءا من غذائها فى غذائى خصوصا إذا كان لحما . وكما أقسمت أنها ظلمتنى حتى ويعلم الله أنها لم تذق منه شيئا . فهل يؤاخذها الله على قسمها الباطل أم أنه يخفف الحساب عن لون من الناس يحب الله فى الناس ويفنى فيه بنفائه فى خلقه ؟ أظن ذلك

ولم تجعلنى أفكر يوما من الأيام أن الزوجة ثقل على زوجها مهما تضق ذات يمينه ، لأنها كانت دائما تظن بالغد خيرا وترى الشمس التى ستشرق علينا خير من الشمس التى رأيناها من مرتفع السطح وهى تتوارى عند الأفق . ومن أجل ذلك لم أندم قط على وصل حبلى بحبلها بل كنت فى بعض الظروف أستعرض ماضينا معا فأشفق عليها مما تبذله فى البيت .

لقد أحالت مسكننا الصغير هذا إلى جنة ، حتى السطح الذى كان فضاؤه وقفنا علينا جعلت منه معرضا للأزهار . فكنا نأكل العدس وعبرتنا ننظر إلى زهرات القرنفل أو نجلس للقراءة وأنفاس الحجرة عبقة برائحة الورد . ولم يكن هناك جلباب من جلابيبها تجرى عليه قوائين القدم لأنها كانت « تطعم » جلبابا لجلباب وكثيرا ما كنت أضحك حين أرى انسجام اللونين بعد « التطعيم » وأسألها عن السر فترد على بتخايت : ألا تظن أننى يوم شراء القماش كنت حاسبة حساب هذا ! فنضحك معا .

وألقت فى نفسى بخاطر عظيم أسرنى طول أيام حياتى ، مدة عشنا

معا وبعد أن فرقت بيننا الأقدار ، أُلقت فى خاطرى أننى أعظم ما أتصور وأذكى مما أظن ، وأجمل مما أرى فى المرأة .. رجل كامل .. ظاهرك آية فى الكمال ، وباطنك أنا أدرى الناس به ، فإذا كنت تحبى فارتفع إلى الذروة التى أراك عندها .. لاجعلنى أفتش عنك فى العلياء ثم تنزل إلى مكان خفيض .

أراك عند القمة فأستحلفك ألا تكذب بصرى !!

أحسست بعد ذلك أن الصدع الداخلى الذى تولت « أم مختار » فيما مضى توسعته بيدها الحرقاء ، قد أخذ يلتئم !!

وكان شيئا جديدا ولد فى نفسى فلم تقو سطور الكتب على أن تذكرنى بالإخفاق ولم تعد « أم مختار » قادرة على التلصص واقتحام وحدتى على وبهله أفكارى ، فاطرد لى الفهم واتسق التفكير واستشعرت لذة فى القراءة الرسمية وتذوقت حلاوة المعلومات حتى وددت أن يخطو الزمن إلى الوراء خطوات أرجع بها طالها ولو كان من حولى عشرة نسوة من طراز « أم مختار » و « زينب » !!

ووصوت عصافير الربيع على أصص الأزهار فى سطحنا الواسع وتناهى إلى سمعى مع عمق الحارة نداء باعة الخس والملاثة ففاحت روائح الامتحان ثم دخلت الكفاءة وكانت السيدة « ف » تلقانى عند رأس السلم عند عودتى من كل علم كما تتلقى الأم ولدها الصغير ، ثم تستقبلنى ببسمة تنسينى رهق العمل . فإذا ما هممت أن أحدثها عن الإجابة أشارت برفق ألا أفعل قائلة : دعك من الماضى .. فكر فى المستقبل . « آه .. لكأنا كان الماضى بغيضا إليها فى كل شئ » . ثم ظللنا نترقب النتيجة حتى أعلنت النتيجة ، فما تظن أنت نتيجة عملى ... خمن . لكننى لن أتعبك ، فأبنى رسبت .

غير أنى لم أجزع ولم أثر على الأوضاع ولم أفقد ثقتى بالمستقبل ، لأنه كان فى داخلى « مختار » غير الذى رعته « أم مختار » . فى داخلى رجل يعتقد أن الفرص غير دائمة السنوح ، وأنها كالظباء والطير والسحاب والمطر قد تجبىء فى موسم وقد تجبىء فى غير موسم . وكانت دهشتنا كبرى حين رأيت رسوبى فى « الإنجليزى » وحده وأن بقية درجاتى خصوصا فى اللغة العربية كانت مشرفة على النهاية ، فجددت عزمى وشجعت أدواتى وأقبلت على الدرس ، وكانت السيدة « ف » دائما إلى جوارى تقرأ وتقدم لى القهوة، وتبسم لى فى صمت وتدفعننى بأشعة من عينيها إلى الأمام .حتى آن الأوان ونجحت فى الكفاءة II الكفاءة التى كانت « أم مختار » ترى صعودى إلى القمر أيسر على بكثير من نيلها ما عاشت .. لكننى نلتها فى الشوط الثانى ونلت فيها مجموعا يدعو إلى الإعجاب ، لأن السيدة « ف » خلقت منى إنسانا غير الذى كنت تعرفه .

وبدا خط حياتى يأخذ اتجاها جديدا ، فأصبحت موظفا يجلس على مكتب ، وقد نفثت فى هذه « الأداة » سحرها حين جعلت منى شابا مستقيم الظهر بعد أن كان منحنيا ، خافت الصوت ، لأنه فرغ من النداء على أصحاب الرسائل فى الأحياء الوطنية ممن يسكنون السطح .. يطرق الأبواب برفق وبأصبع واحدة ، لأنه لم يعد يستخدم « سماعات » الأبواب ، يقف أمامه طلاب الحاجات ، فلا يسمعى هو إليهم ، لا يمشى كثيرا ولا يستعمل رجلبيه إلا فى شئون الخاصة . فى بيته سيدة تحمل شئون البيت وجل شئون الخارج إلا فيما يتعلق بعمله فحسب . تتجه إليه بقلبها أينما كان وحيثما حل، وتبشره بالصبح القريب . وإن كانت بقايا شفق المغرب لا تزال حائرة على الأفق . وهذه هى حالى II

ثم جرى فى جذب عيشتنا رخاء نوعى ، وإن كانت السيدة « ف » على

الرغم من ذلك لاتزال بادية النخافة مفرطة الرقة ، لأنها لم تكن مشغولة إلا
بى . ثم ازداد شغلها بى وبمخلوق ثالث . منذ استبان حملها بعد عامين
ونصف عام من بدء حياتنا الزوجية وجعل خيالها المشبوب يصور لها أنها
ستلد غلاما هو صورة منى ، أو قثالا مصفرا للتمثال الكبير ، الذى سهرت
على هواه أكثر من ثلاثة أعوام .

وكننت مشفقا عليها فى الأيام الأخيرة من حملها ، لأننى رأيت كأنما
كان بطنها مستأثرا بحيويتها جميعا حتى امتصها من سائر الجسد ، وحتى
صوتها الوانى فارقتة الحيوية . لكننها كانت فرحة مستبشرة تحمد للحياة
منحتها ، حتى لكأن الحياة لم تجد بها من قبل على أنثى سواها . ورأيت
السيدة « ف » تقضى شطرا من أوقاتها فى خياطة ملابس صغيرة لولد
وينت ، ثم تشرع فى تطريز حواشى بعضها بأزهار وأوراق ، فكنت أرى
الطرز على أديم الملابس وكأنه ليس طرزا ، بل قهلات ويسمات أمومة تصبها
يذاها بالحرير .

ثم جاءها المخاض فى ليلة من ليالى الشتاء ، وكانت ليلة عجيبة جعلت
من نفسى مسرعا لإحساسات عديدة .

كنت فى حجرة أخرى ومع السيدة « ف » إحدى جاراتها الطبيبات ظلت
إلى جوارها بعد أن نزلت من عندنا حكيمة المستوصف تسب وتلعن لأننا
استدعيناها قبل الأوان بكثير ، ولأن السلم أورثها دوارا وانهيار نفس ؛
ولأن عسر ولادة مرتقبا يحتمل معه أن تنتقل الوالدة إلى أحد المستشفيات ؛
ولأن المطر كان يتساقط رذاذا على قدوم هذا المولود ا

وما إن فارقتنا الست الحكيمة حتى انحلت عرى السماء بغيث كأنه
أنفواء القرب ، فخييل إلى أن السماء قد جاءها المخاض هى الأخرى وأنها
تحس عسرا لأن زخيرا وأنينا وقلقا ودموعا قد سيطرت على الجو . ولم يكن

سقف مسكننا أهلاً لأن يتحمل هذه الويلات فبدأ يكف وأخذت قطرات المطر تساقط على بعض قطع الأثاث وشرع بعضها ينقر الأرض فذكرنى ينقره على حصير المسجد فى شارع درب الجمايز ليلة بت فيه هاربا من برد الشارع ، فثارت نفسى بذكرى ممضة وملأنى هول وفزع فسارعت أعمل عملاً أقف به تساقط الماء . ولم يكن هناك سلم أستعين به على تسلق الحائط فلجأت إلى حبل الغسيل الممدود فى السطح فقطعته بسكين ثم جعلت منه أنشودة رميت بها فنشبت فى إحدى خشبات السقف المطلة من البناء على أرض السطح ، وتسلقت الحائط فصرت فوق سطح المسكن .

كان الليل قد تقدمت خطواته فكاد ينتصف ، والقاهرة مستسلمة لهطول المطر كأنها هرة شريفة . وليس هناك ضوء إلا من مصابيح تنظر من وراء الشيش ، وإلا مايشع من قناديل الشوارع . وهناك برق يلعب بين فترة وفترة فيلقى نوره على منزل الوقف الراض أمام بيتنا العالى .

وبدت البيوت مغسولة فازداد سوادها تحت جنح الليل ، ولم يكن هناك ريح وإن كان الشتاء يسيل برداً وقراً . وكان فى يدي سفود من الحديد لأنظف به الميزاب مماعسى أن يكون قد اعترض سبيل الماء حتى يسيل إلى الشارع ، وما أن تقدمت على يدي ورجلى زاحفاً فى حذر وخوف حتى بصرت من بعد قريب بعمق الحارة من تحت ، وبالظلام المسيطر على عمقها كأنه ظلام الغد وكان هناك ميازيب أخرى تلقى بمائها فأسمع صوتها من بعيد . وغمرتني حالة غامضة لعل الجوى الذى كنت فيه هو الذى خلعها على ، فقد جعلت أعمل السفود فى مجرى الميزاب لأخلى للماء طريقه وأنا أعد : واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. وأقلب بصرى فى السماء والأرض والسحاب والبرق ومنزل الوقف والشجرة العتيقة والمهوى البعيد العميق الذى يفصل بينى وبين الحارة.. ثم استحلت إلى شىء أشبه أن يكون جزءاً من

الليل فرأيت أن الحياة التى تدب من تحت هذا السقف لون من العبث سينتهى على الرغم منا فلماذا لا ننبيه بإرادتنا - وهذه إحدى بدواتى - ولما نظرت إلى ظلام الحارة فلم أستبين طول المسافة ذكرت ظلام الماضى قبل أن أولد ، وقلت فى نفسى : ليس بينى وبين أن أعود إلى هذا الظلام الذى كنت فيه قبل أن تلدننى « أم مختار » إلا أن أعمل عملا بسيطا جدا هو أن أترك جسدى هذا يهوى فى الظلام . فيتصل الظلامان !! لكن الميزاب لم يظهر بعد ولا يزال الماء يتساقط على أرائنا تحت السقف . فجعلت أعمل السفود . لم أكن فى هذه التوبة أعد : واحد .. اثنين ، بل كنت أقول : ولد .. بنت .. ولد .. بنت . وىدى غادية رائحة فى فتحة الميزاب . وابتسمت حين عن لى أن أجعل من ذلك فألا للمخلوق أنا سبب وجوده فقلت : إذا سمعت صوت الميزاب يصب ماء فى الحارة ، وأنا أقول : ولد ، كان ولدا ، وإلا كان بنتا ، ثم عاودت عملى وارتقبت غايته حتى آن للسفود أن يخرج من الفتحة الأخرى وتبعه الماء وأرهقت سمعى وشفتاى تتحركان : « ولد : بنت » وكان لدرربة الماء فى أخدود الحارة المظلم العميق صدى مفزع الوقع أحسه قلبى ، وكنت فى هذه اللحظة أقول : بنت !! ولم ألبث أن ألقيت على المهوى البعيد تحت بصرى نظرة أخيرة تراجعت بعدها فى حذر وبطء بعد أن رميت بالسفود إلى أرض السطح ، ثم تسلقت الحبل عائدا إلى مسكنى .

كانت آهات متأللة مكتومة تتناهى إلى سمعى وأنا فى الحجرة الأخرى. لم تكن آهات معركة الحياة والموت وإنما كانت آهات معركة الحياة مع نفسها وجعلت أندبر مغزى هذا وكيف أن لقاء أو أكثر يهدى إلى الأرض مخلوقا قد يكون نعمة لها وقد يكون نقمة عليها !! وكيف أن هذا المخلوق سيحمد لأبويه فعلهما فى يوم من الأيام أو أنه يود لو أن كلا منهما كان أعرض عن صاحبه كما وددت أنا من قبل . وجعلت معان غامض تجول فى نفسى فتملكنتى

تماما ما كفت السيدة « ف » عن الأثنين ثم أتخلص منها إلى حد ما إذا ما سمعتها تتن . وألفت نفسي فجأة أبسط كفى بالدعاء وإن كنت قليل الالتهاال مؤمنا بأن الله يعلم السر والنجوى ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . لكن شخصا مرتقها جعلنى أخرج عن مألوف ماتعودت لذلك سألت عما عسى أن أفعل إذا ما درج هذا الإنسان على الأرض وطلب من أبيه حاجات قد يكون بعضها عسير القضا .

ثم خرجت جارتنا الطيبة تزف إلى البشرى فبشرتنى بفلام ، وتجلجلت حين خاب فآل الميزاب فلم تكن بنتا ، وأحسست من فورى أننى انقسمت قسمين متساويين أحدهما اسمه « مختار » وهو أئفه ما فيها ، والثانى يطلبون منى الآن أن أطلق عليه اسما ، فقلت : أريدون أن أسميه؟ .. أشكرك يارب .. ليكن .. اسمه .. اسمه « وحيد » !! فتراجعت جارتنا الطيبة إلى حجرة الأم وهى تتغنى بالاسم الجديد ، وخيل إلى - وأنا أنطق به للمرة الأولى علها حلوا منسوبا إلى قائلا : وحيد مختار - أن الشمس توشك أن تشرق فى الخارج وإن كنا فى صميم الليل ، وكان الأحياء على الأرض قد أخذوا يتضامون ويتلاصقون ويزحم بعضهم بعضا ليفسحوا مكانا يتسع له .. وأصبح عقد الأسرة منذ ذلك التاريخ مكونا من ثلاث حبات سلكت فى خيط من الحب . وكثر حديثنا عن المستقبل حتى كلنا ننسى الماضى وكان كل جزء من عمرنا يصير غربها عنا تماما حين يبتره الصباح إذا كان مساء . أو يبتره المساء إذا كان صباحا . ووجعنا إلى أحلام المراهقة ونحن فى ذروة الشباب . فكان طفلقنا هذا قد أوقفنا على رأس الطريق فاستأنفنا الحياة مرة أخرى .

ورأيت فى عينيه السوداوين سعة الدنيا فعجبت لهؤلاء الذين يضيئون لها وعندهم عيون الأطفال ثم ذكرت شيئا قديما كنت رأيت أيام فافتى

وتشريدى يوم وقع بصرى فى إحدى المركبات العامة على رجل جاوز الأربعين يحمل طفلا يبدو أنه أول أطفاله ويجانبه زوجة على هيئتها مسحة تدل على أنها لم تسلم عامها الثانى فى بيت الزوجية ، وقد حمل الأب عنها طفلها . فلما أطل فى عينيه وهو بين الناس نسى أن حوله ناسا فجعل الرجل المكتمل هذا يناغى الطفل وكأنه طفل . وقد اهتم بعضنا وكنم بعضنا ابتسامة لأن هيئة الأب كانت تثير الإشفاق والسخرية والدهشة فى وقت واحد . وخيل إلى أن زوجته كانت تبتسم لتواى خجلها من هذه الحركات . ثم طالت المناغاة ونحن ننظر والطفل يبسم فى لفائفه البيضاء على ذراعى أبيه . وأخيرا أكب عليه الأب برأسه الضخم الأصلع ووجهه الغليظ المتكور وقمه الباسم الواسع وطبع عليه قبلة خفت أنا أن يزهق روحه فيها . وقد نزلت من المركبة يومئذ وأنا أسائل نفسى : علام كل هذا ؟ فلم أثبت أن اهتمت إلى الجواب فى « وحيد » وفحواه أن هذا الوالد كان يقبل نفسه فى ابنه ويتمسح بأستار الخلود وهو يتمسح بلفائفه البيضاء . أجل كان يتمسح بالخلود لأنه لا يرى حياة ابنه إلا امتدادا لحياته التى ستنتضى ولأنه يرى ابنه فرصة أخرى لحظه إن كان قد كبا ، وشوطا جديدا يبلغ به اسمه الذروة إن كان قد نال قسطا من النجاح .

وهذا هو عين ما أوحى به إلى ولدى « وحيد » بل هو جزء منه : خيل إلى أن جدار الإنسانية العظيم كان محتاجا إلى لبنة مهمة ، ظل مكانها مفتوحا على هيئة ثغرة ، حتى تنفس ولدى أنفاس الحياة . وكنت أنظر إلى الأطفال فى الماضى على أنهم مخلوقات تجبى عرضا بلا قصد .. فهم عند الرجال وعند النساء « وإن كنت متطفلا عليهن فى حكمى » أرواح فى الطبقة الثانية من الأهمية تدلف إلى الوجود بعد الشيء المهم الذى يضعه الرجل فى الطبقة الأولى من نفسه ألا وهو المرأة . لكن هذه الأرواح لا تلتهب

أن تفرض نفسها على « المنتجين » بالعويل والصراخ ودق الأرض بالأرجل فى بعض مراحل العمر ، وبالمطالب التى لا تتوانى ولا تنقضى فى بقية المراحل، حتى إذا ما بلغ الذكر منهم شأوه ، وبلغت الأنثى منهن شأوها بحثوا عن رأس الطريق الذى سار عليه آباؤهم وأمهاتهم من قبل ، فدرجوا لا يلتقون نظرة على من خلفهم .

لكننى بعد ذلك أحببت الأطفال وحنوت على كل طفل يصادفنى فى الطريق ، وصرت أتوجع لآهة أسمعها من بعد وأعرف فيها آهة ولدى وإن كنت لأعرف صاحبها ، وجعلت أذكر « أم مختار » وأعجب من قلبها هذا الذى احتوته حناياها ، وكيف استطاع أن يعذب وليدا !!

ثم ذكرت الماضى وأنا أطالع عيني « وحيد » فاستعدت بالله من قصر العمر وقرب المنية ، حتى لا أتركه كما قد تركنى أبى ، واستعدت من « أم مختار » حتى لا تتقلب السيدة « ف » بعد عماى امرأة جديدة بفعل إكسبير تصبه لها عاقر فاجرة مثل الست زينب . ثم استعدت بالله من زميل له يذله على طريق الهرب كزميلى أنور أمين ، ومن مبيت الليالى فى المساجد أو اللوكاندات الحفيرة . واستعدت بالله من الجوع ووجدت نفسى مستعدا لأن أحتمله بدلا منه ، فأجوع بقية عمرى حتى لا يأكل « وحيد » بطاطا ولبنا ليحس بالمغص والغثيان والدوار ، ولا ينزوى بقبضة من الحلبة الخضراء عند مدخل حارة مسدودة ، ويده تنازع فمه الجذور حتى لا يلتهمها ، كما حدث لأبيه قديما يوم كان على مقربة منه حمار يأكل البرسيم !! .

لكننى عدت فقلت : أفى قوانين الحياة أن يلد المحظوظ محظوظا ، وأن يلد المنحوس منحوسا ، وأن يكون ابن الغيبى غيبيا وابن الذكى ذكيا ، وابن الفقير فقيرا حتى آخر الدهر !!؟

إن كثيرا من ساكنات الأكواخ قد قمن عن طفل ، ثم لففنه فى خرق

بالية وتركته بعد أيام قلائل يطلبهن بالصراخ فلا يجدهن ، لأنهن يعملن فى الخارج ليحققن لأنفسهن كسرة من الخبز . وقد طالما أهدت هذه الخرق إلى الناس أبطالا وعباقره . وهذا هو ابنى وليس فى خرق ، ولكنه فى ثياب نظيفة ، تمخضت عنه أم من فضليات النساء وأذكاهن ، فلماذا لا يكون عظيما .. أليس من الجائز أن يخرج الإنجليز من مصر ؟ . إنهم سيخرجون حتما بمجهود رجل ، فلماذا لا يكون « وحيد » هو هذا الرجل ؟

لم أعد أنظر إلى الحياة من نافذتى الشخصية ولا من نافذة السيدة « ف » ولم أعد أراها تنقضى بموتى ، فأنظر إلى حياة تؤمل فيها ونحن تحت التراب وما ذلك إلا أننا خلفنا فيها أكبادنا تمشى على أرضها !! وجعلت الأيام تمر ووحيد ينمو ، وجعلت نظرة واقعية جديدة حازمة تكسو الحياة فى نظرى ، فلم أنقال ولم يجمع تفاؤلى حتى أمسيت فتخيلت ولدى طبيبا ناجحا فحسب ، أو محاميا ماهرا أوقاضيا يحمل الميزان ، أوسفيرا لدى إحدى الدول : إنسانا هبت على شراعه الريح رخاء سخية ، فلم تحوله من شرق إلى غرب ولا من جنوب إلى شمال ، كما حدث لشراع أبيه . ألا تذكرا نى نلت الكفاءة من الخارج . ثم هأنذا أسهرمقلبا بين يدى كتب طلبة البكالوريا والسيدة « ف » إلى جوارى تقرأ أو تقدم القهوة أو ترمى بالكتاب سريعا على مقعد قريب ، لأن صوت « وحيد » تنهى إلى أذاننا من الحجرة الأخرى ، يناغى أو يبكى أو يحلم بأى شىء .

أما السيدة « ف » فقد اعتمدت اليوم فى حياتها على قلبها وحده . كانت فيما مضى تحابى رجلا واحدا على حساب نفسها فأصبحت اليوم تحابى اثنين . كانت فيما تيقنته بعدئذ تعتبر نفسها « تذكرة قطار » كل مهمتها أن توصلنا إلى نهاية الرحلة ، ثم ترمى بعد ذلك فى أى مكان ، وقد ساءنى أن استشفقت هذا فى دخيلتها ، حتى أذكر أننى وقفت منها موقفا

عدائيا لأول مرة منذ تزوجنا ونهرتها على سلوكها . أحسست أنها تريد أن تستغرق فى الحاضر بكل ما فيها ، حتى لا يطل عليها الماضى يعين ، فكان مثلها مثل الذى يصطخب ويعج ويهذى ويتمايل متساكرا حتى يتحقق له السكر قبل أن تنتصف كأسه !! وهى بعد امرأة شديدة الحساسية ، يؤثر فى قلبها كل لمس ، وإذا كانت العلاقة بين القلوب والأجسام قديمة وثيقة ، فإن هذه الحساسية قد لحقت جسمها كما نبتت فى قلبها ، فرأيت السيدة « ف » تضوى وتذبل لأنها اعتمدت فى حياتها - كما قلت لك - على قلبها كما يعتمد الجمل على سنامه فى ليالى سفره الطويل . ولم تكن دائرة الرخاء فى بيتنا قادرة على تحمل التضيق . ومعنى هذا أن شريكى الحريصة على إسعادنا كانت تقص من ضروراتها لتقدم لنا كماليات . فهذا يدخر لأستعين به على دروسى الخاصة فى اللغات ، حتى لا أخفق فى امتحان البكالوريا . وهذا يدخر باسم « وحيد » ، لأنه سبحانه حياة على فط غير الذى عشناه ، ولا بد له من الترفيه ولقيا الخياة على أحسن وجه ، أما ذلك فيدخر لأمرغير منتظر وفى الحياة مفاجآت كثيرة .

وتحول العش الصغير المشرف على القاهرة من الطبقة السادسة إلى جنة كبرى بها حور وولدان وروح وريحان حتى إنه كان يخيل إلى فى كل يوم وأنا أصعد درجات سلمنا العالى عند عودتى من الخارج أن كل درجة أقطعها إنما تدنينى من النعيم . وكثيرا ماكنت أبصر بها واقفة عند مدخل السطح على رأس السلم المستوف فتلقانى بابتسامة فصيحة محمد بها سلامتى وتطلب بها قبلتى . وقد ظلت السيدة « ف » هكذا مدة طويلة تحسب بالسنوات أشعرتنى فيها أنى عشيق لازوج ، وما كان أقدرها على تجديد حياتنا ورفع الملل عنها .

كانت تغير ماء حياتنا كما يغير البستانى ماء النافورة فلم تنفع منها

رائحة العطن !! وكانت طريقتها فى ذلك كالنسيم فيها حركة وفيها هدوء فى وقت معا . فقد أجبرتني بعد بضعة شهور أن أستقل وحدي بفراش زفافنا واستقلت هى بفراش إضافي صغير جعلته فى إحدى زوايا الحجرة الفسيحة التى لم يبخل عليها بناتها بالسعة لأن السطح كبير . وكثيرا ما كانت السيدة « ف » تناجيني وهى فى الفراش المستقل بعد أن يخيم علينا الظلام بإطفاء النور وكانت قادرة على ابتداع أساليب ناعمة قصيرة تجدد بها حبي وشوقى إليها ، حتى إذا ما فرغت من الهمس وأحسست أنني ألت إلى حال أرجو فيها امحاء ما بيننا من مسافة أخذت فى التراجع وجعلت تنضح هذه الحرارة بما يخفف حدتها شيئا فشيئا فأنام راضيا وتسهر هى فى خيالى وتداعب أحلامى كأننا على أبواب التعارف ولسنا زوجين مرت علينا أعوام ستة !

كنت قد نلت شهادة البكالوريا فى هذه الأثناء فاستقررت فى موضعى من الأرض وأحسست أنني بلغت غاية من التى يمكن أن يقف عندها الناس ، وازدهانى أنى صرت موظفا محسودا من زملائى وأصدقائى أمثال أبو الفتوح الذى نهرنى فى إحدى الليالى مساء أدعيت كما ظن « أنني راسب كفاءة » . فما بالك بى وبه كذلك بعد أن أصبحت « ناجح بكالوريا » ؟ ثم ازدهالى كذلك أن جمعت المصادفات بينى وبين أحد الزملاء القدامى فى المدرسة الثانوية فى الإسكندرية يوم لقينى فى شارع محمد على وتصافحنا على شوق ثم تساءلنا عن الأحوال فإذا به يقول بلىء شديقه : أنا موظف فى المالية .. من حملة البكالوريا .. أظنك لم تستأنف دراستك يامختار بعد أن قطعها ؟ فلما أخبرته بحالى خيل إلى أن تطاوله قد تقاصر حتى صرنا رجلين يتأرجح كل منهما أمام صاحبه فى كفتى ميزان وفقته أنا بأننى علمت نفسى بنفسى . وزفت إلى السيدة « ف » فى إحدى الأمسيات خبرا حسبتها بشرى . ذلك أن أختا أو أختا لوحيده قد أخذ سمته فى طريق البشرية ليتنفس

أنسام الحياة بعد سبعة شهور غير ما فات . وضحكت أنا من نواحي قلبى ورفعت صوتى بالقهقهة وكنتمت هى ضحكتها واحمر وجهها وهى تنظر إلى الأرض . ثم استأنفنا الحديث فبصرتها بحالتها الصحية وعدت فأبدت بأسى من سماعها نصحى لأن أما تحرم نفسها من أجل ولد واحد وزوجة تحرم نفسها من أجل زوج ، ستصبح عما قريب أما تحرم نفسها من أجل اثنين .. إذن فلا أمل !! ثم سارت بنا الحياة سيرتها العادية كنفس المشهد الذى تراه فى أحد الشوارع المزدهمة .. كل حى فى شأنه الذى يشغله وقدماء تنهبان الطريق . وكما أنه لا يتوقف الناس فى الشوارع إلا إذا حدث حادث فإن حباتنا المنزلية ما كانت تتوقف إلا إذا حدث حادث . وكان ذلك ظهر يوم من الأيام ، يوم عدت من عملى فعابن قلبى ما بداخل المسكن قبل أن أطرق الباب . خلت أن السيدة « ف » غائبة عن البيت لأن أنفاسها ورائحة شخصيتها لم تتناه إلى . ولكننى طرقت الباب فلم ترد وعادت الطرق فإذا بها تفتح وتقف أمامى منتصبية يكسوها شحوب الموتى . رأيتها امرأة غير التى تركتها وقت الضحا كأنما بدلتها يد سارق وسألتها ما خطبها فعلمت أن الجنين قد سقط فى الشهر الرابع عقب حملها حشايا السرير وأن نزيفا حادا يلح عليها منذ الصباح ، قلت وأنا أدق كفا بكف فى عجب يخالطه الأسى ويغمره الأسف : ألم يكن هناك طبيب ياسيدتى .. هل أقفرت القاهرة من الأطباء ؟! لكننى لم أحظ بجواب لأنها كانت تتحامل على نفسها لتدخل إلى الفراش . ثم انقضت ساعتان على الحادث أو ثلاث ساعات حتى جئتها بطبيب وكان أول ما عمله بعد أن عبر الباب أنه عجب لمنظرها بحملقة عينيه وفتح فمه ثم باشر عمله ووصف العلاج وأوصاها بالراحة . وخيل إلي بعد أن انصرف وبعد أن زودنى بأوهام جديدة أن جسد هذه السيدة قد ركب عليه ميزاب فتزف دمها وأنها هالكة لامحالة .

وأخذت إجازة وسهرت على راحتها وعلى مطالب « وحيد » وخيل إلى أن دقات ناقوس عظيم تنتهى إلى مسمعى من بعد فيأتى صداها خافتا واهيا ولم يكن هذا إلا ناقوس الخطر تدقه يد الزمان .. وغمرتني قشعريرة من المستقبل وبدأت آية الليل تغشى آية النهار حين استشعرت خوفا على شريكة حياتى . لكن هذا الخوف لم يجعلنى أفقد رشدى فقد كنت أشبه بالجائلين فى المعركة تتقاذفهم جوانبها وتطحنهم رحاها على الرغم من الجبن أو الشجاعة . وامتمدت يدنا إلى المدخر نتفق منه فى هذه الملمة حين أبلت السيدة « ف » من مرضها ، واستأنفت عملى فى الخارج واستأنفت عملها فى البيت . لكن نحولا ورقة جديدين كانا قد مسا عودها . وأوصيتها بالراحة بل وجعلت أعاونها فى كثير من أعمال المنزل وأنا أتضاحك كأن أغسل عنها صحاف الطعام أو أكنس أرض الشقة أو أعمل القهوة لئنفسى أو أقشر أو أخطر البصل أو البطاطس ونحن فى المطبخ . وخلقت بأعمالى هذه جوا من السعادة والطمأنينة وماكنت أدري أنه مصنوع لاعلاقة له بالطبيعة ولاصلة له بالحقيقة ، أشبه بالجوهر الذى يخلقه المتفائلون فى المخبأ تحت أسنة النيران .. أجل كان مصنوعا لأن كميننا غادرا من جحافل الدهر قطع علينا ضحكنا فأمسكنا عن القهقهة فجأة وأخلينا السبيل لدموع جديدة !!

ظللت أستمع إلى سعال السيدة « ف » بضع ليال متوالية وكل منا فى فراشه المستقل ثم رأيتنى أقترح عليها فجأة تحت جنح الظلام أن أعرضها على طبيب فأجابتنى بصوت شمت منه رائحة الخوف والتلق وطول الترقب والرضا بالعرض :

- آه .. كنت على وشك أن أطلب إليك هذا !!
فذكرتنى بقولها أول عبارة فاهت بها ليلة طرقت عليها مسكنها

فألقيتها محمولة فعمجت للأحداث كيف ينادى بعضها بعضا ويذكر بعضها ببعض . وركبني شؤم وخوف . وحتى تخيلت أشياء أخرى كلها شرور وهلاك ثم بصرت بنفسى وكأنها تبحث عن « وحيد » لتنجيه ولنمت نحن .. أنا وهى !! أما هو فليبق للحياة !!

ورأيت من الصواب ألا أسترسل فى هذه الهواجس لكننى ظلمت منتقبض الصدرحتى غلبنى النوم ، وطالعنا من النافذة نهار كئيب رأيت على نور شمس وجه السيدة « ف » عجيب المظهر حتى لجأت إلى نفسى أسألها وألح عليها فى المسألة : ياإلهى !! إلى أين يذهب الجمال بعد أن يغيب عن بعض الوجوه ؟! أويدت السيدة « ف » واسعة العينين ملتتهما نوعا كأنما قد سهرت تبكى ، فأقبلت عليها وجعلت أريت خدها يمينى وهى جالسة فى الفراش فرأيت عليها انكسارا وذلة لم أعاين مثلها فى حياتى فأهويت إليها لأقبلها فإذا بها تدفعنى عنها ، فصرخت فى وجهها مستعيدا من فألها السيء .. لكن ذلك لم يحولها عن موقفها ولم يخفف عنها ما أحاطت به نفسها من جور خائف ملذعور دامج حزين ، بل حدث أن رأيت دمعين كبيرتين تتدحرجان على خديها ووجهها مرفوع إلى .

كان على أن أصابر حتى نسمع كلام المختصين وقد كنت معلقا على قولهم أملا عظيما . ثم كنا معا قبل الظهر فى عيادة أحد الأطباء أتقدمها وتتبعنى ونحن نجتاز عتبة الغرفة ثم جلست السيدة « ف » على سرير الفحص فذكرتنى بجلوس المحكوم عليهم بالموت على الكراسى المكهربة . كانت أشبه بشوب أبيض مغسول ، ورأيتهما وكأنها قد كبرت عشر سنوات فى ثوان عشر وكأنما أشفق عليها الطبيب فسألها عن أمرها برقة . فخركت شفتيها عدة مرات قبل أن تجد ما تقوله له ، فهون الرجل علينا الأرمقدا لكننى جعلت أرقب قسما وجهه وحركات يديه وهونقل السماعه على

ظهرها من مكان إلى مكان فرأيت دلائل الخطر على وجهه الهادى . وأخذتها نوبة من السعال وهى بين يديه فاغرورقت لذلك عيناى .

كنت مقدرا سلفا موقف أسرة أم مصدورة ومتصورا رعى هذا المرض الوبيل فى صدرها المخصب الذى مهد الحنان فيه طرقا وشق الحب فيه أودية وتركته الحساسة آثارها فى كل فيه . واستدار الى الطبيب وخاطبته بعينيه قبل أن تقوم هى من مقامها ثم ألبس وجهه بعد ذلك قناعا مستعارا من البشاشة والرضا وبدأ يشرح الموقف قائلا : لا خوف .. المسألة فى غاية البساطة . شرارة صغيرة وقعت على حطب يقبل النار فأضحت مهمتنا أن نضرب حولها حصارا حتى لاتثول إلى حريق !!

وتركت السيدة « ف » تغير مكانها لاهثة فتجلس على أحد المقاعد وسألت الطبيب عن أحسن ما يمكن عمله فأشار علينا أن تلجأ هذه السيدة الرقيقة إلى إحدى المصحات ، ورأيت بوادر الاستسلام تبدو على وجهها ونحن نهبط درجات السلم فى طريقنا إلى البيت فجذعت ورجوتها بدموعى أن تتشجع . كان عقلها الكبير متوقفا عن عمله تماما ، لم تكن هناك رابطة تصل بينها وبين الأرض إلا غريزة المحافظة على البقاء وعاطفة الأمومة ومن هاتين الزاويتين ليس غير رأت الدنيا فى ذلك النهار .

ولم يكن هناك مفر من أن أتركها وأذهب لأدبر أمر المصحة وقد كنت ساعتئذ نهبا لأفكار كثيرة ، ولست أدري لم ذكرت « أم سمك » التى كانت تداعبنى وأنا ساعى بريد . لقد جعلت صورة « أم سمك » تلح على أفكارى دون أن أعرف لذلك أصلا حتى تبينت بعد أنها زوجة عسكري مطافى وأن رجال المطافى يكافحون الحرائق ، وأننى اليوم بالنسبة إلى السيدة « ف » كنز و « أم سمك » أكافح نارا جائعة ربما اجتاحت بيتنا كله . وتأملت حين تحركت فى الأناية وحب الذات وحب الولد وهممت أن أقطع الرحلة فأعود

إليها لأوصيها بابننا « وحيد » لكننى استفظعت هذا ثم عدت فاستصفرته .. لأنها أم !

قلت فى نفسى وأنا راجع إلى البيت بعد أن هيات لها موضعا فى إحدى المصحات فى ضاحية قريبة : إن فى الناس سعاء تورق فى أرضهم أعمدة السليفون ، كما أن فيهم أشقياء تحجف من لمسهم خضرة الأشجار . فهل نحن الصنف الثانى يارب !؟ وهل الأصل فى حياتى أن تكون متفوزة قلقة كأنها سيارة على طريق جبلى ؟. أعنى أن الهدوء فيها ونعومة الحركة أشياء خارجة عن طبيعية الطريق !؟ لكننى الآن لست مسئولاً عن نفسى وحدها فهناك مخلوق ضعيف فى الرابعة من عمره يطالبنى بالحماية ويسألنى أن أجنبه المكاه . ثم وطنت نفسى على أن أحتمل وأن أتكلف الابتسام وإن ناء ظهري تحت عبء نادح وجعلت ذلك قرارا نهائيا وأنا أصعد السلم فى طريقى إلى المسكن وأدورت المفتاح فى الباب كما كنت أفعل أيام العزوبة ثم دخلت فأبصرت السيدة « ق » فى فراشها المستقل وبجانها زجاجة دواء كنا اشتريناها وقد شربت منها أول جرعة . ولم يكن وحيد إلى جوارها فقد تركته كما كان قبل ذهابها إلى الطبيب عند جارتنا الطيبة التى كانت أول من نطق باسمه يوم سميته . واستقبلتنى شريكى بوجه متسائل متلهف إلى الخروج وإخلاء المكان . وسيطرت عليها الحساسة فأحالتها ذعرا خالصا وخوفا ولهفة ، وجعلت ألقى على جفاء الموقف شيئا من الرقة بما أصطنعه من بسمات ولكن جهدى ضاع هباء . ولم تقض ساعة حتى كانت فى إحدى الغرفات مع ثلاث غيرها من اللاتى قضى عليهن أن يذهبن قليلا قليلا تحت أنفاس المرض كما يدوب هيكل الشمعة .

كان على أن أدبر أمر طفلنا الصغير لأنه من المحال أن أتركه فى البيت ومن المحال أن أستصحبه إلى المكتب أو أن أدعه حملا ثقيلا على جارتنا وإن

عرضت ذلك بكرم وسخاء . واستعنت بمعلوماتي القديمة ومعارفي أيام كنت ساعى بريد فذكرت سيدة عجوزا كانت تسكن وحدها فى حجرة رطبة وتترقب مطلع كل شهر خطابا حكوميا يصل إليها ، علمت منها فيما بعد أنه إعانة دائمة من وزارة الأوقاف ساعدها على أن تجرى عليها بعض ذوى الوجهة المؤمنين . رأيت هذه العجوز فيما مضى تتحلى بالرضا والتقوى فما رأيتها إلا باسمة . قلت فى نفسى فلأجعلها أما لوحيد حتى تعود أمه . وسلكت من قورى سبيلى إليها ودخلت الحى الوطنى البعيد بعد بضع سنين تقضت دون أن يجد داع يدعونى إليه ، وألفيتنى فجأة أمام « أم سمك » وكانت مطلة بنصف جسدها من باب البيت الخارجى وأردافها فى الداخل ، ولما ألقيت عليها التحية دقت صدرها وتفلت بين ثدييها وبين الملابس ثم قالت : بسم الله الرحمن الرحيم .. لعلمهم يطلعون فى وضع النهار . وحملنى مرحها المرحب وترحيبها الملون بطبعها على أن أبتسم فابتسمت وإن كان قلبى فى مناحة ، ثم صافحتنى ودعتنى جادة إلى فنجان من القهوة ، ولم تنس أن تطرى حلاوتى وتغير حالى وظهورى بظهر الأثرياء .. ثم لم تنس أخيرا أن تقول وهى تضيق عينا وتوسع عينا وتهز رأسها ذات اليمين وذات الشمال : لكنك على الرغم من هذا كله لست خيرا منه .. هل تعرف من أعنى ؟ فأجبتها باختصار لأنهى الموقف : أجل .. أجل .. جناب القومندان ! « أعنى زوجها » .

وتلوت هى الحارة وتعرج الطريق . ومررت بالمنزل الذى استنبت هواى وسقا حبنى وأجرى الحضرة فى قلب لوحته ريح السموم . فأطللت من الباب حيث رأيت كل شىء قد تغير ! كان هناك على عتبة مسكن السيدة « ف » أطفال عدة شعث غير حفاة مفتوحو الصدور لم تعرف وجوههم الماء من أيام تقضت . جلسوا عند الباب المفتوح الذى جعل سبورة للكتابة وأضحى عاطلا

من صندوق البريد . فاسترجعت نظرة تنديها الدموع وسرت أنقل خطواتي على الأرض وإن كنت سائرا فى الماضى أذكر ليالينا التى كنا نقطع سوادها بأحاديث بيضاء ونجوى مشرقة وأذكر الأحداث التى تلتقنا بعد ذلك حتى أدى بى المسير إلى البيت المنشود . فطرقت الباب وسألت عن السيدة فأجابنى غلام كان يلهب نحلة خشبية بكرياج فى يده : « عزلت يا افندى » فأدركت أنه من سكان بيتها القديم فلم أر بدا من أن أرجوه ليسأل عن عنوانها ، فالتقط نحلته من الأرض ودخل وهو يفرقع الكرياج فى الهواء حيث صعد السلم وهو يدندن وما لبث أن رجع إلى بالعنوان .

وهناك فى الجيزة فى طرف قصى من حى وطنى جديد ، لا يزال سكانه يجلبون الماء إلى بيوتهم بصفائح وجرار من حنفية عامة قريبة ، ولا يزالون يريقون ماءهم المستعمل فى الحارات أمام البيوت . وفى هذا الحى عشرت على السيدة المطلوبة . وقد أبدت فرحها بلاقائى وسارعت فنفضت لى مجمل حالها قبل أن أسألها فجعلتنى أشم أنها فى عسر لأن وزارة الأوقاف خفضت ما منحه إياها من إعانة ، ثم إنها خجلت أن تشكو إلى الوجيه المؤمن . فحمدت الله فى سرى وشكرته على أن قبض لى امرأة كهذه فى طريق « وحيد » ثم رميت سريعا إلى ما أهدف وشرحت لها الأمر فرحبت بالفكرة لكننى لقيت عناء غير قليل فى حملها على تحديد المبلغ .

ولست أنسى اليوم الذى تركت فيه فلذة كبدى عندها فى الجيزة ثم عدت فنمت وحدى فى الشقة . جعلت أعجب من سخرية الأقدار وأتدبر كيف أن عقد الأسرة قد تفرقت حياته فألقيت واحدة فى ضاحية وألقيت أخرى فى ضاحية وبقيت أنا ممثلا الحبة الثالثة فى المدينة وحدى .

وكان وحيد يسألنى عن أمه ونحن فى طريقنا إلى الجيزة فأخبرته أننا ذاهبان إليها . وحاولت أن أجول به فى كل مكان ، حتى يغلبه النوم وهو

على كتنفى ، فأدخل به إلى منزل كافلته الجديدة وهو نائم .
كان لابد من خوض هذه المعركة . وكنت واثقا أنه سيبكى ، وأنه
سيضرب عن الطعام ، وسيعمل أشياء كثيرة ، ولكن كان لابد من تحمل هذا
كله ، وستكفل العادة بإساعة غير السائغ واحتمال غير الناعم ما دامت قد
فرضت علينا ، وتركته نائما عندها وقفلت إلى منزلى وسرت نحو القاهرة ،
وأنا متخيل أننى فقدت أحد أعضائى . تخيلت أننى أثب على رجل واحدة ،
أو كأننى أهز ذراعا واحدة فحسب فى حركة المشى ، أو كأننى فقدت عينى .
المهم هو أننى شعرت أنى تغيرت . فبكيت .

ما لى صرت سخرى الدموع ؟ هل هو حقيقة ؟ أ حقيقة ما يقولونه فى
أمثالنا العامية ، من أن الحزن يعلم البكاء ؟ : لكن خاطرا خطرى وأنا فى
الطريق بعد أن عبرت « كوبرى عباس » ، فوثبت من الترام وعدت أراجى
إلى الكافلة لأقترح عليها اقتراحا .

وعجبت من رجعتى ، وربما ظنت هى الظنون فاعتبرتنى « مفتشا »
ولكنى عدت إليها فى الحقيقة لأقترح عليها أن تقيم فى مسكنى مع وحيد
فى القاهرة ، فإن ذلك أنظف وأيسر وأدنى إلى التعاون ، فما كان منها إلا
أن لوت بوزها الجاف وحركت تجاعيد وجهها المكرومش بما يفيد أنها بدأت
تتشكك فى سلامة تصرفاتى وبياض نياتى لأن انتقالها إلى بيتى لتعول
طفلا فيه ، مدلوله عندها أنها أضحت خادما .. وقد كانت قديما من
السيدات .. وذلك مخز فى نهاية الأعمار « حسن الختام يا رب !! » فلم أجد
مفرا من أن ألوذ بالصمت ، بل أطريت حين رأيها وألقيت نظرة على الطفل
النائم فى فراشه المؤقت ، وخرجت بظهرى من الباب وأنا أدافع نفسى التى
تلح فى تقبيله .

تفتحت علينا أبواب المطالب وبدأ المدخر يتآكل ، وعدت رجلا غير

عازب ولا متزوج ألف الحياة المنظمة ثم حرم منها . فقسمت أوقاتي بالقسطاس ، أعمل فى المصلحة ، ثم أعود فأجهز طبخا لأكلى وأكل السيدة « ف » . ثم أستصحب بعضه مع شىء من الفاكهة والدواء وأذهب بذلك كله إلى المصلحة ، ثم أخرج من هناك إلى الجيزة حيث أدرك « وحيد » قبل أن ينام فأقدم إليه الفاكهة والحلوى وشيئا من القهلات ، وأجلس منصتا وأنا راغم إلى حديث امرأة تقص أمر الزمان الخالى على مسامعى فأبتسم ، ولا أزال حتى ينام وحيد . بعدئذ أستقل الترام إلى حيث أستلقى فى فراشى محطم الأوصال . كانت المعركة على أشدها بين السيدة « ف » وبين المرض ، وقد كانت معركة لا تنكأ القوى فيها ولا تتقارب ، كما أن السيدة « ف » بذلت لعدوها ما كان ضدها ، أعنى أنها استسلمت للتفكير خصوصا عندما كانت ترى متاعبى وبعد أن علمت ببرنامجى اليومى ، وبعد أن رأت آيات الكلال بادية على فاسترسلت فى هواجسها حتى آخر الشوط ، وكثيرا ما كانت تسألنى عن المال فأفر من الجواب ، وكثيرا ما كانت تستحلفنى أن أكل بجوارها من فاكهتها التى حملتها إليها الآن أو شيئا من اللحم فكنت أعرض عن اقتراحها أسفا متألما . وشكاها طبيبها إلى عدة مرات وحدد موضوع الشكوى فرأيته معقولا : كانت إذا ما أحست شيئا من النشاط أو التقدم استهلكته فى التجربة أن تقرأ أحد كتب جاراتها أو أن تتحرك أكثر من المطلوب فتهلك بهذا نواة صالحة من الممكن أن يبنى عليها صرح الصحة ، ثم تعود السيدة « ف » فتحزن على ما أفسدته . وهكذا دواليك ، فلما رجوتها أن تمتثل للنصائح صارحتنى بأنها ظلمتنى لأنها حملتنى فوق ما أطبق فى كل مراحل حياتنا المشتركة .. ثم عادت تسألنى : أأست نحس

هذا ١٥

ونفذ المدخر ومددت يدى إلى الناس فاقترضت . وإذا كان المرتب السليم

من الديون عاجزا عن استيفاء طلباتى فهو من باب أولى أعجز إن مسه الدين . فارتبكت خطواتى فى طريق المال ورأيت نفسى رجلا مظلوما ، وضربت بى الكافلة فشددت فى مطالب رأتها ضرورية لوحيد ، وللمصحة حاجات لا تنفد . وفكرت فى هذه الفترة أن أنقلها إلى القسم المجانى فألفيته مزدحما بمن فيه فضلا على أن هناك طلبات قديمة . ثم فطنت أخيرا إلى أن هذا عمل غير صالح وسيكون سببا فى انهيارها النفسى حين تدرك أننى أفلست وأنه لا مناص لها من تغيير المكان بسبب النفقات فأشفت من ذلك عليها وإن كانت تعلم أننى فى عسرة لكنها ليست على يقين ، وكثيرا مايسعد النفس أن تعيش فى المجهول .

ثم وقع لى حادث كان أشق ما عانيته فى حياتى ، وكان بسبب المال . كنت أطلب ما أكفل به زوجتى وما أكفل به ولدى ، وكنت أبحث بكل ما فى عن غذاء ودواء ، أشياء لا يستغنى عنها كيان حى يدب على الأرض . وضائق بى المسالك ولم يعد هناك باب مفتوح وكنت ليلتئذ راجعا إلى بيتى بعد أن ضربت فى الطرقات كأننى أفتش عن طفل ضال ، وكان الليل قد انتصف منذ كثير وبدأت الشوارع تلفظ آخر من فيها كما بدأت الحانات تلفظ كثيرا من رائديها . وهناك فى شارع محمد على ، على الرصيف الأيمن المتجه نحو باب الخلق ، حيث يجثم الظلام المعقود من عقود البواكى وحيث أبواب المتاجر قد أوصدت وليس هناك إلا ريح الخريف تخفق عند مدخل الحارات الضيقة المتفرعة من الشارع . وعند مدخل إحدى الحارات وعلى بعد يقرب أن يكون عشرين مترا رأيت شبحا فى الظلام وقفت أراقبه لأنى سمعت صوت قبضة فعرفت أنه سكان ، ورأيت الرجل بعد قليل يترنح ثم يسقط على الأرض ثم رأيت مرة أخرى يتحامل محاولا أن ينهض ثم يدير وجهه نحو الحائط ويضع عليها ذراعيه مربعين كما تربعان على الصدر ثم يريح

عليها رأسه ، وتمر دقيقة فيستأنف قيئته ويشن ويزحر ثم يهوى إلى الأرض .
 رأيته مدفوعا إليه باسم الإنسانية وباسم الألم الذى يجمعنا ولو أن
 ألمه قد لحقه من نشدانه اللذة وذلك بخلاف ألى ، وأنهضته من تحت إبطيه
 وكان ضئيلا فلم يعينى ورأيت تتابع أنفاسه فعلمت أنه مرهق ، وسألته عن
 اسمه فغمغم بما تركنى غير فاهم شيئا . ثم انزلق من بين يدي ليجلس على
 الأرض . كان يلبس جلبابا من الصوف قائما رأيت أنه أسود تحت إشعاع النور
 اللوانى الذى يدخل إلى الحارة من أحد مصابيح الشارع . وكان جلبابه واسعا
 يبدو أنه فصله وهو أكثر سمكة وتحتة قفطان يفتح أعلاه عن صدر يكشف
 عن صدر ظاهر العظم . وامسكت بالرجل مرة أخرى لأنهضه فتعاس كأنه
 يريد أن ينام ، وتكررت هذه الحركة فأحست يدي بحافظته فى جيبه ورأيت
 جزءا منها يطل وأنا أكب عليه لأنهضه ، وكانت كبيرة تحدث لاسمها أنها
 من محافظ التجار وأن فيها أوراقا مالية من فئات كبيرة .

وهنا ذكرت رسائل السيدة « ف » وحضرني ما ذكرته عن المرأة حين
 يراودها الشيطان ١١ كان الشيطان يراودني فعرض على الموقف عرضا بارعا
 رائعا واضحا ملموسا لا يخفى فيه شيء : زوجة مصدورة تن على أحد
 الأسرة فى مصحة ، تريد زيدا وفاكهة ولحما وعقاقير لاحتصى وأمامها حتى
 الشفاء طريق مفروش بالأوراق المالية ١ وولد فى كفالة امرأة غريبة ظنت أن
 أباه ينهوعا يفيض بالخيرات ولم تكن كذلك من قبل ، ومرتب مدين لا يقوم
 بحاجتنا من غير دين فما بالك به بعد أن أثقل . والغد قائم مظلم حين تخرج
 السيدة « ف » من المصحة لتنام فى البيت فتلوته فيعرض الأب الولد للمرض
 وتفتنى الأسرة . أيد كثيرة ممدودة أبدا نحو عائل ضعيف قد نصب معينه وقد
 سنحت له الفرصة لياخذ من مسرة هذا السكير الذى طفع المال فى الطريق
 بعد أن شربه خمرا - لياخذ ما يخفف به آلام الجراح فماذا فى هذا؟

ومددت يدي إلى الحافظة ثم عدلت فأرجعتها فارغة . ثم سعل
السكران فتذكرت سعالا هناك عند أطراف المدينة يهدم أركان صدر أم
وزوجة ، وتخيلت أنها تقول في هذه اللحظة : غدا بعد الظهر سيأتى مختار
ومعه الدواء . فمددت يدي إلى جيب الرجل مرة أخرى فأحسست أن الحافظة
خارجة من مكانها بكثير وكنت مصمما ، وخيل إلى أنها تناوشنى وتناغينى
وتستفزنى وتقول لى خذنى .. ولكنى ذكرت المسئولية والضمير والسجن
وعسكري الدورية الذى لا يستبعد أن يبتغنى وأنا فى مكانى ، وسمعت كأن
بابا حديديا ضخما يصير وكأننى أدخل فإذا به باب سجن ، ولكن المنظر
امحى سريعا من خيالى فأيقنت أنه باب المصححة حيث ترقد السيدة « ف »
يقطع أوردة صدرها السعال ويسيطر على أنفاسها الداء الويل !! فأغمضت
عينى كمن سيقفز إلى الماء ثم أخذت الحافظة ودسستها فى جيبى وتركت
الرجل ينطح على الأرض كيفما شاء وجعلت أنقل خطواتى ذاهلا لا أدرى
سالكا سبيلى على البلاط المتخذ من أحجار الجير ، وقد فضلت هذا الشارع
على الشارع العام . ثم جعلت أدور فى طرقات شتى أدت بهى أخيرا إلى
حارة « ش » التى أسكنها من قديم .

ثم جعلت أعاين جريمى بنفسى .

ألقيت عليها نظرة تحت النور وفتحت قفلها بيد مرتعشة فطالعنى
خضرة الأوراق . أحسست أننى فى واحة وإن كنت لا أملكها لأن هجير
الصحراء كان قد جفف ريقى . وتنفست طويلا ثم شرعت أحصى النقود فلما
وجدتها عشرين جنيها هممت أن أحمد الله لكننى كفكت لسانى وأطرقت
نحو المنضدة كأننى أحول وجهى عن وجه الإله الذى يطالعنى من فوق . ثم
جعلت أتصور كيف أن هذا المال سيستحيل حالا إلى طعام ودواء امرأة
مريضة وقد كان من قبل مقدورا عليه أن يستحيل إلى خمر ولذة . وخلقت

للموقف فلسفة ترضيني حتى عدت فطمعت فى عطف الله ثم رجوته العفو .
وامتد بى السهر وأنا أفحص المحتويات غيرالنقود وأقلبها بين أصابعى
حتى ألهمت شيئا فشرعت فى تنفيذه .

كان اسم ضحيتى السكران هو المعلم عنتر سلامة صاحب مخبز الأمانة
بدرب سعادة . وقد عرفت هذا من بطاقات تزايد على الخمسين كانت بين
أوراقه . فأمسكت قلمي وشرعت أكتب إليه.

« سيدى : لاتسب ولا تلعن فما كنت قاصدا إلا إنتاذاك .. تقدمت
نحوك إنسانا ثم رجعت عنك شيطانا وذلك بحكم الحاجة وأنا معذور .
امراتى مصدورة ووحيدى مشرد . إنسان ناضب المعين تالف المرافق . فاعتبر
نقودك دينا فى ذمتى أردت إليك عند التيسير وثق ياسيدى أننى متألم . هل
تعرف شيئا عن أكل الميتة وشرب الدم فى حالات الاضطراب ؟ هذا هو ما
فعلته بالضبط فلا تظننى لصا .

هذه هى أوراقك - ماعدا النقود - راجعة إليك بالبريد . فلا تلعننى
والسلام » .

وذلك هو ما فعلته بعد ما اجترحته يداى فى ليلتى المشنومة . وقد
عمدت إليه بعد أن خيل إلى أن كلمة « الأمانة » فى بطاقة السكران بصقت
فى وجهى . إن لكل جريمة عقابا بلاشك ، وقد كانت عقوبتى فى داخلى فلم
أنم بقية الليل لأن رجال الشرطة طاردونى فى الأحلام بل أن السيدة « ف »
نفسها زارتنى عاتبة غاضبة وكان آخر ما قالته لى : « الخبيثون للخبيثات »
فقد أصبح كل منا إنسانا له ماض ملوث .

ولم أنهض من فراشى إلا بعد ساعة من ميعادى المألوف ونهضت فاتر
العظام كأننى سهرت فى حانة ، وكان أول ماتذكرته هو فعلة أمس وكيف
أننى سرقت ، لكننى عدت فخفضت عن نفسى بأن الضحية سكير غنى معرج

السلوك بين أوراقه صورة فتاة من بنات الهوى وقفت إلى جواره وقد لفت ذراعها حول عنقه ولبست طربوشه وتركته وهو عارى الرأس ثم اتشحت بكوفيته الخيرية ذات الهدب الطويل !! .. يستحق !!

قابلت السيدة « ف » فى المصححة أصيل اليوم وكنت متخمة الحقيبة بما حملته من أشياء ، وأظن أنني رأيت فى عينيها تساؤلا عن سر هذا الإغداق فحولت بصرى حتى لكانها ستعرف . وقد كانت السيدة « ف » مع الأسف سيئة الحال وقد رجتنى يرمذ - وآلمنى هذا - أن أعود إليها غدا بوحيد حتى تراه . وقد فعلت . وجعل ولدنا يسألنى ونحن فى الطريق : إلى أين نحن ذاهبان يا أبى ؟ فرأيت من الصواب ألا أذكره بأمه التى نسيها بعد اثني عشر شهرا أوهمناه خلالها أنها مسافرة حتى أسكنه اليأس أو لعل الأيام هى التى أنسته . وسألنى وحيد مرة أخرى : إلى أين يا أبى ؟ فأجبته : إلى حيث أريك أناسا كثيرين مرضوا لأنهم كانوا يلعبون فى الحارة ويلوثون أيديهم بالقذارة .

واستقبلته أمه وهى فى فراشها فاحتضنته بنظراتها وإن لم تقم من مرقدها وغرقت عيناها فى الدموع ثم أفاقت لتقول :
- وحيد .. ألا ترى « ماما » ؟

ونظر إليها الصبى فلم يعرف فيها أمه لأن كل شيء قد استحال فتراجع خائفا لا تذا بأحضاني قائلا :

- لا . لست « ماما » .. أمى سافرت !!

فوزلننى مقاله وعرفت السيدة « ف » بماذا كنا نخدعه لكننى حاولت جاهدا أن أقنعه بأنها هى فذهبت محاولتى أدراج الرياح فأجهشنا بالبكاء . وبكت الثلاث المريضات من حولنا . ورأى وحيد هذه المظاهرة الحزينة فانخرط يبكى هو الآخر لكن المؤلم فى الأمر هو أنه كان يقول بإصرار دامغ

بالغ :

.. لا .. لا .. إنها ليست « ماما » !!

حقيقة أنها لم تكن « ماما » كما قال وحيد ولم تكن السيدة « ف » بل كانت امرأة متعبة فى آخر شوطها اللاهث وسفرها المكثود .. وقد خاضت المعركة الأخيرة بعد ذلك بأسبوع واحد .

تركت « البرافان » محيطا بسريرها من أقطار ثلاثة ليخفى عن عيون الناس منظرا طالما تلمست حكمة الله فيه فلم أعرف مكانها !! لقد اصطرع الموت والحياة واشتبكا بعنف فى مكان ضيق . وكانت ظلال الحياة تحتل ملامحها ثم تجلو ثم تعود فتحتلها تحت لواء أنفاسها المبهورة .

تركت « البرافان » محيطا بسريرها ووقفت فى الشرفة الغربية ألقى نظرة على شمس الخريف المائلة إلى المغيب وأسترجع بخيالى صورة المريضة التى كأنها هى الأخرى شمس فى منحدرها إلى المغرب وتقاسمتنى الذكريات وتوزعتنى الأحداث فذكرت يوما مضت عليه أعوام أبقت فيه إلى الإسكندرية حيث جلست فى حقول عزبة خورشيد فرأيت الغربان فى ملابس الرهبان كما أراها الآن تسف حول جريد النخل ، ورأيت هناك الهدهد يبحث عن كنوز سليمان فذكرت حبا قديما ظننا أنه سيدوم ما دامت هذه وتلك ، لكنه انقضى وكلها باقية !! ثم ذكرت « نزل السعادة » فى كفر الدوار ذلك الذى أويت إلى حجرة غريبة فيه وأنا أنهته دمعى وأمسك جنبى من طعنة المقدور . ثم ذكرت كيف أن حنان الطبيعة فى تلك البقعة قد مسح عنى أحزاني وشفانى من الآلام فرجعت إلى القاهرة ناقها فى طريقي إلى التحسن، ثم ذكرت كيف أن هذا قد أدى بى أخيرا إلى مسكن السيدة « ف » والليل ساكن مظلم أآه .. وهذه هى السيدة « ف » نفسها ترقد خلف ظهري .. من

يصدق ١٢ أجل من يصدق أن هذه هي تلك ١٢

واختفت الشمس وراء الأفق فأدبرت ظهري إلى الخلاء ونظرت نحو الداخل مستندا إلى إطار الشرفة الخشبي الذي ركب على سياجها الحديدي ثم أرجعت كفى إلى الوراء وجعلت أنقر بأناملى على القضبان وأنا أهز رأسي وإحدى ساقي ملفوفة على الأخرى . ثم رأيتني أهمس فجأة وكأنتي أخطب أحدا : أجل من يصدق أن هذه هي السيدة « ف » !! وعدت فاستقبلت الخلاء بوجهي وجعلت ظهري ناحية الحجرة ، وطالعت السماء فألقيت فيها ألوانا من الشفق تحليها عند الغرب وكان هناك زناران متوازيان أحدهما وردى والثاني رمادى عادا فألقيا إلى خاطري من جديد بذكرى ليلة نزل السعادة . عندئذ سألت نفسي : ولكن أين السعادة ؟ ثم تحولت عن مكاني ودخلت إلى الحجرة وعبرت إلى السرير من باب « البرافان » حيث جلست على حافة الفراش من عند قدميها . وأوقد في الحجرة مصباح ألقى على بقايا زوجتي نورا أحمر مصفرا زائدا شحوبا وغربة .. أجل وغربة لأن شبحها أمسى غريبا في نظرنا نحن الأحياء . لم تكن هناك بشاشة ، لكن كيف أطلب البشاشة في هذه المواطن وقد قلنا إنها معركة . كانت الحسناء جلدا يشف عن أوردة زرقاء يبدو الدم متحيرا فيها لا يسير كما يتحير الماء في الجدول الراكد .

وأدمنت النظر إليها أرقب آية الموت وأتدبر مغزاها - وآية الموت لا تتدبر إلا إذا عثرت في أحد أحبابنا - فألقيتها واضحة جدا لأنها عكس الحياة كانت واضحة جدا ، بل إنها أمست أشد وضوحا في نفسي عن الأيام التي عشناها معا في حارة « ش » !! غير أن أمرا واحدا خفنتني وحير لبي وشئت أفكارى ألا وهو قسوة المعركة !! إن السيدة « ف » مسالمة بطبيعتها وقد آلت حالها إلى رقة توشك أن تكون ذوبانا فقيم يا رب هذه المعركة ١٢

إن كل شيء فيها يخفق وإن كانت الأهذاب الطوال قد رقدت نهائيا على
خديها رقدتها الأخيرة .. ثم حمى الوطيس فأيقنت أن ساعة الفصل قد حانت
وأصبح المنظر أقرب إلى أن يكون بركانا يتفجر فى عود من القمع طويل
ناحل رفيع أصفر ، فأنظر كيف يتفجر البركان فى العود ؟ حتى إذا ما
سكنت الحركة ألقى قبلة على جبينها البارد ثم سحبت على وجهها الغطاء ،
وأخلت السبيل لدمعى المحبوس ؟

- ١٢ -

لم توصنى بشيء فى الفترة التى فيها تكثر وصايا الناس عندما
يشعرون أن أقدامهم علقت أخيرا بشباك المنية فيتخبرون ما يقولون . ولعل
السرى فى ذلك راجع إلى ثقته بى . وكانت نظراتها فى آخر العهد اعتذارا
واستغفارا كأنما كانت تقول لى : لقد حملتك كثيرا من المتاعب .. آسفة . ما
كنت أقصد إلا إلى إسعادك !!

ثم توقفت فى طريقى كأنما لألقى نظرة على المرحلة التى قطعتها من
عمرى ، ولأرى عدد الصفقات التى عقدتها على هذه الأرض فأحصى فيها
الريح والخسارة .

بدأت بصفقة « ميلادى » فرأيتها خاسرة لأنها لم تكن ضرورية ولم
أكن ضروريا فهناك « وحدات » من طرازى من المقطوع به أنها صالحة لأداء
الرسالة التى كلفتها فى الحياة والتى انحصرت فى عمليتين أحدهما توزيع
الخطابات على البيوت ، وثانيهما الانكباب على كشف الماهيات فى
حسابات البريد .

ثم كانت صفقة حبى لسكينة وقد علمت قصتها فإنها لم تنته إلى شيء ..

كانت تحلم بفتى فى الإسكندرية وفتاها الحقيقى فى الدلنجات وعيشها الدائم فى حقول أبى المطامير ، فانظر كيف كانت الأقدار تتسلى بالبيع والشراء دون أن تعقد صفقة كما يضيع الفارغون وقتهم على القهوة فى مساومة باعة « الأمواس » و « الفانلات والشرابات » !! .

ولعلك لم تنس صفقة حبيبى للسيدة « ف » وما لقيناه فيها من عناء مزدوج . كان كل منا مدفوعا نحو صاحبه لكن عقبة معنوية ظلت قائمة بيننا شهرين كانا أطول من الدهر . وأحرقنا قلوبنا وقرحنا أعيننا حتى اقتنعنا بالزواج فعقدنا به صفقة ، وجعلت أنسام خفيفة عطرة تهب على فراشنا وتحرك ستائر عشنا فى نعومة ويطء مفعمين باللذة ، لكن ذلك لم يطل ، فبغتتنا ريح أزعجتنا ، ودهمتنا أحداث شتتت شملنا المجموع .

وهناك صفقة أخيرة لست أدري حكم القضاء فيها تلك هى صفقة ولدى .. صفقة وحيد . إننى مسامح غافر للزمان كل ما مضى ، مستعد أن أتحمّل من بلايا كل ما يسوق على شرط ألا تخسر صفقتى فى ولدى .

غير أن بلبالا شديد الوقع قاسى الإلحاح يسلك دائما بتلابيبى . فحواء أنتى أخاف على وحيد من رشاش العدوى . وإن كانت الظروف القديمة كلها لا ترشحه لشيء من هذا . لكننى أخاف عليه .

جعلته تحت مراقبة دائمة من الطبيب المختص وأغدقت على كافلته العطاء على الرغم من عقابيل الديون التى أورتتها صفقة الزواج . وكنت أستصحب معى لوحيد كثيرا من الفاكهة وشطائر الخبز المحشوة بالكبد وأراقب أكله فيها وأنظر إليه وهوينتقى قطع الكبد من بين لباب الرغبة فأقتنى أن أحشو له الجزء الباقي من الخبز بفلذة كبدى لو يستطيعها الحى !! أما صحتى الشخصية فقد كنت واثقا منها ولعل لثقتى بها دخلا كبيرا فى المناعة . كنت أقول بينى وبين نفسى : ماذا عسى أن يتغلب على إنسان

غلب الجوع ونام على الأرض فلم يصبه أذى يذكر ! ؟ وجعل وحيد يتفتح ، ونسيت غبن الزمان حين رأيت إشراق الحياة على وجهه الخلو ، وبصرت بتزاج جميل متعانق فى قسماته ، وهو خليط من وسامتى وملاحة السيدة « ف » وأحسست أن الشمس بدأت تدخل من النوافذ الشرقية إلى مسكنى على السطح فى حارة « ش » بعد أن كانت كأنها أضريت عن دخوله منذ غابت سيدة البيت .

ونلت ترقية جديدة وتحسنت تبعاً لها حالتى المالية . وقطعت دابر الديون ، ومد الله لى فى عمر الكافلة العجوز حتى بلغ وحيد سن السابعة فاستردده منها . ولست أنسى يوم وقفت هذه المرأة عند باب بيتها الخارجى فى الجيزة لتودع ولدها الذى آنس وحدتها ثلاث سنوات وهى منكبة عليه تقبله والدمع يجرى على بوزها المعروق ، ثم عاد ابنى إلى المسكن الذى ولد فيه والذى ارتحلت عنه والدته ، تلك التى كانت تمنى أن ترى ضحكة الشباب متدفقة من فمه للمرة الأولى فحسب ، ثم تقضى نحبها سعيدة !! كلنا نريد !!

عشت فى المنزل بعد وفاتها تحت ضغط عنيف من الذكرى لكننى قررت ألا أرحل عنه ، حقيقة أن هناك مناظر كانت قاسية شرسة كأنها تصنع أو تترك ، ولكننى احتملتها . هل كنت تتحمل أن ترى أصص الزرع فى السطح قد جفت لأنها فقدت يدا كانت سبب خضرتها ثم عاثت فى تربها الفيران فأتلقت نظامها ؟ أوهل تتحمل أن تسألك عنها أوانى المطبخ وقطع الأثاث حين تقف بينتها كما كانت تسألنى ؟ وهلا تحس ألماً فى القلب حين تكون فى حجرة فيخيل إليك أنها فى الأخرى ، وحين تسمع حركة فيخيل إليك أنها صادرة منها ؟ لقد احتملت هذا كله ردحا من الزمن حتى خفت عنى وحدته . وربما كان لمجاورة أصدقائنا فى البيت دخل فى الموضوع لأننى

ألقيت عليهم شيئا من العبء فى رعاية وحيد إذا غبت فى الخارج تحت ظروف قاهرة .

وتيسرت حالى فتذكرت المعلم عنتر سلامة الذى سلبت نقوده وهو سكران ، فعزمت على رد المال إليه لكننى رأيت أنه من الأحبب أن أتأكد من وجوده ، فدللت فى ضحى يوم إلى درب سعادة حيث تفقدت مخبر الأمانة وتعللت بالسؤال عن ساكن فى الحارة وما كان إلا موهوما ، ثم دخلت .

رأيت جالسا على مكتب يكسوه غبار تطاير من الدقيق والردة ويحيط بمجلسه إطار خشبى فى نصف قامة الواقف وأمامه تليفون وعليه الملابس البلدية المألوفة . ولما ألقيت السلام دعانى إلى الجلوس دعاء كريما ثم أكد لى حين سألت أنه لا يعرف إنسانا بهذا الاسم . فشكرته وخرجت وأنا أقول بينى وبين نفسى : آه لو يعلم !! ثم وصله حقه بعد يوم واحد فى حوالة يريد .

صرت أضطجع فى فراشى وأسترسل فى أفكار عريضة وأفرض بينى وبين نفسى أننى تزوجت سكينه يوما ما ، فهل كان ولدى منها سيكون « وحيد » أعنى أننى كنت أستنبط منها هذه « الصورة » بالذات أو أن هناك صورة أخرى .. وابتسمت ساخرا من سخافة سؤالى لأننى لم أهتم إلى جواب ثم أنصت إلى وحيد فى الحجرة الأخرى وكان رافعا صوته بالذاكرة ولما استحضرته صوته دعوت للسيدة « ف » بالمغفرة لأنها أهدت إلى شيئا غاليا قبل أن تتركنى .

وخفق قلبى بالحنان من أجل ولدى وهو يذاكر ، وخفت عليه من المستقبل على الرغم من حاضره المدرسى الباهر الذى لا يبنى بشر ، بل هو على العكس يبشر بخير كثير . ثم تمثنت أمنية عجيبة ، تمثنت لو أن تجارب الآباء تهدى إلى الأبناء محفوظة فى علب لأقدم تجاربى لوحيد ناضجة مهضومة فأجنبه مرارة عبورها ! غير أنى عدت فذكرت قولى ذات مساء للسيدة

« ف » : إن التجارب الفردية قلما تنفع الناس .. كتجربة اللص الذى حبس ، ألا تراها لم ينتفع بها اللص الآخر ؟ أما التجارب التى تتوارثها الأجيال فتلك هى التى تنفع . ثم عدت فاسترجعت تجاربى فإذا بها تجارب قليلة الربح باهظة التكاليف . وماذا فيها حتى ينتفع به وحيد ؟ خير له أن يزاوِل تجربته بنفسه . كل ما أستطيع أن أعمله هو أننى لأشقيه . أعنى أن أجاهد حتى لا يعرض له فى الطريق من يزلزل نظام حياته كما زلزلت أُمى نظام حياتى . إن بعض الأصدقاء يشيرون على بالزواج ، فما ينتظر أن تفعله زوجة الأب مادامت أم مختار قد عملت فى ولدها ما عملته ؟

على أننى نلت من السماء كل ما يكفينى ! وإنا إذا تزوجنا امرأة صالحة أول مرة كانت كفيلة بأن تجعلنا نسيء الظن بالزوجة الثانية فنخشى أن نجىء فى مستوى أقل من مستوى الأولى . وإذا تزوجنا امرأة غير صالحة فى المرة الأولى كانت كفيلة أيضا بأن تجعلنا نسيء الظن بالتي تليها لأنه من الجائز أن تكون أسوأ منها ، حسبنا تجربة واحدة فى عالم الزواج لأن فى الرجال رجالا لا يجرؤون أن يزاوِلوه مرة فى العمر !

وألف ابنى حياة الوحدة كما ألفت أنا تدبير شئون البيت . وقنعت من الحظ بما أغدقه من راحة وسلامة تحققتا بعد فترة تفيض بالأخطار . وبدا لى أن عوضا عظيما سيؤدى إلى فى مواهب ابنى فقد كان زهرة إخوانه وعنوانا للجد والمثابرة فلذكرنى هذا بشيء قديم . هو أن الأقدار لن تبخل علينا ونحن فى ظلمات الموج بطوق من الفلين يد فى أنفاسنا حتى تسنح لنا فرصة خير من التى مرت بنا . ودرجنا معا على طريق الحياة ، يدى فى يده ، وتحابينا جدا لأنه لم تدخل بيننا امرأة غريبة . وكانت معانى الأبوة تتضائل فى معاملتى له رويدا كلما كبر لأحل محلها على التدريج معانى أخرى من الصداقة والحب . وكنت أرجو أن أعيش حتى تكتمل له أسباب النجاح ويأخذ طريقه

فى الحياة سليما واضحا مستقيما لا متاعب فيه . وكنت مستعدا أيضا أن أتوقف فوراً فى اللحظة التى يبدأ فيها حياته العملية ، ولو أننى سأكون فى سن صالحة للحياة . وماذلك إلا لأننى رأيت أنفاسه امتدادا لأنفاسى ، وإن كنت تحت التراب .

وأجبت الحياة جدا حين ألقيته موفقا فى دراسته الثانوية . وقد طالما سهرت إلى جنبه أقدم له الشاى بيدى وأطعمه الشطائر فى الليالى التى يسهرها فأراه وهويختلس نظرة إلى وجهى كان مدلولها واضحا جدا . كان يعجب فى ضميره من رجل عاش أباً وأما فى وقت واحد . وكثيرا ما كنت أذكر له ماضى فى المدرسة وأبصره بأسباب إخفاقى فيكتم ضحكة مؤدبة وهو يستمع إلى أخطاء أبيه .

وأتم وحيد دراسته الثانوية على أحسن وجه . وأعلنت نتيجة البكالوريا فنجح فيها وجلسنا معا تفصل بيتنا منضدة ثم شرعنا نرسم المستقبل . كان كل منا مرتكزا بمرققيه على الخشب حاملا وجهه بين كفيه ، ونحن نستعرض المدارس العليا التى يجوز لابنى أن يلتحق بإحداها ، فما راعنى إلا أن قلوبنا خفقت بمعنى واحد ، ثم التقت أعيننا فإذا بأمنية كل منا سابعة فى عين صاحبه . قال وحيد : الطب يا أبى . فأجبت وأنا أحلم : الطب يا بنى !! ثم أغضى كل منا فلم ينظر إلى الثانى . وأحسب أن ذكرى حارة لامرأة عزيزة كانت تجوس خلال قلوبنا لأننا ما لبثنا أن تحولنا إلى الحائط ننظر معا إلى صورتين متجاورتين : صورة أبى الزيتية التى كانت كأنها تنظر إلى صورة شمسية كبيرة للسيدة « ف » .

أحسنا ليلتئذ أن لنا عند الزمان ثأرا . وشعر وحيد بما يشعر به أهل الغريق كلما رأوا صفحة البحر . وخيل إلى أن نفسه هفت إلى أن تعرف كيف قضى الداء على صدر لو كان عاش لحنا عليه وأغدق ألوانا من الرحمة

والحب لا تقوى على إغداقها أنثى . عرفت ذلك لأننى كنت مشتاقا إلى هذا
المعنى بالضبط حتى إنه سبق لى فتمنيت أن لو كان طبيبا ، وإن كنت واثقا
أن كثيرا من الأطباء يقعدهم الحب ويفسد فتهم إذا ما باسروا علاج عزيزة ..
لكنها أمانى !

كنت حاسبا للمستقبل حسابه فاستعددت له ماليا بما قترت على نفسى
وظاهرنى تفوق وحيد فرجيت به مدرسة الطب . وحلت لى الحياة فتصسكت
بأهدابها حتى يتاح لى أن أرى الشجرة الوحيدة التى سلمت لى فى شجرة
الوجود ، فأرى كيف تتعقد للنضج وكيف تجرى فى شحمتها الخلاوة 11.

ثم لغتنا أمواج العيش فى خضمها الواسع حتى نسينا أننا نعيش ،
والسر فى ذلك هو أن مركبتنا درجت عجالاتها على طريق مستو فأصبحت
لا تتقزز حتى كدنا يستولى علينا النعاس . لكننى أفقت مساء يوم على طرق
عنيف عجبت له كيف وقع وكيف اهتدى الطارق إلى بابى .

رأيت أحد خدم المكتب الذى أعمل فيه مائلا فى ظلام السطح وفى يده
برقية .. كانت من الإسكندرية .. وبإمضاء « عباس » يقول لى فيها : أملك
فى خطر . وكنت قد تناولت طعام عشائى بشهية عظيمة لم تكن معتادة
فوضعت يدى على بطنى ألحس موضع المغص ، لأننى جزعت !

لا تعجب يا صديقى فإن جزعنا من فقد الآباء جزء من خوفنا من الموت .
فكما نرى حياة أبنائنا امتدادا لحياتنا على الأرض فإننا نرى وجود آبائنا بقاء
للأرومة التى نبتت منها شجرتنا وكأنهم خط الدفاع الأول فى قتال المنية
ولذلك فإننا نحز من موتهم . وعادتنى صورة حزينة رأيتها فى المصححة هى
صورة السيدة « ف » وتصورت منظر أنثى يجثم عليها الموت وقسك
بأنفاسها الحشرجة فكانت أم مختار . وقضيت الليل لا أنا ساهر ولا أنا نائم
حتى قرب ميعاد القطار الأول فقبلت « وحيد » الذى لم يكن قد رأى جدته

واستودعته الله وهبطت السلم أدور فى ظلامه قاصدا محط سكة الحديد .
كنت مقعم النفس بأحزان مبهمة لا أدرى نهايتها ولا مآتها كأنها أحزان
من تنقبض نفسه من حادثة أليمة لاعلاقة له بها . وهبطت الحى الذى لفظنى
منذ سنوات ووقفت عند ارتفاع الضحى على باب مسكننا القديم فسمعت
أصواتا كثيرة . وكانت هناك أشباح مختلفة الطول ترف من خلف بللور الباب
عاينتها فى فترة قصيرة منذ وفتى . وطرقت ففتحت لى امرأة لا أعرف
وجهها ولم تكن تعرف وجهى بالطبع . لكنها خمنت أننى ابنها ففسحت لى
الطريق . وفى نهاية المدخل ألفت عباس أفندى الكبير فقرأت على وجهه
ملخص الحوادث : علمت أن كل شىء قد انقضى منذ ساعات وأن القلب
الذى لم يسعنى فيما مضى توقف تماما عن الحركة !! لكن نفسى تحركت
لوقوفه ففاضت عيناي بالدموع . وعبرت عتبة المذبح الذى آليت ألا أعبره
ماحييت لأنها ظروف يجب أن ننسى فيها قسما . ثم اتجهت إلى فراشها
المحاط بالنسوة حيث رفعت عن وجهها الغطاء وألقيت قبله على جبينها
البارد ، ثم سحبت الغطاء عليه من جديد !! لشد ما يغير الموت أحكامنا
على الناس !! إنه لا يشير إلا محاسنهم ولا يعرض إلا فضائلهم لكان أجسادنا
يوم تفنى تأخذ معها نقائصنا فلا يذكر الأحياء منها إلا الفضائل . أو لكاننا
آنية رخيصة قديمة معدودة فى سقط المتاع ، يقول عنها مالكوها يوم يدركها
الكسر : « يا خسارة .. كنا ننزع بها الماء الوسخ على الأقل !! »

وساهمت فى حمل جثمانها واستمعت إلى نفسى ساعثتد وهى تقول
لى : احملها مرة وحيدة لعدة ثوان يارجل .. أو هل تبخل عليها بثوان وهى
حملتك أشهرا فى حشاها !!

ثم رأيت عباس أفندى الصغير وقيلته فى جبينه . ورأيت عباس أفندى
الكبير وقد حالت حاله وأكل الزمان أطايبه فبدا كأنه حقل من القطن جنى

محصوله فأض حطبا فى سبيله إلى التقطيع .. ثم الحريق !!
 وكان أشد ماهزنى - ولعلنى قد عجبت له - أن الست زينب ماتت قبل
 أمى . وكتمت ابتسامة حين خيل إلى أن ضحكتها تحت ضغطة الموت كانت
 تفرق كعادتها كما تفرق البندقة بين شقى الكسارة . ثم علمت أن زوجها
 سارع بعد أشهر من وفاتها فتزوج .

وأما الذى أخبر عباس أفندى الكبير بعنوانى فهو ذلك الموظف الذى
 لقينى فى شارع محمد على وقال إنه موظف بالهكاليوريا فى وزارة المالية فإنه
 عاد إلى الإسكندرية فى إجازة فقابل عباس أفندى مصادفة ونفض له مجمل
 حالى .

وكانت القاهرة تستدعينى بعنف طيلة ثمان وأربعين ساعة أقمته بعيدا
 عنها ، وذلك لأن ولدى فيها . خيل إلى فى كل ساعة منها أنه قد حدث له
 ما يتطلب وجودى حالا ، لذلك حثت الرحيل فى أول فرصة . ومر بهى التقطار
 على عزبة خورشيد فألقيت إليها نظرة نحو الشرق لم تكن دامعة وإن كانت
 حافلة بالذكريات . قلت : سكينه .. عم خليل ، البسطامى .. الحاج عبد
 المجيد البدال !! وذكرت جيدا يوم مررت إليه لأسأله عن قوم رحلوا وأناس
 غابوا وجمع شئت شمله الزمان فجلست على صندوق فارغ وجعلت أستمع إلى
 موسيقاه الحزينة التى كان يرسلها وهو مشغول بالزباين قائلا « سبحان من
 يغير ولا يتغير » فهزئت رأسى وهمست : « أجل سبحان من يغير
 ولا يتغير » لقد غاب عن خشبة المسرح أناس جدد .

وهكذا خرجت الإسكندرية من نطاق فكرى إلى آخر العمر. إلى يوم
 أسلم أنفاسى ، وانحصرت كل أمانى فى مدينة القاهرة .

وجدت بنا الحياة ، وتقدم وحيد فى دراسة الطب وبدأ الشباب يلმسه
 بالعصا المسحورة التى تلقى على النفس والجسد حرارة ووهجا ولألاء ، وبدأ

يحدثني عن بعض زميلاته ونحن على الطعام ، ثم أخذ هذا اللون من الحديث يضيق ويضيق حتى انحصر في اسم فتاة واحدة ، فأيقنت أن مرحلة التبلور قد انقضت وأن هذه الفتاة قد سكنت من قلبه حيث كانت السيدة « ف » تسكن من قلبي فابتسمت ودعوت لوحيد ١١

ولما أتم دراسته العامة وبدأ مرحلة التخصص اختار أن يتخصص في أمراض الصدر فأحسست من جديد أننا نشرع سلاحنا لناخذ ثأرنا وتصورت أن السيدة « ف » تبسم لنا من وراء التراب وأنها مرتاحة وأنها غفرت لولدها أنه أنكرها يوم لقاها الأخير، ساعة أصر على أن التى يراها فى السرير أمامه امرأة غير أمه فأبكاها وأبكاى المريضات الثلاث ١١ وتحقق لى ما تخيلته من أن جدار الإنسانية العظيم كان فيه موضع للبتة قائم على هيئة ثغرة لم تتسد حتى كان « وحيد » ثم أترعت كنوس سعادتى يوم رأيت لافتة تحمل هذا الاسم : « الدكتور وحيد مختار » يبرق لونها الفضى على سواد الخشب فوق ناصية لشارعين مهمين . وقد ذكرنى هذا بسواد السبورة التى كنت أقرأ عليها أسماء الناجحين فى كل عام فلا أرى بينها اسمى . فضحكت ، ثم قلت للزمين : لقد عفونا عنك ا

ومنذ ذلك التاريخ أجبرنى الدكتور على أن نتقل من هذا المسكن لأنه لم يعد مناسباً فوافقت . لكننى جعلت أقلب طرفى فى جنباته وألقى بنظرى على كل شىء فيه لأن ذكريات حلوة وذكريات مرة ذاقها قلبي وأنا بين حيطانه . وخيل إلى أننى سأودع صديقاً قديماً شهد ليل حياتى الطويل ثم شهد انبثاق النور ، فأسيت عليه ا

لكننى عدت فذكرت قانون التغير، وأدركت أن عامة الناس أيضاً يعرفونه ولا ينكرونه . ألم يقل الحاج عبد المجيد البدال : « سبحان من يغير ولا يتغير » .. أليس هذا اعترافاً بخضوعنا الجبرى لهذا القانون الباقى ١١

وحملت العربية متاعنا . وهبطت السلم الطويل وأنا أقول لكل درجة فيه : وداعا ، حتى إذا ما استقررت على الأرض وجالت عيناي في الفناء المظلم المسقوف لآخر جولة ، ملأت خياشيمي رائحة الجلد الذي وضع في المخزن . ورأيت نجار الأدوات الموسيقية محتضنا هيكل عود يجرى عليه « الصنفرة » وهو يدندن كأنه يعزف ، فقلت له : السلام عليكم .. ووداعا يا أسطى .. فوقف آسفا وهو يقول : « كده .. كنتم أناسا طيبين !! لكن .. !! فأكملت قوله وأنا أصافحه : « سبحان من يغير ولا يتغير .. وداعا !! »

وطافت بهی ذکریات شباهی وأنا أهبط منحدر الشارع المؤدی إلى میدان
باب الخلق فاستدرت إلى الخلف حیث ألقیت علی الحی نظرة ۱۱

وهناك فى الحلمية الجديدة وفى إحدى الطبقات المتوسطة الارتفاع كان
سكن الدكتور وحيد مختار مع أبيه وخادم يقوم بحاجات سادته !! سبقى
دائما يا صديقى عبيدا نسود عبيدا فهذا هو قانون الحياة !!

وتحولت المعانى جميعا إلى نطاق ابنى ، ولكن الذى كان يحقق لنا السعادة المشتركة هو أن وحيدا كان يبلغنى بين آن وآن خبرشفاء مصدور على يديه أو شفاء مصدورة ثم عودتهما إلى الحياة الحرة الحلوة الطليقة فكنت ابتسم وألقى نظرة على الصورة الشمسية الكبيرة للسيدة « ف » المعلقة إلى جانب صورة أبى الزيتية »



كان الوقت أصيلا في الخريف ، وكانت هناك نافذة شمالية في حجرة نومى يتدفق منها الهواء مداعبا في تدفقه ستارا خفيفا ههنافا يدل على أن اليد التي اشترته لا تحسب للمال حسابا كبيرا لأن صاحبها في بحبوحه .

كنت مستلقيا في فراشى راقدا على ظهري . أحلم وأنا يتظان بذكريات الخريف ، وما أكثرها وما أقساها !! وألقى نظرة مرة إلى اليسار

ومرة إلى صورة أبى فأذكر ما قد لقينا معا وأنا فى مقتبل العمر. ثم أذكر المتاعب وكيف أن مرارتها فى الذكرى تضحى فى بعض الوقت حلاوة محبوبة . وجلت فى مراحل العمر كلها فحمدت الله . ذلك أن صفقة واحدة هى صفتى فى ابنى ربحت فعوضت على الخسائر . إن ضحكة واحدة من شبابه المونق كفيلة بأن تحجف نهرا من دموعى !! ما أجمل أن يحمل جثمانى عدة ثوان يوم أدرج على طريق القبر !

وطرق الباب ، ودخل وحيد باسم الثغر متهلل الوجه ضاحك القسما تفيض من ملامحه سعادة تخضرمها صحارى الدنيا. ثم أقبل وأخرج من حضنه شيئا فغرت فمى حين رأيته بعد أن أخرجه من غلافه . صورة زيتية لى قدمها هدية لوالده فى عيد ميلاده . أعنى عيد ميلاد وحيد !! فقبلته فى جبينه ودعوت له وقلت وأنا فى مرقدى : علقها هناك .. هناك بجانب صورة جدك .. سيفعل ابنك هكذا يا وحيد ! ففعل . وخرج لبعض شئونه فى البيت وجعل يأمر الخادم بأشياء ثم انخرطت أنا فى التفكير .. وخيل إلى أن نوما يرنق بأجفانى وأنا أطلع صورتى على الحائط فذكرت النوم . وذكرت على الخصوص نوعا منه . نوعا لا يطير عن الأعين إذا ما وقع لا يسمح لصاحبه أن ينقلب عن ظهره حتى تحركه يد الله فى اليوم الموعود . وجعلت نسما ت الخريف تنوس بالستار على الشباك المفتوح وجعلت أفتح عيني وأقفلهما وكان نوما ثقيلا جدا ركب أجفانى . ونظرت إلى الصورة . صورة أبى وصورتى . ثم قلت : سيأتى زمن تعلق فيه صورة ثلاثة على أحد الجدران إلى جانب هاتين ، وتكون صورة وحيد . ثم رابعة وتكون صورة ابنه .. ثم خامسة وتكون صورة ابن ابنه .. ثم سادسة !! وجعلت أعد وأنصو ملامح لا أعرف أصحابها فى سلسلة الأسرة . وجعل خط الصور يطول إلى الأمام فأخذت بينها فى ظلمة عميقة . ورأيت على الجدار الجديد خطا من صور جديدة

غريبة مختلفة فى كل شىء حتى فى ملابسها . قلت : هذا جيل جديد لأسرة بدأت بأبى ..

ثم ثقل النوم ، وأحسست كأن أنامل ثقالا تضغط على عيني وفتورا يسرى فى العظام وتراخيا يجرى فى المفاصل . فاستسلمت . وجعلت شريط الماضى يمر أمامى قطعة قطعة حتى ذكرت قانون التغير الذى يؤمن به عامة الناس ، حتى الحاج عبد المجيد البدال الذى قال لى وأنا جالس ضحى يوم من الأيام فى دكانه على صندوق شاي فارغ : « سبحان من يغير ولا يتغير » فهتفت بصوت لم يخرج من شفتى « أجل .. أجل .. سبحان من يغير ولا يتغير .. ١١ » .

الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

- | | |
|--------------------------|----------------------|
| (١٣) حافة الجريمة | (١) لقيطة |
| (١٤) الوشاح الأبيض | (٢) بعد الغروب |
| (١٥) اللجنة العذراء | (٣) شجرة اللبلاب |
| (١٦) خيوط النور | (٤) شمس الحريف |
| (١٧) الباحث عن الحقيقة | (٥) غصن الزيتون |
| (١٨) البيت الصامت | (٦) من أجل ولدي |
| (١٩) أسطورة من كتاب الحب | (٧) سكون العاصفة |
| (٢٠) للزمن بقية | (٨) الماضي لا يعود |
| (٢١) جوليت فوق سطح القمر | (٩) ألوان من السعادة |
| (٢٢) قصة لم تتم | (١٠) أشياء للذكرى |
| (٢٣) الدموع الخرساء | (١١) النافذة الغربية |
| | (١٢) الضفيرة السوداء |

رقم الإيداع ٢٠٢٧

التسجيل الدولي ٩ - ٢١٠ - ٣١٦ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه